

أغنيات



يوسف السباعي



مؤلفات يوسف السباعي



■ أغنيات...

■ الشيخ زعرب



أغنيات

الأمم

إلى

« أم كلثوم » و « عبد الوهاب »
أهدى صدى صوتيهما .. وترديد أغاريدهما .
فمن ألحانها سطرت كتابي .
ومن أغانيهما استوحيت أغنياتي ..

يوسف السباعي

مقدمة

ما من كائن فى هذه الحياة إلا يشجيه اللحن الجميل وتطربه الموسيقى العذبة .. ولكل إنسان لحنه ، وموسيقاه ، التى تمس من نفسه موضعاً حساساً ، فلا يكاد يسمعها حتى يطير ذهنه إلى موضع معين من أيامه الخوالى ، ويصر على ضوئها صورة من صور الماضى التى طواها الزمن ، وقد تصيبه من ذكرها فرحة أو لوعة ، وقد تشجيه وقد تبكيه .. حسب ذلك الجو الذى سمعها فيه أول مرة ، وحسب تلك الصلة التى تربطه بالشخص الذى سمعها منه . ولكن الشئ الذى لا شك فيه أنه مهما كان لتلك الألحان من وقع حزين أو بهيج ، ومهما كان من مرارتها أو حلاوتها فإن لها فى النفس لذة عجيبة ونشوة ممتعة .

ولست أجد كالألحان والأغاني لغة تتفاهم بها القلوب الوهية والنفوس الصبة الذائبة .. فربّ قلبين فرّق بينهما البعد وأحرقهما طول الهجر والحرمان ، طاف بهما فى وحدتهما لحن باك أو صوت شاد .. فأطفأ منهما حرقه ، وضمّد جرحا وشفّى قرحا ، وقرب بينهما حتى لكأنهما التقيا على بعد الشقة ونأى المزار . ألم يجلس أحدهم ذات ليلة وقد طبقت على نفسه أثقال من الحزن وحطت على قلبه أكوام من الأسى .. وجمدت الدموع فى مقلتيه فأمسى وكأنه جلمود شقاء ، أو يأس ؟

ألم يسر إليه لحن أو طافت به أغنية صهرت دمه وأذابت حزنه .. وبددت جاثم يأسه ، وذرت داكن شقائه ؟

ليست الأغاني أصواتاً تصدر من الحناجر وتنسب بها الشفاء ، ولا رنيناً يتبعث من الأوتار والمزامير والدفوف ، لكنها نشوات القلوب واهتزازات الأرواح .. هى ذوب المشاعر المرفهة والأحاسيس الحارة المتدفقة .

إني لأذكر نفسي بعد وفاة والدى وأنا صبي في الرابعة عشرة وقد خيم على البيت الحزن وجثم علينا السكون المطبق الرهيب .. أذكر نفسي في أساى وشروذى وقد أخذت أغنى بصوت خافت — بلاوعى ولا إرادة — أغنية كنت لا أفتأ أرددها في ذلك الحين . ودهش من حولى ، وأمرونى بالكف عن الغناء .. لأن مقام الحزن لا يلائمه الغناء .

ومع ذلك ل أكف عن الغناء .. فقد كنت لا أرى هناك تناقضا بين حزنى وغنائى ، بل كنت أشعر أن غنائى قطعة من حزنى .. وأن بينهما توافقا كاملا وانسجاما تاما .

واليوم .. عندما أجلس لأكتب .. والقلب فى ركود ، والذهن قد استنفد ما به من ذكريات حب قديم .. وخلا من آثار حب جديد .. أجده من العسير على أن أكتب عن العشاق وأقص أحاديث الحب .. حتى يثير مشاعرى سماع لحن جميل أو ترديد شعر رقيق ، فإذا القلب يترنح طربا ، والذهن ينفض عنه غبار الكسل ، وإذا القلم يجرى على الورق ليسطر « أغنيات » .

يوسف السباعى

ياساكن القلب

يا ساكن القلب طيفك مر في بالي
وراح وسابني عليل حبه بقى وبالي
وفؤادى من حر شوقه صار حطام بالي
وهو ساهى وسالى ما اتكسر قلبه
ينسى عهود الهوى ويهجر ولا يسالى
المؤلف

كنت بالأمس كذّابا كبيرا .
كنت مضطرا إلى ذلك .. وكان يتحتم علىّ أن ألقى إليهم بتلك الأكذوبة
الكبرى .
وإلا فأية فجيحة كانت تصيهم لو أنى قذفهم بسلسلة الحقائق التى كانت تتابع
فى ذهنى وقتذاك ؟
لو تركت لنفسى لما توانيت لحظة فى الإفشاء بكل ما كان يطوف بذهنى ..
وفى أن أقول الحقيقة عارية سافرة .. لا لأنى أكره الكذب أو أترفع عنه .. فليس
أسهل علىّ منه . وحاشاى أن أدعى المثالية فأقول إنى إنسان صادق لا يكذب ،
لأنى ما وجدت سوى الكذب حلالا للمشاكل ، ومناعا للمصائب ، وما وقيت
نفسى من شر المصاعب والمتاعب بأيسر من الكذب .
أقول إنى كنت أود أن أقول الحق .. لا لترفع عن الكذب ، بل لأن الحق — فى
هذه المرة بالذات — كان حقا طريقا مسليا ، وكان أجدى وأنفع للمكذوب
عليهم من هذه الكذبة الملفقة المنمقة .

ولكنى كنت مرغما عليه ، وكان مفروضا علىّ فرضا . وكان من الجنون أن أخلع عنى ذلك الثوب الفخم الأنيق الذى ألبستنى إياه أو هام لأبدو مخلوقا مجردا عاديا لا خوارق به ولا معجزات .

أذكر ذات مرة أن أحد زملائي فى المدرسة .. اشتغل بالتدريس .. وأصبح مدرّسا لأخى الأصغر .. وجاء أخى ذات يوم يسألنى : أحقا أن « فلان افتدى » كان الأول فى المدرسة ؟ وأحقا أنه كان بطلا للكرة والملاكمة ؟ .. وأنه كان .. وكان .. ولم أتمالك من الضحك ، فقد كان صاحبى هذا مثالا للكسل وبطلا فى الخيبة .. وسألته من قال له هذا فأجاب بأنه يبدو كذلك ، وأنهم سألوه فلم ينكر بل وأكد ظنونهم وطلب منهم أن يجمعوا بين الدراسة والرياضة وأن يتخذوا منه قدوة لأنه كان فى صباه كذا وكذا .. والتقيت بصاحبى وسألته ضاحكا عما دعاه إلى تلك الأكاذيب فأجابنى دهشا : « ماذا كنت ترائى قائلا لهم وهم يابون إلا إحاطتى بهالة من الإعجاب .. إن من العسير علىّ خذلانهم ، وأسهل منه أن أجاريهم فى الخديعة وأخدع نفسى » .

ولقد وجدت نفسى فى مثل مأزق صاحبى ، وكان من العسير علىّ خذلانهم ، فجاريهم فى الخديعة .. ولكنى لم أخدع نفسى .
أجل والله .. لقد كنت طوال الخديعة أذكر جيدا من أنا ، ومن كنت ، وكيف صرت .. كان لبساتى ينطلق بالأكذوبة الضخمة .. أما ذهنى فكان يابى .
التخلص من الحقائق الواقعة ، لأنها كانت للذيدة .

إذا كانوا هم يابون إلا رؤيتى على هذه الصورة البهية ، فلهم ما يريدون ..
أما أنا .. فلا أستطيع .

من أدرى بنفسى منى ؟

إنى ما زلت كما كنت ، نفس الصبى الذى كان يعدو فى فناء المدرسة ، ويقفز على ساق واحدة خلال الفسح ، ما أحسست فى باطنى أنى قد تغيرت ، بل إنى لأشعر دائما بنفسى « الهيافة » وقلة العقل ، « والشيطنة » ، التى تدعونى لأن

أفعل ما كنت أفعل في صباى ، لولا أنى أتلفت حولى فأجد ظاهرى يكذب
باطنى ، وأجد من حولى يحترمونى ، ويبجلونى ، ويحيطوننى بهالة من التقدير
أنكص على عقبى .. وأجاريهم في تقديرهم ، وأدعى الرزانة والتعقل .

إلى والله ، لقد كدت أعدو من بينهم لأهز شجرة التوت ، القائمة في ركن
الفناء بجوار العقلة والمتوازى والحصان .. لقد كان هزّ التوتة فيما مضى والتقاط
التوت المتساقط أحب متعة إلىّ في المدرسة ، وأبعث شىء على الفرار من قضاء
الساعات الطويلة ، منصتا إلى سخافات الدروس والتفكير في حل رموزها
وألغازها وأحاجيها .

وكان من أشق الأمور على نفسى أن أرى التوتة بعد تلك الفترة الطويلة من
الغيبه ، قائمة أمامى بمجدعها الضخم ، وأوراقها العريضة المتكاثفة ، وفروعها
المكحلة بالتوت ، ثم أظل متباعدة عنها ، مغفلا إياها ، سائرا الهوينا في عقل
وتؤدة .

ولكن ماذا أملك سوى ذلك .. وقد التف بى ذلك الحشد الرزين المتبد ،
وسار بجوارى حضرة الناظر المحترم يرينى نواحي المدرسة ويستعرض لى مبانيها
وفصولها ويشير إلى مبنى المعامل بعصاه قائلا :

— أظنك تلاحظ التغيير الكبير الذى طرأ عليها .. لقد أضفنا إليها جناحا
بأكمله ، وبنينا طابقا ثانيا ، وفصلنا مدرج الأحياء عن بقية المدرجات ..
أما معامل الكيمياء فقد نقلناها من مكانها القديم الضيق ، وأضحت تشغل الجناح
الجديد بأكمله .. هيا بنا لمشاهدتها من الداخل ، لقد تغيرت كثيرا عن أيامكم ،
ولا شك أنك ستسر برؤيتها .

ولم أكن أملك إلا أن أوافق على أنى سأسر برؤيتها ، وأن أعدل عن ذلك
الخاطر الشيطاني الذى كان يدفعنى بأن أتركهم وأعدو لهز التوتة .. وأن أسير
وعلى وجهى سيماء السعادة والاهتمام ، إلى معامل الطبيعة والكيمياء والأحياء .
وهكذا أخذنا في المرور على المعامل ، وقد تملكنى خليط من المشاعر المختلفة

المتناقضة .. كنت أحس في وقت واحد بالندم والضيق والخوف والشفقة والفرح .. الندم لأنى تركت التوبة دون أن أهزها ولو مرة واحدة ، والضيق من المعامل نفسها إذ كانت تحمل لى ذكريات مريرة ، فقد كنت ذا ماض في الطبيعة والكيمياء غير مشرف وكنت أمضى جل وقتى في مدرجاتها ، وأنا شارد الذهن ، غارب البال ، لأفهم شيئا من رموزها ومعادلاتها ولا ما ينتجه خلط حوامضها . أما الشفقة فقد كانت على التلاميذ الذين احتشدوا في المدرجات ، وجلسوا ينصتون بالإكراه إلى يد ٢ كب أ ٤ وأمثالها من الرموز .

أما الخوف ، فكان خوفا من أن أجد نفسى فجأة قد عدت لأصلى سعي المدرجات والمعامل .. أما الفرحة فقد كان لتأكدى في النهاية من استحالة عودتى تلميذا ، ومن نجاتى من شر التلمذة نجاة أبدية .

ولم أنصت بالطبع إلى شيء مما كان يقوله المدرسون الذين مررنا بهم ، لأنى لم أكد أقف بجوار الناظر وأنظر إلى السبورة حتى عاودتنى عادتى القديمة في السرحان والشروء .

وظللنا نجول حتى استقر بنا المقام أخيرا في حجرة الناظر ، وأقبل علينا أحد الفراشين بالقهوة ، وأخذت أحسبها مرغما ذا كرا نصيحة والدتى بألا أرفض قهوة يقدمها لى مضيف حتى لا أضطره إلى أن يكلف نفسه فيحضر لى شيئا آخر .

ولسعت القهوة لسانى كعادتى في كل مرة أحسنى فيها قهوة ، ولكنى لم أجرؤ على الشكوى فقد كان على أن أبدو كبيرا محترما (كيف) قهوة . وبدأ الناظر حديثه وهو يقول مرحبا :

هذه زيارة عزيزة ، وكرم منك كبير أن تجشم نفسك مشقة السفر لأجل حضور حفلنا المتواضع ، ولكنه فضل غير مستغرب ، ومنة غير مستبعدة ، فلا ظن الوفاء لمعهدك القديم ينقص حميد خصالك .

ولم أدر بم أجيب ، فحتى الآن لم أتوصل بعد إلى معرفة كيف يجيب الإنسان

على المديح ، ولم يكن يزعجنى شيء قدر التعرض لكلمات مدح ، ولا كان يعينى شيء أكثر من الرد عليها ، وأطرقت برأسى وقلت متلعثما الكلمة الوحيدة التى يمين على الله بها فى مثل هذه الظروف :

— العفو .

ووددت أن أوقف بهذه الكلمة سيل المدح المتدفق المنهمر ، ولكن الرجل استمر فى قوله :

— إن المدرسة يشرفها أن تخرج رجلا عظيما مثلك .. ويسعدنا فى الواقع نحن المشرفين على تربية هذا الجيل أن نرى أبنائنا قدوة حسنة ملموسة ومثلا أعلى حيا كائنا .. وأن نجعلك أمامهم هدفا يسعى إليه .. ولذا فلن تستطيع أن تتصور مبلغ سعادتنا بوجودك بيننا ومشاركتنا حفلنا السنوى .

وأطرقت برأسى مخلدا إلى الصمت ، وأخيرا أجبت مخلصا :

— الواقع أنى أكثر سعادة .. فليس أحب إلى الإنسان من أن يعود إلى مرتع صباه .. إن كل شيء بالمدرسة يجددلى ذكرى عزيزة وماض جميل .. إني قضيت فى هذا الفناء وبين هذه الجدران أسعد أيام حياتى ، وحاشاى أن أنسى فضل هذا المعهد على .

— ليس لأحد فضل عليك .. لقد كنت نابغة من يومك .. إني أذكرك جيدا ، فلقد درست لك فى إحدى السنين عندما كنت مدرسا بالمدرسة ، وأذكر أن النبوغ كان يشع من عينيك .

من عيني أنا ؟

كله إلا هذا ...

ولكن ماذا أقول له إذا كان يذكر هذا جيدا ، وإذا كان واثقا تمام الثقة من هذا النبوغ الذى كان يشع من عيني .

ماذا أقول له ؟ .. أقول له إنه أكدلى ذات مرة أنى أغبى تلميذ رآه فى حياته ؟

ولكن لا .. لا داعى للفضائح .. لقد أمر الله بالستر .

وعدت أنصت إليه وهو يسترسل في قوله :

— إنى أذكر أنك كنت أول فصلك دائما ، وكنت مثلاً للجد والاجتهاد .
وعاد ذهنى يبحث فى زوايا الماضى عن مرة واحدة كنت فيها الأول ..
فلم يذكر سوى مرة واحدة كنت فيها الأول .. لسبب واحد هو أنى كنت
الممتحن الوحيد ، لأنى مرضت فى الامتحان الأسمى ، وامتحنت وحدى .
واستمر الرجل فى قوله :

— وكنت مثلاً للأخلاق الطيبة ، والسلوك الحميد .
وتذكرت عندما رفت من المدرسة لسوء السلوك .. عندما هربت من
المدرسة وقفزت من فوق السور للتجديف فى النيل .
وهكذا أخذ الرجل يعدد مواهبى ، والذهن الخبيث يكشف لى نقائضها ..
حتى انتهى الرجل من سردها وبدأ يتحدث فى برنامج الاحتفال قائلاً :
— سيبدأ اليوم الحفل الرياضى عقب انتهاء الدراسة مباشرة ، وستقوم الفرق
الرياضية المختلفة بعمل بعض مباريات استعراضية ، وستجرى مباراة كرة قدم
بين فريق المدرسة وبين الخريجين .. فإذا رغبت فى الاشتراك فيها ..
— لا .. لا داعى .. تكفينى المشاهدة .
— كما تشاء .

— وما بعد ذلك ؟

— تقوم الفرق الرياضية بعمل استعراض عام .. ثم يبدأ بعد ذلك فى توزيع
الجوائز ، وأظنك لن تبخل علينا بشرف توزيعها .
— ليس أحب إلئى من ذلك .. إن هذا شرف عظيم لى .
— وبعد توزيع الجوائز سيتناول المدعوون من أولياء الأمور والخريجين الشاى
مع الطلبة ، وفى خلال الشاى تلقى بضع كلمات مناسبة ثم تبدأ بعد ذلك الحفلة
التمثيلية وسيقوم الطلبة فيها بتمثيل مسرحية لوىس الحادى عشر .
— مسرحية بديعة .. أذكر أننا قد قمنا بتمثيلها بضع مرات فى أيامنا .

— أظن ذلك ، وفي خلال الاستراحة سيلقى الطلبة نشيد المدرسة .. لعلك تذكره أيضا .

نشيد المدرسة ! أما زالوا ينشدونه ؟

— أجل إنه نشيدك أنت .. النشيد الذى نظمته وأنت تلميذ .. إن المدرسة تعتر به وستظل تنشده إلى الأبد .

يا مصر يا أمتى	يا طيب أرض الوطن
يا مصر نحن الحمى	من عاديات الزمن
نقدم ولا ننشى	ولـ نذوق المحن
لا نخاف الموت أو نجبن وإن	قلب الدهر لنا ظهر المحن
نقهر الدهر ونسخر بالزمن	وأمام النيل نجثو سجدا

أليس ذلك هو مطلعته ؟

— أجل .. أجل .. إنك ما زلت تذكر .

— كانت جرأة منى فى ذلك أن أقدم على قرض الشعر ، وأنا ما كنت بشاعر قط ..

— لقد كنت نابغة .. كنت رساما وخطاطا وشاعرا وزجالا وقصاصا

ولاعب هوكى وكرة ، وكنت بعد ذلك تلميذا ناجحا .. أليس ذلك نبوغا ؟

— لم يكن نبوغا بالفطرة .. لقد كان نبوغا مفتعلا .. أو مجلوبا بالإرادة ..

لقد أردت أن أكون نابغة لسبب .

— سبب ؟ أى سبب ؟

وأطرقت برأسى برهة ثم ضحكت ضحكة قصيرة وأجبت :

— سبب خاص .. لا أظن الوقت يسمح بسرده .

— ولا نابغة .. ولا حاجة . إنها مسألة حظ .. لقد حق على المثل : قيراط

بخت ولا فدان شطارة .

ودق الجرس مؤذنا بانتهاء الحصّة الأخيرة .. فنهضت واقفا وقلت له :

— هيا بنا .

— انتظر لحظة .. لى عندك رجاء أخير .

— نحيرا .. ما هو ؟

— أريد منك أن تلقى كلمة خلال الشاى .

— كلمة ؟ أى كلمة ؟

— كلمة نصح للطلبة .

— أرجوك أن تعفينى .. إنى لا أجيد .. لا الكلام ، ولا النصح .

— لا .. لا .. لا بد أن تقول كلمة .

— إنى لا أعرف شيئا عن الوعظ والإرشاد .

— ليس وعظا .. إن كل ما أبغيه منك أن تسرد على الطلبة سر نجاحك ..

أريد منك أن تنبئهم أن النجاح لا يكون إلا بالمثابرة والجد والاجتهاد وطيب الخلق وحسن السلوك .. إنهم يحبونك ويرون فيك مثلهم الأعلى ، ولذا فيجب عليك أن تدلهم على الطريق إلى مثلهم الأعلى ، وترشدهم إلى المسلك السوى المستقيم .. إنهم جيل قد دب فيه الفساد .. جيل مائع مدلل مخنث لا يجيدون سوى المظاهرات والإضرابات والعدو وراء البنات فى الطرقات . لا يعرفون غير الفوضى ومشاكسة النساء .

— ولكن ..

— لا ، ولكن .. إن هذا أقل واجب عليك نحو معهدك القديم ، وبدالى من حديث الرجل ، أنه لا مفر لى من هذا المأزق . وأنه لا بد لى من الوقوف خطيبا واعظا بين التلاميذ .

ولكن أى طريق هذا الذى يرغب الرجل فى أن أدل الطلبة عليه وأرشدهم إليه ؟ الجد والمثابرة والاجتهاد وطيب الخلق ؟ ولكن أهذا هو الطريق الذى أوصلنى إلى ما يسميه عبقرىا ونابعة ؟

لا أظن .. إن مثل الجد والمثابرة والاجتهاد وطيب الخلق .. مازال يرزح

تحت ملفات أرشيف وزارة المالية . ولم يفد كثيرا من جده ومثابرتة وطيب خلقه .

أقول لهم حقا عن الطريق الذى أوصلنى ؟
ولكن لا .. لا .. إني لو صدقت القول ، وسردت الحقيقة .. لفجعت الناس والرجل فى .. بل ليس بمستبعد أن يسقط الرجل صريعا وسط الحفل .
ليس أمامى غير الكذب .

يجب على أن أحضر ورقة وقلم وأجلس لكتابة قطعة محترمة من النفاق ..
يجب أن أحدثهم عن الجدة والمثابرة وسهر الليالى فى طلب المعالى .. يجب أن أشرح لهم قول الشاعر : (إذا نام غر فى دجى الليل فاسهر) .

وجلست لأكتب ، ولا أكذبكم القول .. إن المهمة لم تكن سهلة .. حقيقة أنه ليس أسهل على من الكتابة ، ولكن أى نوع من الكتابة ؟

الكتابة المخلصة الصادقة .. لا .. لا الكتابة المصطنعة المفتعلة .. إني قد أكتب قصة من أربعمائة صفحة بمنتهى السهولة .. فى الوقت الذى أعجز فيه عن كتابة خطاب من والدتى إلى أحد أقبائنا .. أقرئه فيه التحية والسلام ..
ولكن لم يكن من الكتابة بد ، فكتبت :
« إخوانى وسادى :

أشكر الظروف الطيبة التى هيات لى فرصة قضاء يوم بينكم فى معهدنا العزيز ، وأشكر ناظرنا الجليل الذى أتاح لى فرصة التحدث إليكم » .
ولكن ما ذنبكم أنتم أثقل عليكم بهذا الخطاب الثقيل الممل المحشو بالكذب ، الملىء بالنفاق . إنكم لا شك تعرفونه فلا بد قد ألقى عليكم مثله فى ظروف ما ، إن كل خطب الوعظ والتأبين والتكريم .. ذات أقوال معروفة لا تكاد تخرج عنها إلا فى الحواشى النافهة ، ولا تكاد تختلف إلا فى مداها من النفاق حسب ضالة أو فخامة المناسبة التى تقال فيها .

وانتهيت من إعداد الخطبة .. أو الكلمة كما سماها حضرة الناظر ، وخرجنا معا (أغنيات)

للمتابعة برنامج الاحتفال .. أتريدون أن أصف لكم المباريات الرياضية ؟
لا أظن .. دعونا ننتقل من ملعب إلى ملعب ، ودعونا ننتهى من مشاهدة
المباريات ومن تفريق الجوائز ، ثم نستقر على موائد الشاي .

ونهضت لافتتاح الخطب بإلقاء كلمتي فقرأتها من الورق ، وأخذت نصيبي
من التصفيق ، وجلست حامداً الله .

وتواترت الخطب بعد ذلك ، وأنا قد رزئت بذهن بينه وبين الخطب عداء
مستحکم ، فهو يرفض رفضاً باتاً أن يتبع منها كلمة واحدة ، ويأبى إلا الشرود
والسرحان .

وسرحت في ذكريات قديمة ، ووجدتني أقارن بين ما قلت وما كان يجب أن
أقول ، وأخذت أستعرض طريق النبوغ من أوله .. الطريق الذى ادعيت كذبا
أنه الجد والكد والصبر والمثابرة .

ولكن . أحقا أننى قد ادعيت كذبا ؟ وأننى ما كنت قط مجداً ، مكداً ،
صبوراً ، مثابراً ؟ لتتبع الطريق من أوله ولنر .. فقد أكون حقاً مخلوقاً جد وكد
وثابر وصابر .

قد أكون ، وقد لا أكون . ولكن الذى أستطيع أن أجزم به أننى لو سردت
الواقع .. لأحدثت به ضجة ، ولفجعت الناظر المحترم . واتهمت منه بالجنون ،
والحمق .

لندع الخطباء مغرقين في خطبهم ، ولندع الأكف منهمكة في التصفيق ،
ولنتبع الذهن الشارد في ربوع الماضي الجائل في رباه .

إلى لأرى نفسى — المتهم بالنبوغ والعبقرية — خلوا من كل ما يبشر
بعبقرية .. أو يدل على نبوغ ، بل إلى لأرانى محروماً حتى من الذكاء العادى ،
ومن أى صفة تنبئ بخير .

بالبنطلون القصير ، والطربوش الطويل مكبوس على أذنى ملاصق
لحاجبى .. لا يكاد الجرس يؤذن بانتهاء الحصة حتى أنطلق والرفاق إلى فناء

المدرسة فنحدد بالطباشير قطعة أرض ثم نعدو على ساق واحدة يمسك بعضنا بعضا في لعبة (أتانسيو) ، وأنت ترانا في عدونا إلى الفناء ملهوفين مسرعين حتى لكأننا نخشى أن تفلت منا بضع ثوان بغير عدو ولا لعب .
وفي الفسحة الكبرى .. فسحة الغداء .. ننطلق في الفناء دافعين بأقدامنا زلطة منتقاة مستديرة .. مستعيزين بها عن الكرة ، ونظل نضربها بأقدامنا حتى تبلى أحذيتنا وتآكل .

وهكذا كنت في العدو مثالا للمثابرة والجد .. أما في الحصص فقد كنت .. كعادي حتى الآن .. شارد الذهن غائبه ، وكان أكثر ما يستحوذ على انتباهي .. بيت يعمل فيه البنؤون ويبدو على بعد خلال الشباك المواجه .. كنت أجلس في مقعدى لا هم لى إلا مراقبة سير عملية التشييد والبناء .. حتى لكأنى مكلف من أصحاب البيت بهذه المهمة .. بل لى لوائح أن أصحابه أنفسهم أو المقاول القائم على بنيانه .. ما كانوا يتبعونه بمثل ما أتبعه من مثابة واهتمام .

فلما تم البيت أحسست بخيبة أمل كبرى ، وبدأت أبحث عن تسلية أشغل بها نفسى عن الاستماع إلى الدروس .. ولم تكن التسلية بمستعصية .. إذ لم يكن أسهل على من أن أغرى جارى بأن يشاركنى لعبة السنون (وهى محاولة قلب سن الريشة بسن آخر) فإذا ملّ جارى اللعبة .. لجأت إلى إحدى الروايات التى كنت أقبل عليها وقتذاك بنهم فوضعتها على حجرى أسفل الدرج وانهمكت فى قراءتها .. فإذا استعصت الرواية لم أجد أمامى سوى التشاغل برسم المدرس فى الكشكول .

كنت أكره الدروس ولم أجد هناك دافعا يدفعنى إلى أن أشقى نفسى بالالتفات أو الاستدكار ، ورغم ذلك فقد بدأت تنشأ لى سمعة بين المدرسين والتلاميذ بأننى نبيه . ولكنى كسول ومهمل .. أما الكسل والإهمال .. فشئء كنت واثقا منه .. أما النباهة .. فقد كنت أول منكر لها لأنى كنت واثقا أنى محروم منها تماما . وكانت والدقى أدرى الناس بذلك فقد كنت دائما أذيقها

فصولا تدل على منتهى الغباء .. بل إن كرهى لعلوم الرياضة من هندسة وجبر وحساب وعجزى عن حل مسائلها .. كان فى نظرى أكبر دليل على خلوى من الذكاء والنباهة .

وهكذا أدهشنى أن أنهم بالنباهة ، ولكنى لم ألبث أن أدرك أن مبعث هذه التهمة كان مدرسا العربى والرسم ، إذ كان كلاهما يعتقد أن لدى موهبة ، ولكنها تحتاج إلى إثناء وصقل ، وتحتاج إلى جهد منى ومثابرة حتى تظهر وتبرز ، ولكنهما كانا موقنين أنها لن تظهر ولن تبرز ، وأنى سأظل خاملا مغمورا .. لأنى مثل لإنسان مكسال متراخ .

ولم أكن أنا أعرف شيئا عما يسمونه موهبة .. كل ما فى الأمر أنى كنت أحب كتابة بعض موضوعات الإنشاء التى تقع من نفسى موقعا طيبا ، وكنت أقبل على بعض الرسوم التى يلذ لى رسمها ، وكان المدرسان : مدرس العربية ومدرس الرسم يطربان لما كنت أكتب وأرسم ويمنحانى أقصى الدرجات ، ولكنى لا أكاد أنال رضاءهما حتى أخذهما خذلا شديدا فى كتابة أو رسم موضوعات لا أجد من نفسى لهفة عليها .

كانا يطلبان منى أن أركز جهدى ، وأن أحاول الصبر وتفهم المبادئ والأصول ، ولكنى كنت أكره التركيز وأكره كل ما فيه مبادئ وأصول وبحث ودراسة .

وحاول مدرس العربية أن يشركنى فى جمعية الأدب بالمدرسة وفى تحرير المجلة ، وحاول جهده أن يشجعنى ويدفعنى إلى الأمام . ولكنى خيبت أمله خيبة شديدة .

وكذلك مدرس الرسم ، حاول عبثا أن يدخلنى فى جمعية الرسم ولكنى أثبت له أنى مخلوق لا فائدة ترجى منه ، ولا نفع يؤمل فيه .

والواقع أنى لم أكن أدرى ، علام يجهد الإنسان نفسه ولم يفعل ما يضايقه ويتعبه ، وأى شىء يجبرنا على هذه المشقة التى يسمونها التركيز والجد والاجتهاد والمثابرة !

ألا يكفي التلميذ مجرد النجاح حتى ينتقل من سنة إلى أخرى ، وحتى لا يرسب فيتهم بالتقصير !

هكذا كنت أفعل .. كنت أقوم بالجهد الذى يجعلنى أكاد أنجح ، وكان هذا الجهد لا يحتاج إلا إلى مذاكرة بضعة أسابيع قبل أى امتحان .

أما هذا الذى يرنجوه مدرس العربية ومدرس الرسم من تنمية موهبة ، ونبوغ وعبقريّة .. فكنت لا أفهم له معنى .. كنت أعتبره سخافة مدرسين .

كان مدرس العربية يقول لى : أيها الكسول .. يجب أن تكتب كثيرا ، إن مثلك يمكن أن يكون كاتباً يشار إليه بالبنان ، ولكن هذا الخمول والتراخي لن يجعل منك أكثر من كاتب حسابات .

ومن قال لهذا العجوز أننى أود أن يشار إليّ بالبنان ؟ بل ما فائدة أن يشار إلى الإنسان بالبنان ؟ .. ليس هناك فى الحياة ما يستحق الجهد .. إن كل ما حولى أشبه بالفلاة القفراء لا يبدو منها للإنسان هدف يسعى إليه .

كنت فى الرابعة عشرة وقتذاك .. وكنت أحس من حولى فراغا شديدا لا أدرك مبعثه .

هذا الفراغ الخالى من الهدف الذى أحاط بى ، وأنا مخلوق مرهف الحس ، هو السبب فى ذلك الخمول والتراخي الذى كان مدرسا العربى والرسم أكثر من يعرفهما .

وكنت فى بعض الأحيان عندما أدخلو إلى نفسى أسائلها كيف يصير العظماء عظماء ، والتوابغ نوابغ .. لا بد أن يكون هناك دافع يدفعهم .. لا يمكن أن يكذب بلا سبب ولا مناسبة .. لا يمكن أن يعدو المرء بلا هدف يقصد إليه . وهكذا ظللت أعلل تخمولى وبلادتى بالحاجة إلى الهدف .. دون أن أحاول أن أصرح لنفسى أى نوع من أنواع الهدف ذلك الذى أفتقده .

ومع ذلك فقد كنت أعرف أنه هدف يبغيه القلب .. وأن الإنسان يجب عليه قبل أن يكون نابغة ، أن يحب .

أجل ! لا شيء يدفع الإنسان إلى الكد ، والمثابرة ، والاجتهاد ، سوى الحب .

وبهذا التفكير ، وفي وسط هذا الفراغ من الخمول والبلادة ، لاح لي الهدف .

لاح الهدف .. فمحي مني الخمول والبلادة .. وملأني بالجد والمثابرة ، ولكنه نوع من الجد والمثابرة لا يمكن أن يؤدي لنمو ولا نجاح ، بل إنه كان جدا في طريق ، حرمني حتى من ذلك النجاح التافه الذي كنت أحصل عليه في آخر كل عام والذي كان ينقلني إلى السنة التالية .

كان الهدف ، أو بلهجة أوضح ، كانت الحبيبة ، جارة جديدة لنا . ويبدو لي أن من الخير قبل أن أشرع في سرد تفاصيل الواقعة .. أن أعطي لكم وصفا مجملا للمدرسة والدار والمنطقة المحيطة .

كانت المدرسة هي إحدى المدارس الثانوية الكائنة في إحدى المديريات ، وكانت تقع في طرف ناء من أطراف البندر مشرف على المزارع المترامية ، وعلى مسافة غير بعيدة كانت تقوم بضع دور متناثرة في الخلاء بينها داران متجاوران كانت دارنا إحداهما .

والوحدة في هذه المنطقة تجبر أهل هذه الدور على الاختلاط والتزاور ، وهكذا كنا وأصحاب الدار المجاورة في صحبة وثيقة ، حتى انتقل صاحبها إلى بلدة أخرى ، ونزل بها ساكن جديد .

ومضت بضعة أيام قبل أن تذهب والدتي لزيارة عائلة الساكن الجديد ، فلما ذهبت لزيارتها عادت من الزيارة تمدح طيب أصلها وكرم محتدها ، وتبغنا أن رب العائلة هو مدرس التاريخ الجديد في مدرستنا ، وأنه يقطن هو وزوجته وأمها ، وأخذت تنغني بجمال زوجته وظرفها ولطفها ورقتها ، وقالت إن أمها سيدة تركية عمجوز ، شديدة الطيبة ، كريمة المنبت .. ولم يكن يهمني كثيرا وصف السيدتين بل كان الرجل نفسه موضع اهتمامي .. كنت أريد أن أعرف :

هل هو إنسان طيب ، أم إنه ثقيل ملحاح ؟ وهل من عادته أن يسأل في أول كل حصة ، أو هل يفاجئ الطلبة بالأسئلة خلال الشرح ؟
هذا هو ما كان يهمنى من جازنا الجديد ، ولكن والدتي بالطبع لم تستطع أن تعطيني عنها إجابة شافية ، ومع ذلك فقد استطعت أنا أن أعرف الإجابة على هذه الأسئلة .. عندما دخل علينا المدرس الجديد لأول مرة .
كان مخلوقا رقيقا مهذبا .. ولم يحاول أن يقوم بتلك الألاعيب التي كان يقوم بها سلفه ، من مفاجأتنا بالسؤال في خلال الشرح ليعرف ما إذا كنا منصتين أم غافلين .

كان رجلا طيبا يلقي الدرس في هدوء ، ثم يسأل عما إذا كان أحد منا يريد الاستفهام عن شيء لم يفهمه ، ثم يغادر الفصل بسلام .
وهكذا كان صاحبنا مدرسا نموذجيا في نظري ، يهين لي الفرصة الطيبة للشروود والسرمان ، دون أن يرغمني على الاستماع أو يقطع عليّ حبل تفكيري ، ودون أن أتوجس منه خيفة ، أو أتوقع شرا .
هذا عن المدرس .. أما عن عائلته فما كنت أظنها تعينني في شيء حتى أرسلتني والدتي ذات يوم لأستعير منهم إبرة ماكينة لأن إبرتنا قد كسرت .
ودلفت من باب الحديقة ، وعبرت الممر إلى الباب الداخلي ثم طرقت الباب .
وفتحت لي .. امرأة جميلة .

وارتكبت أمامها برهة .. ثم قلت متلعثما .. من أنا .. وماذا أريد .
ابتسمت السيدة ابتسامة رقيقة ، وأفسحت لي الطريق للدخول .. وهي تسألني عن حالنا ، وعن حال والدتي ، وأجلستني مريحة على أحد المقاعد ، وقبل أن تحضر لي الإبرة المطلوبة أحضرت لي طبقا من الكُمثرى .. وألحت عليّ في تناول إحداها .
وكنت طيلة مدة جلوسى شديد الارتباك ، متلعثم اللسان ، لا أكاد أخرج بالرد عن لا ونعم .

وأخيراً أخذت الإبرة وانطلقت إلى دارنا .
عدت إلى الدار وفي رأسي صورة مضطربة مشوشة عنها . فإنني من فرط
ارتباكى لم أجسر على أن أرفع إليها بصري في نظرة طويلة مدققة بل كنت أسترق
منها نظرات خاطفة أشبه برشف الحساء الساخن ، أو حسو الطائر الفزع .
كيف كانت سالية اللب .. وسارقة النهي ؟

كيف كانت ؟
لا أظن وصفها بالشئ المهيّن .. فإنني حين أجلس الآن بعد هذه السنوات
الطويلة .. وقد وخط الشيب فودى ، وخطت التجارب رسومها تجاعيد حول
عيني ، وأحاول استرجاعها إلى ذاكرتي .. لأستعين بالذاكرة على وصفها أجد
من المستحيل على أن أصورها بتلك الصورة التي كنت أراها بها فعلاً وأنا صبي
في الرابعة عشرة ...

بل إنني لأرى المسألة برمتها ، مسألة صعبة التصور .. ولولا أني تعودت ألا
أسخر من فعل أيا كان .. لكنت أول الساخرين من فعلى وقتذاك .
كيف لا .. وهى مهما قلت من شكلها وسحرها وفنتها ، لا يمكن أن تقل في
سناها بحال من الأحوال عن والدتي .

لقد كنت وقتذاك في الرابعة عشرة ، في السنة الثالثة الثانوية ، ما زلت أرتدى
البنطلون القصير ، وكانت هى ما بين الثلاثين والخامسة والثلاثين .. وكانت
زوجة مدرسى .. وصديقة والدتي ، ولم يكن هناك أى مبرر أو معنى لحبها ..
ومع ذلك فقد أحببتها .

مسألة عجيبة !! وغير معقولة ؟
ولكن لا .. إن من الخطأ أن أقول أحببتها .. فقط .
إن المسألة تحتاج إلى كثير من الشرح والتفصيل ، لكى يذهب عنها على الأقل
بعض العجب الذى بها .
إنها حقاً كانت فى مثل سن والدتي .. ولكن شتان بين مظهرها ومظهر والدتي .

شتان بين جسد سمين مترهل أنهكه حمل وولادة وتربية ثلاثة أولاد .. وبين جسد ، أهيف ، ملفوف ، ممشوق ، متناسق ، لم يتلفه حمل ، ولا ولادة ، ولا رضاع .

والسيدة نفسها ، سواء نظرت إليها بعيني الخبرة المجربة أو بعين البصبي المغمضة الوالهة .. فإني أراها باهرة الجمال ، وضاعة الحيا ، حلوة البسمات ، تتسم بالطابع التركي ، المشرق الوجه ، الفاحم الشعر .
إذا فقد كان بها من جمال الخلق ما يجعل حبها من أى كائن كان .. أمرا معقولا .. ولقد كانت فوق هذا مخلوقة رقيقة .. طيبة .. ودودة .. يقطر حديثها حلاوة .. ويفيض رقة .

لم تكن بها تلك الشراسة والصرامة فى الخلق التى تبدو من كل سيداتنا فى دورهن ، نحو الخدم ونحو أهل الدار ، ما سمعتها قد تنهر إنسانا ، وما رأيتها غاضبة أو ثائرة ، ولا أظن هناك وصفا أصدق من وصف والدتي الذى كانت تنعتها به دائما وهو « أميرة .. زى السكرّة » .

وهكذا كانت .. سكرّة .. شكلا .. وموضوعا .. ظاهرا وباطنا .
لهذا أحببتها .. حب أبرار أطهار .. بلا غرض ولا مطلب ، ولا حتى مجرد تفكير فى عاقبة أو نتيجة .

لقد أحببتها كما يحب الإنسان وهو فى القرن العشرين أحد أبطال تاريخ ما قبل الميلاد ، أو كما يحب طالب فى مشتهر الزراعة أنجريد برجمان فى هوليوود ..
لقد كنت أعيش فى فراغ طويل عريض ، مقفر خال ، أفيكون عجيبا .. إذا أنا شغلته بأجمل من مرّ بى وأطيين ، وأكرمهن ؟
إن المسألة لا تحتمل لا منطقا ولا تفكيراً .. فهى كلها أو هام فى أو هام ، وشغل الفراغ بكائنة أيا كانت لن يحاسبنى عليه إنسان .

إن الفراغ ملكى .. وتفكيرى فيها ملكى .. وحبى لها ملكى .. وكل شئء مادام لا يتجاوز حدود ملكيتى مستطاع ، فما الذى يمنعنى من ذلك الحب ؟

ثم .. متى كان الحب .. فى أول العمر ، أو فى صباه أو فى آخره .. منطقيا معقولا ؟

لقد أحببتها .. وليكن ما يكون .
ولست أزعم بالطبع أنى أحببتها من أول نظرة .. بل إن حبها أخذ يتسلل إلى نفسى مع الزمن ومع استمرار الرؤيا ، ودوام الاختلاط .
تلك كانت مبررات الحب ودوافعه .
كيف كانت مظاهره ؟

لقد كان حبا عجيبا .. فاقد لكل مظاهر الحب وآماله . إذ كان من الجنون أن أفكر فى أن أطلع أحدا عليه .. أو أودع أحدا يستبينه .. حتى هى نفسها .. فقد كنت مدركا مدى شذوذه ، وكنت واثقا من أننى يجب ألا أمل منه شيئا .
وماذا يمكن أن أمل ؟ . إنها زوجة ، سعيدة .. هانئة ، وحتى لو لم تكن لا سعيدة ولا زوجة .. فما أظن الخبل قد بلغ بها حدا إلى أن تفكر فى صبي مثل فى الرابعة عشرة من عمره .

وأنا نفسى كنت بعيد التفكير عن مسألة الزواج ، ولم أكن أعتبره غاية حتمية لكل حب .. بل كنت أتوهم الحب شيئا سماويا أو علاقة أثرية يمكن أن تربط اثنين إلى الأبد ، حتى ولو لم تحدث بين جسديهما أية صلة أو رابطة .
هل كنت أرجو أن يحدث بيننا مناجاة وهوى متبادل ؟ لا أظن .. لقد كان حبى لها مشوبا باحترام يجعلنى أستنكر من نفسى مجرد التفكير فى أن أهبط بها إلى مستوى العشاق العاديين الذين يتبادلون العناق والقبل .
ماذا كانت إذا مظاهر حبى وأعراضه ؟ .. هل ظلت مخفية فى صدرى ، طاوية فى حناياى ؟

لا .. فما أظن هذا إلا كان قاتلى .
لقد خرجت حبى فى شكل خدمات أقوم لها بها ، وهيات لى الظروف بسهولة تلك الخدمات .. فأقبلت أوديتها بلهفة وإخلاص .

كان أكثر ما يسعدنى أن أفعل لها شيئا ، وكان لديها الكثير مما تطلبه منى ..
لست أدري ألا أنها كانت تريد فعلام لأنها كانت تود أن تسعدنى .. أم لأنه كان
يسرها رؤيتى ؟

على أية حال .. الأمر الذى لا شك فيه هو أنى أضحيت أقرب المقربين إليها ،
وأنى بت عزيزا عليها .

حاشاى أن أزعم أنها بادلتنى حبا بحب .. فقد كانت سيدة كاملة عاقلة ،
ولكن ذلك لا يمنع من أن تكون أحببى بطريقتها الخاصة ، ووضعتنى بالنسبة لها
موضع حبيب خاص كانت تفتقده .. فقد كانت محرومة من الأبناء ، وكنت
بطاعتى لها ، وبتلبيتى رغباتها جديرا بأن أتخذ منها مكان الابن غير الكائن .
هذا هو ما أستطيع رؤيته الآن ، وإن كنت وقتذاك لم أحاول بحته بل انغمرت
سعيدا فى ذلك الحب الذى كانت تغدقه علىّ .

وكانت حديقة دارها هى المجال المتسع الذى جعلت أصول فيه وأجول
بخدماتى ، والذى ضيّع علىّ عاما بأكمله وكان السبب فى رسوبى فى الامتحان .
كانت هى التى تتولى أمر الحديقة ، وقد سمعتها ذات مرة تشكو من البستانى
من أنه كسول لا يقوم بالشقرفة والسقى كما يجب ، وأنها قد تعبت منه ، وأن
الحديقة قد تلفت .

ومنذ ذلك اليوم وقد أضحى سلاحى .. الشؤرف .. لا أتحرّك لحظة إلا وهو
فى جيب البنطلون ، وبعد أن كانت والدتى توقظنى فى الصباح بدل المرة
عشرات ، ولا تكاد توقظنى حتى أعود إلى النوم .. أصبحت أنهض من تلقاء
نفسى قبل الشروق ، فأرتدى ملابسى والأهل نيام ، وأنطلق بالشؤرف إلى
حديقتها .. فأظل أعمل فيها حتى قبيل موعد دخول المدرسة فأنتطلى أعدو لأصل
فى آخر لحظة .

ولم يقتصر الأمر على مجرد الشقرفة والسقى .. بل تعداه إلى ابتياع البذور
والشتل ، وسرقة ما تيسر من القصارى من حدائق الدور المجاورة .. ثم بدأت

أقوم بقص أسوار الدرنته والجهنمية وكنت أجلس في المدرسة طول اليوم شارد الذهن فيما سأفعله في الحديقة وفيما سأحضره من الأزهار ، وأستبحث الساعة .. فلا يكاد ينتهى اليوم حتى أنطلق إليها .

وهكذا لم يمر العام إلا وقد أصبحت من أجلها بستانيا ماهرا ، ومحت من رأسى كل اعتبار لى كتلميذ ، ولم يعد يلذ لى رسم ولا كتابة ، وكف مدرسى عن اتهامى بأى نوع من أنواع الذكاء أو النبوغ .

ولقيت ما لقيت من تأنيب على الرسوب ، ولكنى لم آبه له كثيرا ، وكنت واثقا أنه ما من أحد يشك في حقيقة أمرى أو يخطر بباله أننى عاشق .

وقضيت خلال العطلة الدراسية أهنا أيام حياتى .. فقد كنت أكاد أكون مقيما في حديقتها ، وكان مرور الأيام قد وطد العلاقات بين أسرتنا وزاد الاختلاط بيننا حتى لا يكاد يمر يوم دون أن تكون إحدى الأسرتين في دار الأخرى .

قلت لى كنت واثقا من أنه ما من أحد يمكن أن يشك في حقيقة مشاعرى .. حتى سمعت ناقوس الخطر يدق ذات يوم خلال حديث دار بينها وبين أمها . لم أكن أقصد استراق السمع ولكنى كنت أقوم كعادتى بالشقرفة في الحديقة عندما حضرتنا لتجلسا تحت التكميبة التى كنت أعمل بجوارها مختفيا وراء أحد أحواض الزهور .

قالت الأم :

— يجب أن تقتصدى قليلا في مشاعرك نحو محمود وفي تقرييك له .

— أقتصد في مشاعرى نحوه ؟ لست أفهم ما تعنين !

— إذا كنت لا تفهمين حقا .. فيجب أن تفهمى .. إن محمود ليس طفلا ..

إنه صبى يافع .

— لى لا أرى فيه أكثر من ابن .

— ولكنه قد يرى فيك أكثر من ذلك .. لى أعرف أنك عاقلة وكبيرة ،

وأفهم جيدا إحساسك نحوه ، ولست أنصحك من أجل نفسك ، ولا لأنى أخشى عليك الزلل ، ولكنى أنصحك من أجل الصبى نفسه .. إنك لا تعرفين مشاعر الصبية فى دور المراهقة ولا تعرفين شيئا عن طريقة تفكيرهم ، ولكنى أكثر منك خبرة بهم .. لقد أنجبت من قبلك إخوتك وخبرت تفكيرهم وتصرفهم فى هذه السن ، ولهذا فإنى أخشى على الصبى من تشجيعك له .. إنى أعلم أنك حسنة القصد ، وأن حبك له لا يحمل فى طياته أكثر من حب أم ، ولكنه قد لا يفهم هو ذلك .. فبسبب تشجيعك إياه وتقريبك له ضررا كبيرا وقد يصيبه بصدمة نفسية ورد فعل عنيف .. ولذا فإنى أرى من الخير أن تصديه .

— هكذا كثير يا أماء .. لا تحملى الأوضاع أكثر من حقيقتها . إن محمودا مخلوق رقيق ، وهو ما زال صبيا صغيرا . وأنا أحبه كابنى حقا .

— ولذا أطلب إليك أن تصديه .. لقد قلت نصيحتى قبل أن تضطرى زوجك إلى أن يقولها لك .. أرجوك ألا تخرجى أحدا .. إن الإنسان لا يستطيع أن يطلق مشاعره كما يشاء .. لا بد لنا من أن نكبح جماحها من آن لآخر .. يجب أن نعمل يعقولنا لا بقلوبنا .

وتسللت من الحديقة ذلك اليوم ، وأنا أشعر بناقوس يدق داخل رأسى . لقد تملكنى من الحديث خوف شديد .. فقد كرهت أن أثير حولها قبلا وقال ، وأن أعرضها من أجلى لنصح حتى ولو كان من أمها .

وصممت من ذلك اليوم على ألا أذهب إلى هناك أبدا ، وأن أصد نفسى قبل أن أضطرها إلى صدى .

ومر يومان ، والثالث ، وأنا ممعن فى البعد .. دون أن أحاول أن أريها لى وجهها .. وفى اليوم الرابع أحسست أنى أوشك أن أجن .

لقد كنت تماما كمدمن المخدرات الذى يمنع عنه المخدر مرة واحدة ويطلب منه أن يقلع عن تعاطيه .

أجل .. لقد وصلت إلى حال .. لو طال لى لارغيت على الأرض وصرخت

فيهم باكيا .. أريد أن أراها .. ولكن الأمر لم يكن يستدعى ذلك .. فما منعني أحد عن رؤيتها .. وما حاول أحد أن يثير كلمة شك حولي .. على التقيض .. لقد كان انقطاعي عن الذهاب هو الذى أثار التساؤل فى الدارين . وهكذا وجدتنى أجّر قدمي متسللا إلى الحديقة .. كمهجر شفه الظمأ وأضناه السغب .. فأتحتى منها ركنا قصيا وأستغرق فى بكاء طويل .. غسّلت به أحزان قلبى ونفضت به أكوام اليأس الجاثمة على نفسى . ولم أفكر بعد ذلك فى أن أصد نفسى عنها أبدا .

وأقبلت هى علىّ فى اليوم التالى معاتبة على غيائى ، ولائمة على هجرى ، فاعتذرت بأنه كان لدى امتحان كنت أستذكر له .

وأنبأتنى بأنها تريد حزمة من الغاب تغطى بها سقف « عشة الدجاج » التى قامت بإصلاحها يديها خلال اليومين اللذين غبت فيها .. والتى كانت تعتمد علىّ فى إصلاحها .

وعندما أفكر فى قولها الآن يتملكنى دهش شديد من تلك السعادة الكبرى التى غمرتني منه .

لقد كنت إنسانا غير طبيعى فى ذلك الوقت .. ما فى ذلك شك .. ولا جدال .. فما أظن فى قولها ذلك شيئا غير منتظر يسبب لى هذا الهناء العجيب ، ولكنى مع ذلك أستطيع أن أتمس لنفسى بعض العذر ، لأنى إذا حاولت تحليل مشاعرى وقتذاك وجدت أن قولها وطلبها كان أكثر شىء أتلهف عليه وأتمناه .. فلشد ما كنت أخشى أن يكون حديث أمها قد أثر فيها ، وأنها نوت أن تتبع نصيحتها ، فتصدنى — على حد قول أمها — برفق !

ولقد قلت من قبل لى كنت أدهش جدا من تلك السمعة التى اشتهرت بها بين المدرسين والطلبة .. وهى سمعة النباهة .. وقلت لى كنت واثقا تمام الثقة من أنى مخلوق غبى أو على الأقل .. غبى فى بعض الأحيان .. واستشهدت على ذلك بشهادة والدتى وبالفصول الباردة التى كنت كثيرا ما أفعالها معها .

ولكن الفصل الذى قمت به بعد ذلك .. فاق كل فصولى السابقة .. ودلّل
حقا .. على أنى مخلوق لا يمكن أن يتمتع بذرة من الذكاء .

لقد تصرف فى حكاية الغاب ، وقد أضفت إلى غباوتى الطبيعية المتأصلة
غباوة العشاق الطارئة ، وحقهم العجيب .

إن السيدة طلبت منى حزمة غاب لتغطى بها السقيفة ، والواقع أن
السقيفة لم تكن تحتاج بحال من الأحوال إلى أكثر من حزمة أى خمسين عودا .
ولكنى كنت أشعر أنى أذنبت بغياى عنها هذين اليومين وبتركى إياها تصلح
العشة وحدها وتعب نفسها .. ولهذا صممت على أن أكفر عن ذنبى .

بأية وسيلة ؟

بأن أحضر لها غاب البلدة كله .

وكان الغاب ينتشر متكاثفا على طول امتداد التربة المجاورة ، وفى تلك الليلة لم
أذق النوم إلا بلاما ، واستيقظت والفجر لم يؤذن له بعد ، وتناولت فأسا كنت قد
جهزتها فى اليوم السابق ، وسرت أتلمس طريقى فى الظلمة إلى حافة التربة ..
وبدأت فى قطع الغاب بعزم كالحديد .

هذه هى المثابرة والصبر والجد .

أقطعت كثيرا ؟

لقد جردت حافة التربة على طول امتداد البلدة مما بها من غاب .
لم أذهب إلى المدرسة فى ذلك اليوم ، وظللت أعمل فى قطع الغاب حتى انتهى
النهار ، ووجدت كوم الغاب قد ارتفع أمامى أشبه بالهرم الأكبر .. ونظرت إليه
بإعجاب شديد ، وتملكنى شعور بالغبطة والرضا ، وإحساس بأنى قد أدت
واجبا حيويا .

واسترحت برهة .. ثم ذهبت إلى البيت لكى أرى لوالدتى وجهى ولكى
أطمئنها على بقائى حيا .. ثم سرعان ما تسللت من الدار لأتمم بقية العملية ،
وأنقل الغاب إلى دارها .

وبدأت عملية النقل في صبر واحتمال وسكون .. وكان الظلام قد سقط ..
وحفيف الغاب ووقع أقدامى يشتركان في عمل لحن متكرر أشبه بألحان
« الفعلة » من أهل الصعيد ، الذين يعملون في خلط الخرسانة أو في حفر
الطرق .

وأخيرا انتهت من نقل الغاب .. وملأت به أرجاء الحديقة وممراتها حتى لم يبق
بها موطئ قدم .. دون أن يحس أحد بما فعلت .

وعدت إلى البيت قرير العين .. راضى النفس .. وفي الصباح المبكر .. كنت
أقصد إلى دارها لأرى وقع المعجزة التي صنعتها ، ولأتلقى أجرى من الشكر
والمدح .

ولاحت لى الحديقة ، وقد أخذت في الاقتراب منها ، وبدأ الغاب أكواما
متراصة حول الحديقة بطريقة أدهشتنى أنا نفسى .. وعجبت كيف استطعت
وحدنى أن أجمع كل هذه الكمية الهائلة .

ودخلت الحديقة ، وقبل أن أخطو فيها خطوة واحدة وصل إلى سمعى صوت
مناقشة بين صوتين كنت أعرف صاحبيهما خير معرفة .. الأول صوتها الذى
لا أخطئه من آلاف الأصوات .. والثانى صوت زوجها .. مدرسى أستاذ
التاريخ .

سمعته يقول فى دهش ممزوج بضيق وغضب :

— ما هذا كله .. أتتوينا التجارة فى الغاب ؟

وسمعتها تجيب فى لهجة هادئة مشوبة بالاعتذار :

— إنى ما قصدت أن يحضر كل هذه الأكوام .. كل ما طلبته من هذا الأبله
حزمة صغيرة لأضعها فوق عشة الدجاج ، ولكنى لم أكن أظن أنه « حمار » إلى
هذا الحد .

ووقعت كلماتها « حمار » و« أبله » فى أذنى وقع المطارق. لقد كانت المرة
الأولى التى أسمعها تسب أحدا أو تزدرى إنسانا .

وتزدرى من ؟. تزدرينى أنا .

وفى أى وقت ؟ فى الوقت الذى ظننت فيه أنى صاحب معجزات .
فى الوقت الذى جئت أستجدى كلمة شكر بعد ذلك المجهود المضنى والعمل
الشاق المتواصل .

ووصل إلى صوت زوجها يقول :

— إن الخطأ خطؤك .. فما كان يجب عليك أن تكلفيه بمثل هذه المهمة ..
كان من الأفضل أن تطلبى من البستانى أن يحضرها لك .. لقد كدت أوشك أن
ألفت نظرك إلى هذا الأمر .. إنك تعطلين الصبى بهذه الأعمال التى يقوم بها فى
الحديقة .. إن لديه دروسه واستذكاره .

— إنه هو الذى يتطوع بالعمل .. وأنا لا أستطيع بالطبع طرده .

— إذا فدعى أمره لى .

ولم أجسر على أن أبقى لاستماع بقية الحديث .. فقد استرقت الخطى إلى
الخارج .. وغدت إلى الدار مطأطئ الرأس ، محنى الهامة أجّر ساقى جرا .. كأنى
مريض محموم أو كأنى جريح عائد من معمة عقب هزيمة منكرة .

* * *

أنا .. حمار .. أبله ..؟

أهذا هو رأيها فى ؟.. ألا أفضل لديها من ذلك ؟

ولكن هل أنا أفضل .. فعلا .. مما قالته ؟

لا أظن .. إنى فعلا .. حمار .. أبله غبى .

ولقد كان هذا أكثر ما حزّ فى نفسى، وأوجع قلبى . فلا أظن هناك ألم للإنسان من
أن يسمع شتائم ونقائص ، موجودة فيه فعلا ، ولا يستطيع أن ينكرها .

أى فضل فى ؟. وأى ميزة لى ؟

أى شىء يدعوها هى ، أو غيرها ، إلى الإعجاب لى ؟

وذكرت تهمة النباهة التى ألصقها لى .. فى وقت ما ، مدرسا العربية

(أغنيات)

والرسم ، وذكرت قولهما عن الموهبة الكامنة التي تحتاج إلى إتمام وصقل ،
وتحتاج إلى جهد ومثابرة ، وصبر وتركيز ، وتفهم مبادئ ، ودراسة أصول .
أترأها كانا يصدقان القول ، وكانا يعنياه ؟
أترأني حقا مخلوقا ذا موهبة ، وأنى بالجد والمثابرة يمكنني أن أصبح إنسانا
ممتازا .. أو كما يقولون : نابغة عبقرية ؟
لا أظن .. فأنا نفسي لا أشعر أن بي شيئا غير عادي .
ولكن يجب أن يكون لدى موهبة .. لقد بت في أشد الحاجة .. بعد هذه
التهمة منها بالبلادة والغباء .. إلى أن أثبت أني عكس ذلك .
لم يكن يهمني من قبل أن أكون ذا ميزة ، وكنت أبخل بالجهد والمثابرة على
شيء لا أريده .

أما الآن فما أشد حاجتي إليه .
ليتني فقط .. أكون ذا موهبة .
آه لو صدق قول مدرس العربية .
وهكذا بدأت أتخفز للنضال .. في معركة الامتياز والنبوغ والعبقرية ،
وذهبت في الصباح المبكر لأسأل مدرس العربية أن يضمني إلى الجمعية الأدبية
وإلى هيئة تحرير المجلة ، ولأسأل مدرس الرسم أن يلحقني بجمعية الرسم .
ولكن الاثنين رفضا مطلبي ، وأنا أتأني أني مخلوق مكسال متراخ لا فائدة
ترجى مني ، وأنهما كانا مخدوعين في .
وأحسست بخذلان شديد .

أهكذا لا أكاد أبدأ النضال .. حتى أهزم من أول مراحل وأطرد شر طردة من
أرض المعركة ؟ ومع ذلك فلم يصبنى اليأس ، لقد كنت مصمما على أن أصبح
شيئا . غير ذلك الحمار الغبي الأبله ، مصمما على أن يكون لي ما أعتز به
وأفخر .

وبدأت الجد والمثابرة والنضال ، « من منازلهم » دون حاجة لي إلى الدخول

فى تلك الجمعيةات التى رفضوا قبولى بها بعد أن كانوا يلحون علىّ فى دخولها .
وكتبت نشيد المدرسة ، وكانت المرة الأولى التى أحاول أن أقرض فيها
الشعر ، ولم يكن يخطر لى ببال أن أجلس لأقضى الساعات الطوال مجهدا ذهنى فى
نظم الكلمات ورض القوافى . ولم أكن شاعرا بالفطرة ، ولكنها كانت الإرادة ،
وكان الجلد ، وكانت الرغبة فى أن أكون إنسانا ممتازا .

وأتممت النشيد ، وتقدمت به ، وما زال نشيد المدرسة الذى تهتف به حناجر
الطلبة فى كل حفل وترحال .. وانهمكت فى نظم الشعر والأزجال ، وفاضت
نفسى المرفقة اللهفى المحرومة بالحنين بسيل فى قصائد ومواويل تذوب رقة وتقطر
جوى .

وما زلت أذكر موالا نظمته فى ساعة شهد فى بهمة الليل وكنت لا أفئاأ أردده
لنفسى فى لحن حزين وأنا أثقل على المرقد الجافى :

يا ساكن القلب طيفك مر فى بالى وراح وسابنى عليل جبه بقى وبالى
وفؤادى من حر شوقه صار حطام بالى وهو ساهى وسالى ما افتكر فيه
ينسى عهد الهوى ويهجر ولا يبالى

وأخذت فى الكتابة ، وفى عشية وضحاها كنت قد كتبت معظم ما فى مجلة
المدرسة ، دون أن أكون فى هيئة تحريرها ، حتى جعلتهم أمام أمر واقع واضطروا
إلى أن يخلقوا لى منصبا جديدا هو نائب رئيس التحرير .. بعد أن رأونى فى كل
شئ فى المجلة .

وانهمكت فى الرسم وملأت لوحاتى جدران المدرسة ، واحتلت رسومى
لوحة الإعلانات التى يعلن فيها عن المباريات الرياضية .. بعد أن ابتكرت طريقة
جديدة فى إخراجها والإعلان عنها .

وفى ذلك العام نشرت لى ، وأنا تلميذ ، أول قصة فى إحدى المجلات
الكبرى ، ورأيت اسمى يوضع جنبا إلى جنب بحوار كبار الكتاب .
وهكذا سرت مندفعاً فى الطريق .. طريق ما يسمونه بالنبوغ والعبقرية

لا لشيء إلا لأثبت لها .. أنى غير حمار ولا أبله ولا غبى .
ومع ذلك فلا أكاد أجلس لأفكر الآن .. حتى أجد نفسى حمارا كبيرا .
وليس أدل على ذلك من أنى قد أجهدت نفسى كل ذلك الجهد من أجل مخلوقة
سرعان ما اختفت من محيط حياتى وخرجت من نطاق تفكيرى .
أجل .. لقد تخرجت من المدرسة ونقلت من البلدة ، ونسيتها تماما ، ومع
ذلك فما زلت حتى الآن أثار وأجد وأتعب نفسى .
لم ؟

ليقولوا عنى إلى نابغة عبقرى ؟
يا لى من حمار .. أبله .
ما أشبه مثابرقى على نقل الغاب بمثابرقى على السير فى طريق العبقريّة والنبوغ .
غباوة .. فى غباوة .

* * *

وأعادنى من شرودى .. دوى تصفيق لخطيب انتهى من خطبته ، وسمعت
حضرة الناظر يسألنى النهوض لمشاهدة التمثيل .
وسرت وإياه وبقية المدعوين إلى الصالة الكبيرة القائمة بين الفصول حيث
أقيم المسرح وصفت المقاعد وتقدمت إلى الصفوف الأولى وأبصرت بعض
مقاعدّها قد احتلت ببعض السيدات ، ووجدت الناظر يتقدم لى إلى سيّدة
عجوز قد وخط الشيب رأسها ويقدم كل منا إلى الآخر قائلا : (الأستاذ
فلان) .. (زوجتى) .
ونفضت السيّدة فشدت على يديّ ببشاشة وترحاب قائلة فى صوت رقيق
ودود :

— إلى أذكرك جيدا وأنت ما زلت صبيا صغيرا ، وأذكر كيف جمعت لى
غاب التربة بأكمله .. ترى أما زلت تذكرنى ؟
وصمت برهة وأحسست بقلبيّ ينبض نبضات أشبه بصحوة محتضر .

— ٣٧ —

وسرعان ما عاد إلى صمته وجموده .
ولم أدر إلا وأنا أقول فيما يشبه الهمس :
— أذكر فقط .. لقد كنت السبب في كل ما حدث لي ساحك الله .
ولم تجب العجوز .. فلا أظنها قد فهمت ما أعنى .. أو من يدري .. ربما
قد فهمت .

* * *

وإذا به يعيننى على البكاء لا العزاء .. ويزفر لحنا كأنه النواح والعيول والرائاء ..
أصده بالغناء .. وماذا أملك يا أختاه سواه ؟ .. إني لأفرح فأغنى .. وأحزن
فأغنى .. كل خلجة من خلجات نفسى تبعثنى على الغناء .. وتدفعنى إلى
الترنم ، كلما هاج بى الشوق أو الشجو .. وكلما هزتنى الفرحة أو اللوعة
هتفت بها ألىانا وأنغاما .

يا منية النفس فى زمن غير .. يا توأم الروح فى عهد باد .. لا عليك أبكى ،
ولا إلك أحن . إنما الحنين إلى الزمن الغابر ، والبكاء على المتعة المنصرمة ..
واللذة البائدة .

لهفى عليك ، ولهفى على .. لهفى عليك وقد جزيتك سوءا بسوء .. وشرا
بشر .. ورددت إلك اللطمة مضاعفة .. فحطمت بها أمانيك وخيبت
آمالك .. وتركتك تتقلبين على جمر الغضب والغيظ والكمد .

ولهفى على وقد لفظتكم وأنت روحى .. وفقدتكم وأنت أئرم إلى من الماء
والهواء والغذاء ! وقهرتكم وأنا الخاسر ، وبطشت بك وأنا المهيبض .. وأذلتكم
وأنا أشد منك إحساسا بذل الهزيمة ومرارة الخسران .

ولكن لم يكن مما فعلت بد . لقد منحنتى لحظات متعة ثم استرددتها
مضاعفة .. ولو وهبتنيها ثانية لعدت فاسترددتها . وهكذا كل متعة منك سريعة
الزوال .. عاجلة المسترد .. فالغدر شيمتك .. والخيانة ديدنك .. أفلم يكن من
الخير لى وأنت كذلك أن أستأصلك من نفسى وأنتزع من قلبى جذورك ..
وهكذا فعلت .. اقتلعتك من نفسى شر اقتلاع ولست بمنكر ما لقيت من آلام فى
اقتلاعك .

لقد بت أشبه بقطعة أرض أظلتها شجرة ثم هبت عليها الريح فاقتلعتها من
جذورها وتركت مكانها حفرة مقفرة موحشة .. يلفحها الهجير ويحرقها
القيظ !

إنى لأمسك بالعود وأصده بالغناء .. وبرغمى يا أختاه أجد الأغنية المحبوبة

قد اتخذت طريقها إلى أوتار العود وإلى شفتى .. ويصل اللحن إلى أذنى وكأني
لست منشده.. بل كأنه يصل إليّ من بعيد ، من أغوار سحيقة ، من الأيام الخالية
والزمن الغابر ، والذكريات البائدة .

ويسرى الصوت الهامس في هبات النسيم هاتفا :

زعموا حبي يا قلب خطايا لم يطهرها من الإثم بكايا
وأحسن من الصوت برجفة في القلب . لست أدرى أمن طرب أم صباية ؟
وتبعث من صدرى زفرة حارة ملؤها اللوم للقلب الخافق المرتجف . ويسود
الصمت لحظة ثم أعود فأهتف على رنات العود .. وخفقات القلب :
حسبنا ما كان فاهداً ها هنا في ضلوعي واحتبس خلف الحنايا
ويشرد بي الذهن إلى الماضي البعيد نابشا في أجذائه .. وأحاول أن أعيد الذهن
المنطلق وأوثقه إليّ .. وأرجعه عن عبثه بين الأطلال الدارسة والدمن العافية ..
وأهتف بالذهن الشارد كما هتفت بالقلب الخفاق :

لا تثر لي ذكرياتي إنها شيتني شيت حتى صبايا
إن بها من المارّة أضعاف ما بها من الحلاوة .. لقد كانت لي فيها متعة
فبادت .. ولو عادت لبادت مرة أخرى !
ذكريات عصفت بي ، ذكريات لم تدع من أجلى إلا بقايا
ذكريات رسفت في أدمعي وشجوني وتمشت في دمايا
أجل .. في دمايا .. أيتها النائية .. كل ما بك وما حولك قد تمشى في دمايا بعد
أن لقيتك أول مرة .. أتذكرينها ؟

كان ذلك عندما التقينا في ذلك الحفل الخاص الذي كنت قد دعيت للغناء
فيه .. وكان الحفل لا يضم إلا خاصة الأصدقاء .. وكنت أكاد أعرف كل
الوجوه الحاضرة إلا وجها واحدا هو وجهك أنت !
ولكن .. أحقا كان وجهك غريبا عني ..؟. أحقا أنى لم أكن أعرفك من
قبل ؟ على النقيض .. لقد أظهر وجهك كل ما حوله غريبا .. وبدا وحده

القريب الحبيب الذى أستطيع أن آمن إليه .. لم يكن وجهك غريبا .. فقد أقسمت بينى وبين نفسى أنى قد رأيتك من قبل فى مكان ما قد يكون فى الأحلام أو فى الأوهام .. وهذه البسمة الحلوة ، والوجه المشرق ، والأنف الدقيق ، والزهرة فى المفرق لم تكن غريبة عنى .. هذه التفاصيل أذكرها تماما .
وكننت تنظرين إلىّ وأنا أترنم وفى عينيك نظرة حاملة .. وأطلت فى الغناء وأخذت أكرر وأعيد .. وأنت رانية فى نشوة .. ووددت لو لم أنته حتى أظل مستمتعا بدفء نظراتك .

وانتهيت من الغناء .. وأحسست بنظرتك المعجبة تجزئنى خير الجزاء .
وتعرفت بك وبزوجك !

وأخذت وقتذاك .. عندما علمت أن لك زوجا .. وشعرت بكثير من خذلان وضيق .. وأسف .. فقد استطاع الذهن خلال الفترة القصيرة التى كنت ترنين إلىّ بنظراتك الحاملة للهمى خلال الغناء ، أن يهيم على معك مشروع حب ، وأن يعقد من طرف واحد ميثاق غرام .. وأن يزج بك بقوة وبسرعة فى محيط حياتى ، فيجعل منك — على قصر عهدى برؤيتك — شيئا حيويا هاما تتعلق به سعادتى .

ولم أجد بدا — بعد أن عرفت أنك متزوجة — من أن أراجع ، وأن آمر الذهن بهدم مشروع حبه الجديد .. ولم أحاول أن أبذل أى جهد فى التقرب إليك .

ولكنك كنت المقبلة المتقرّبة ، والإنسان قد يكون من قوة الخلق والإرادة بحيث يحرم على نفسه متعة محرّمة ، يتلهف عليها ، بالتباعد عنها .. ولكن عندما تقبل عليه المتعة فتمسك بتلابيبه وتأخذ بخناقته ، فلا أظن المقاومة تصبح شيئا سهلا .. ولا أظن الإرادة تجدى نفعا .

وحاشاى أن أتهمك بأنك أمسكت بتلابيبى أو ضيقت علىّ الخناق .. لأن مقاومتي كانت أضعف من أن توصلك إلى هذا الحد .. إذ ما كدت أحس إقبالك

وتقربك ولهفتك وإعجابك .. حتى تركت نفسى تتردى فى حبك وتتخبط فى هواك .. دون أن أفكر فيما إذا كنت زوجة أو غير زوجة . وغير آبه لما يمكن أن يؤدى إليه حبنا .. ولا ملق بالآلى ما يمكن أن يصادفنا من عقبات .

وهذه الأوضاع الأرضية لا يفكر فيها المحبون الذين يخلقون بأذهانهم الشاردة فى سموات الأوهام والأحلام . إنهم يعتبرون كل شىء ما خلا الحب باطل .. ويرون أن كل العقبات يجب أن تفسح الطريق للحب .. وأن كل الشرائع والتقاليد يجب أن تطأطأ هامتها للحب .. وأن يكون بها من المرونة ما يتسع لمخالفات الحب واستثناءاته .

وهكذا اندفعنا معا فى حب جارف .. بدأناه تلك الليلة المشهودة .. ووثقت الأيام عراه وشدت رباطه .. ولم أفتقدك مرة واحدة فى الحفلات التى كنت أغنى فيها .. فقد كنت أجد وجهك يتطلع إلى دائما بين الوجوه وكنت أجد فيه هدايتى ونبراسى .

ولا أنكر فضلك على .. فقد أضحيته لى مهبط وحي .. وكنت ملهمتى فى معظم ألحانى التى رفعت ذكرى وزادت شهرتى .

كانت ألحان الحب التى وضعتها قبل أن أحبك جوفاء خاوية . فلما أحبيتك جاشت فى ألحان الروح وفاضت بالحياة . كنت أحس فى كل لحن أنى أناجيك به .. وكنت أستمع أنغامى من تردد أنفاسك .. وبجة همستك ورنه ضحككتك . كانت تلك سلالى الموسيقى .. ووحى المنزل .

رب لحن يا نائية سرقته من هبة نسيم خلته تحمل فى الليل أنفاسك .. ورب نغم بعته فى نفسى حفيف أوراق خلته حفيف ثيابك ، أو طرق هادئ خلته فى دجى الليل وقع خطاك .

كنت أصورك لنفسى أكثر مما يمكن أن تتصورى أنت نفسك مهما بلغ بك الكبر والغرور .. كنت أفهمك على أنك كائن من غير البشر .

وكان لا بد لنا أن نفعل شىئا .. فما كنا نستطيع أن نكتم ما بنا إلى الأبد وأن

نظل هكذا متسترين على حينا ، دون أن تكون لنا حرية الاستمتاع به كغيرنا من البشر .

وبدا لنا أن من العبث تجنب الفضيحة ، وأن أى إجراء سنحاول اتباعه سيصيب سمعتنا ويشهر بنا بين الناس ، وأخيرا لم نجد بداً من التفكير في الفرار والنزوح عن هذا البلد .. وأن نرحل بعيدا .. إلى حيث يستقر بنا المقام في لبنان أو في قطر آخر نستقر فيه .. لنبدأ معا حياة جديدة لا ينغص علينا فيها رقيب ولا شريك .

وبدأنا نرسم خطتنا الجنونية .. لقد كنا عشاقا ، وليس أحب إلى العشاق من امتطاء صهوة الأهواء الجامحة .. وأنت مخلوقة خيالية كثيرة التعلق بأوهام الحب وخيالاته .. وأنا فنان دائم التحليق بذهنى في سماء الألحان لا أكاد أحس الواقع إلا لما .

وجاءت خطتنا في الفرار ، ثمودجا للإمعان في الخيال والوهم وجنون الحب . خطة لا تزيد كثيرا عما يديره العشاق في الأفاصيص والروايات .. فكان علينا أن نلتقى في سكون الليل حيث تتسلل من دارك بعد أن يأوى زوجك إلى مضجعه وتسيرين إلى نهاية الطريق حتى تبلغى المقعد الكائن في طرف المنتزه حيث أنتظرك بعربتي ثم نبدأ رحلتنا معا إلى غير عودة .

وحددنا لفرارنا يوما معينا ، وربت كل أمورى على الرحيل في ذلك اليوم .. ولكن القدر لم يكن قد رتب أموره معى .. ففى اليوم السابق لليوم المحدد أحسست بالتهاب في الحنجرة وارتفاع في الحرارة واضطرنى المرض إلى الرقاد في الفراش .

ورغم ما أصابنى من ضيق يومذاك .. فقد حاولت أن أخفف عن نفسى بأن المرض عارض طارئ سرعان ما يزول وأنا نستطيع أن نصبر بضعة أيام حتى أبل من مرضى ، واتصلت بك لأنبئك بذلك .

ولكن المرض لم يكن عارضا طارئا .. بل كان حدثا أصيلا ، وما كان شيئا

سريع الزوال بل كان ضيفا دائما المكوث طويل الإقامة .
لم يكن المرض فقط مهددا بالحيلولة دون فرارنا .. بل كان أشد من ذلك
خطورة وأقسى وقعا .. لقد كان مهددا بفقدى أعز ما أملك — بعدك — ألا وهو
صوتى . ورقدت على الفراش أتململ والأطباء يتشاورون من حولى ثم أقبلوا علىّ
فى النهاية يطمئنونى بقولهم : إنى بخير ، وأنه ليست هناك أية خطورة على
حياتى .. ولكن حنجرتى لن تعود إلى ما كانت عليه ، ولن أستطيع معاودة
الغناء ، إلا إذا أجريت لى عملية غير مضمونة النجاح .

وأصابتنى من قولهم صدمة عنيفة ، وتملكنى حزن شديد ، فقد كنت أحس
أن حنجرتى هى سرقوتى ، وأن حياتى لم تعد لها قيمة .. وأنى بت كشمشون بعد
أن قص شعره .

ومع ذلك فلم يعد هناك بد من الاستسلام لقضاء الله . ولم أحاول أن أقدم على
إجراء العملية الخطرة ، لأنى كنت أرغب فى الاحتفاظ بحياتى لأجل مخلوق واحد
هو أنت .

ومرت بى الأيام وأنا راقد فى الفراش أستحث الشفاء وأتعجل النهوض
وأتلهف على اليوم الذى نستطيع فيه أن ننفذ خطتنا فى الفرار .

ولم يكن لى من عزاء فى رقدتى سوى زيارتك التى كنت تمنحنيها لى خفية
كلما استطعت إلى ذلك سبيلا .. ولكننى أحسست أن زيارتك لى قد بدأت
تقل .. وأنك قد بدأت تعتذرين بتضييق زوجك عليك حتى حل الوقت الذى
رضخت فيه لإرادة زوجك ، وانقطعت زيارتك تماما .

واشتد بى الحنين وعصفت بى اللوعة ، ولكننى مع ذلك أخذت أتمس لك
الأعذار .. معللا النفس بأنك لا بد قد أكرهت على هذه القطيعة ، وأننى لا بد
أن أشفى عاجلا ثم أفر وإياك وأنقذك مما أنت فيه .

وفجأة حدث ما أذهلنى وأفعمنى دهشا وعجبا .

لقد فوجئت ذات يوم برسالة منك فى البريد تنبئنى بأنك لا تطيقين بعدى وأنك

قد بحث الأمر جيدا ، وأنت موافقة على مطلبى وأنت ستلقينى اليوم عند المقعد الذى فى نهاية المتنزه فى الساعة العاشرة لى نهرب معا .

وأحسست برأسى يدور . ولم أفهم ماذا دفعتك إلى كتابة الخطاب ، وأى أمر هذا الذى بحثته ، وأى مطلب هذا الذى وافقتنى عليه .. وكيف تطلين منى لقاءك والفرار بك وأنت تعلمين جيدا أنى لا أستطيع مغادرة الفراش .. ثم ما الذى دفعتك فجأة إلى الكتابة إلّى بعد أن انقطعت زيارتك عنى طوال هذه المدة !

وأعدت قراءة الرسالة مثنى وثلاث .. ومرة واحدة وفى مثل لمح البرق تكشف لى الأمر .

كان الظرف الذى وضعت به الرسالة معنونا باسمى .. ولكن الخطاب من الداخل لم يكن موجها إلّى .. أو على الأقل كان بالاسم تحريف .. إن اسمى محمد ، ولكن الخطاب كان موجها إلى « عزيزى محمود » .

إنى لم ألحظ الخطأ فى أول الأمر .. فلما لحظته ظننتها زلة قلم . رغم أنك لم تخطئ مرة واحدة من قبل . ولكنى بمعاودة القراءة والتفكير دفع الشيطان فى ذهنى بالحقيقة وملأ نفسى بالوساوس والشكوك .

وتذكرت محمود .. الكاتب المعروف .. الذى كثيرا ما كنت تمتدحينه أمامى .. وكنت تقولين إنك تعشقين كتابته ، كما تعشقين أنغامى .. وكنت دائم الغيرة منه ، شديد الكره له .

أجل ! لقد كنت أحس بأنه غريبى فى حبك ، ومنافسى فى هواك .
كان يميل إلّى دائما أن قلبك بيننا ميدان قتال أنا أغروه بريشتى وهو يغزوه بقلمه .

ولم أكن أشك فى أنى فى ميدان هواك الفائز السباق ، الصائل الجائل .. وأنى استطعت وحدى الظفر بقلبك ، وطرده منه — إن كان قد احتله فى يوم ما — شر طردة وأنى رددت قلمه إلى غمده ، وهزمته شر هزيمة .

أجل يا أختاه .

أجل .. يا عاشقة العبقريّة ومحبة النبوغ .. لقد هجرتني عندما بت مخلوقا عاديا ، لا أملك من وسائل العبقريّة أكثر من أى إنسان آخر . لم يعد لي من ميزة ولا فضل .. لقد كان يستهويك غنائى ، فلما عجزت عنه .. لم يعد لي في نفسك قيمة .. ووليت عنى إلى مصدر آخر من مصادر النبوغ . مصدر لم ينضب معينه ولا جف نبعه .

وأعادت الأيام نفسها .. وبينما كنت أرقد طرح الفراش كنت تقومين بدورك مع العبقري الآخر . وانتهى الأمر بك معه .. إلى ما أوشك أن ينتهى معى ..

وأغلب ظنى أنه قد سألك الفرار معه .. فالفنانون ، يا فاتنة ، يتساوون في الجنون والبلاهة .. وسألته أنت أن يعطيك فرصة للتفكير .. ثم أرسلت إليه رسالتك السابقة ويعلم الله كيف وصلت إليّ وكيف أخطأت العنوان .. ولكن أغلب الظن أنك قد كتبت إليّ رسالة تعلنينى فيها بانقطاع الصلة بيننا . وقد وضعت رسالتى في ظرفه ورسالته في ظرفى ، وأن كلا منا قد تسلم رسالة الآخر .

وهكذا يا هاجرة .. عبث بك القدر . فأرسلت إليه تقطيعين صلتك به .. وأرسلت إليّ تسألينى الفرار معك .

وكان أول ما فعلت هو أن استدعيت الطبيب وأصررت على أن يجرى لي العملية الجراحية مهما بلغت خطورتها .

ولم يمض أسبوع .. حتى كانت العملية قد نجحت وشفيت حنجرتى تماما .. واسترددت موهبتى الأولى .

وعدت إليّ مرة أخرى مثبتة صحة كل ما سبق أن استنتجته من خطابك .. فقد أقبلت على ذليلة كسيرة .. معتذرة عن خطابك الذى قطعت فيه صلتك لي ، وقلت إنك كنت لا تودين أن تكونى عبثا عليّ ، وأنتك وددت أن تخليينى من

عهد قد يثقل على ، وهكذا عرفتني بالخطاب الذى كان يجب أن يأتى إلى
والذى تسلمه خصمى الآخر .. وكانت نتيجته أنه لم يحضر إليك فى الموعد المحدد
وهجرك إلى غير عودة .. ولم أنبئك بشيء عن حقيقة ما وقع ، بل أظهرت لك
صفحتى عنك ، وسألتك عما إذا كنت على عهدك القديم وأنتك موافقة على
الفرار معى .

وفى اليوم التالى وصلتني رسالة منك .. لا تكاد تفرق عن الأولى فى شيء ..
توافقين فيها على الرحيل معى .. وتحددin بنفسك الموعد والمكان ، وأدركت أن
فى هذه المرة لم يحدث خطأ .. وأن الطرف الآخر قد وصلته رسالة ثانية بقطع
العلاقة معه .

وفى الليلة الموعودة ذهبت إلى مكان اللقاء .. لم أذهب فى الموعد بالضبط ..
بل ذهبت قبله بلحظة بسيطة ، ووسط السكون الشامل ، وتحت ضوء
المصباح ، ووقفت أمام المقعد الذى اتفقنا على أن نلتقى عنده .. والذى تعودنا
أن نجلس عليه معا ، ولم أجلس لأنتظرك ، بل وضعت مكانى رسالتين : الرسالة
الأولى والرسالة الثانية .. ثم ركبت سيارتى وقررت أنى أرحل وحيدا .. لا رفيق
لى سوى « عودى » الحزين ، وصوتى الملتاع .. الذى يهتف فى سكون الليل :

آه منى أنا لم أدرك مداها آه منها هى لم تدرك مدايا
حطمتنى مثلما حطمتها فهى منى وأنا منها شظايا

آه لو كنت معى

آه لو كنت معى نختال عبره
بشراع تسبح الأنجم إثاره
حيث يروى الموج فى أرخم نبره
حلم ليل من ليالى كليوباتره
أين من عينى هاتيك الجمالى
يا عروس البحر يا حلم الخيال

(على محمود طه — محمد عبد الوهاب)

أكره أن أنساك يا حلوة الروح .. فأنى بغير ذكراك يابس القلب جامد الحس
كأنى حطبة أو حجر .

أبعد كل هذه السنين التى ولّت والعمر الذى انقضى .. وبعد كل هذا الزمن
خلته قد طواك .. لا أكاد أدخلو إلى نفسى فى بهمة الليل وسكونه حتى يساورنى
طيفك الرقيق ، فأكاد أشتمّ من النسيم عبقك العطر ، وأكاد أسمع من حفيف
الورق همسك الحنون وهتافك العذب « آه لو كنت معى » .

أنا معك دائما .. معك فى كل حين .. وفى كل زمان ومكان .. على الرنى
وفى الرياض ، وبين الأمواج وفوق الرمال .. بين الزهور وبين القبور .. فى
الحياة وفى الممات .

كانت أغنيتك المفضلة عندك .. وكنت لا تميلن من ترديدها .. وكنت لا
أمل من سماعها .

كانت هى بداية معرفتى بك .. وكنت أجلس وقتذاك فى الشرفة الصغيرة
المطلّة على الحديقة الخلفية التى تفصل بين دارينا ، وكانت الساعة قد قاربت

العاشرة مساء .. والليل سكون ، وهبوب النسيم خفق وحنون .. وقد اضطجعت على مقعد وأسندت قدمي على حافة الشرفة واتكأت برأسي على مسند المقعد وأخذت أرقب السحاب الذائب الهائم على وجه السماء .
ووصل إلى سمعي صوت رقيق حنون .. يشدو بالمقطع الأخير من أغنية الجندول .. ويردد في عذوبة « آه لو كنت معي » .

ولا أظنك كنت — وأنت تردين أغنيك ببساطة في تلك الأمسية — تتصورين مبلغ أثرها في نفس ذلك المخلوق القابع في الظلمة على قيد خطوات من نافذة حجرتك .. لقد أطلقتها رمية من غير راي ، وكنت بإحساسي المرهف وجلستي الشاعرية خير هدف أعد لاستقبال رميته .. فتلقيتها « وكنت السهم في كبدي » ورحت من سهمك أترخ نشوان ثملا .

وفي الليلة التالية كنت أتخذ مجلسي بنفس الطريقة وفي نفس الوقت ، وسرى إليّ مع النسيم صوتك كأنه السحر .

وتكرر ذلك في كل ليلة .. فكأننا على موعد ، وبدأ تفكيرى يتركز في تلك اللحظة من الليل حتى أضحت أغنيته وصوتك محور اهتمامي ومركز حياتي .
وقد يكون من العجب ألا أحاول أن أطمع منك في أكثر من صوت مجهول يسرى إليّ في جنح الليل .. وألا أحاول أن أراك أو أسأل عنك ، ولكني في الواقع كنت راضيا مغتبطا ، فأنا إنسان خيالي حالم ، وكنت أصورك لنفسى في صورة أبدع الفنان في رسمها .. صورة تتناسب مع ذلك الصوت العذب والجو الساحر الذى يسرى فيه ، وكنت أذكر قصة قرأتها عن رجل عشق في جوف الليل صوتا حنوناً .. فلما التقى بصاحبة الصوت وجدها شوهاء ضريرة ، وكنت أجزع من تكرار القصة معى وأكره أن أراك بغير الصورة الساحرة التى كنت أتصورك بها .

وعاونتني الظروف إلى حين ، فلم أراك طيفا ولا شبحا . فقد كنت أتغيب عن الدار طول اليوم فلا أعود إلا بعد سقوط الظلام .. أما في أيام العطلة فقد : (أغنيات)

كنت ألمح نوافذكم من خلال الشجر مغلقة .. وكان السكون الذى يسود داركم
يجزم بأنكم تقضون اليوم خارجها .

أقول إن الظروف عاونتنى على القناعة بصوتك إلى حين ، فقد عدت ذات
يوم إلى الدار قبل الغسق ، وجلست فى حجرى أتسلى بتصفح إحدى المجلات
عندما أفلتت منى نظرة مصادفة إلى ناحية داركم .. فإذا بى أجذك فى الشرفة
المواجهة لحجرى .

أجل .. وجدتك أنت .. أو وجدت ما تمنيت أن تكونيه . فقد كنت
لأعرف كيف تكونين .. ورحت أحرق فىك وأجزم لنفسى أنك لا بد أن
تكونى صاحبة الصوت .

إن خيالى لم يخطئ .. فما كنت شوهاء ولا ضريبة ولا كسيحة . وما كان
ذلك الصوت العذب ليخرج إلا من بين شفتيك الحلوتين المزومتين فى رقة .
كانت نبرات صوتك كقسمات وجهك .. من نفس النوع الهادئ الناعم
الذى يملأ النفس سكينه وراحة . وكنت أحس فيهما عمقا وإخلاصا يجعلانى
أتمنى لو أقضى العمر فى سماعك والنظر إليك .

وزادت لهفتى عليك بعد أن رأيتك .. وأضحيت فى نفسى أكثر من صورة
وهمية يجسدها الليل ويكسفها الصباح .. لم تعودى مجرد صوت ساحر ، بل
أصبحت كائنة حلوة ملموسة أستطيع أن أبصرك وأتحسسك .

ولم أعد — كما كنت من قبل — أستبعد المسافة بين عملى بالقصر العيني وبين
يتى فى الروضة .. بل صرت أعود فى كل فرصة أستطيعها .. ولم أحاول أن
أقضى لحظة فراغ ، منذ رأيتك ، خارج الدار .

واستطعت لطول التطلع إلى داركم ومراقبتى إياكم أن أحصى سكان الدار ..
فوجدت عجوزين لم أشك فى أنهما أبوك وأمك .

وبدأ ينشأ بيننا نوع صامت من المعرفة والألفة .. ومنعنى حياى أن أقدم على أكثر
من سماع صوتك فى جنح الليل والتطلع إليك إذا ما جلست فى الشرفة فى النهار .

وكان يخيل لى أنى ألمح فى قسماتك سيماء شجن وأنك تبدين مهمومة
محزونة .. أو على الأقل ليس لديك ما يفرحك ويطربك .. كأنك تسيرين فى
الحياة بلا أمل ولا رجاء .

وحاولت مرة أن أشير لك بالتحية ولكنك تجاهلتنى . فصدمنى تجاهلك إياى
فى مبدأ الأمر ، ولكنه زادنى رغبة فى أن أحدثك وأن أرفع عنك همك وأنبئك أننى
أحبك .

وازدادت إقبالا .. فازددت إعراضا . وقابلت ميلى إليك باستخفاف
وإنكار .. وكان كل ما بيننا من كر وفر ، وإقبال وإدبار ، لا يعدو الحركات
الصامتة من بعيد .

وأخيرا لقيتك وجها لوجه فى أحد معارض الصور بسرأى المعرض ..
ووجدتها فرصة العمر للحديث معك وصممت على ألا أدعها تفلت من يدى .
وحاولت تجاهلى فى أول الأمر . ولكننى كنت مصمما على أن أحدثك ، ولم
تكن المسألة عسيرة علىّ .. ولا كانت تحتاج لكثير جرأة .. إذ لم يكن أسهل على
من السير بجوارك .. وتتبعك أينما سرت ، وإبداء الملاحظات على الصور التى
نشاهدها معا .

وتبادلنا بعض التعليقات العابرة ، ثم رأيتك تتجهين إلى الباب وتهمين
بالخروج فتبعتك وأسرعت بإحضار عربتى ودعوتك لأوصلك إلى دارك .
ورفضت الركوب شاكرة .. ولكننى قلت فى لهجة مصممة أن لدى ما أو
قوله لك ولا بد أن تركبى معى .

ولم يكن هناك مفر من الركوب .. تلافيا للمناقشة . واتخذت مقعدك
بجوارى .. وسارت بنا العربة وعبرنا كوبرى الجلاء .. وبدلا من أن أتجه يمينا إلى
كوبرى الملك الصالح ثم إلى الروضة اتجهت يسارا إلى كوبرى أبو العلا ثم إلى
الزمالك حتى أطيل مدة جلوسك بجوارى .

وكنت تنظرين إلى بغضب مكبوت ودهشة مستسلمة .. وإن كنت أشك

- أنك — إلى حد ما — راضية .
وطال بنا الصمت وأنا أشعر من جلستك بجوارى بنشوة عجيبة .. وأخيرا
تساءلت في صمت خافت :
— ماذا تريد أن تقول ؟
— أشياء كثيرة .
— أتعتقد أن هناك فائدة من قولها ؟
— طبعا .
— إذن فقل .
— قبل كل شيء غني « آه لو كنت معي » .
— من قال لك أنني أجيد الغناء ؟
— قالت لي أذناي .. وهي تنصت في سكون الليل .
— أكنت تسترق السمع ؟
— لم يكن هناك ما يدعو للاستراق .. فقد بعثت مع النسيم صوتك ..
فحملة إلي .
وكانت العربة قد عبرت كوبرى الزمالك واتجهت يسارا .. فقلت
متسائلة :
— لم تقل ما تود قوله ؟
— لا أظن لي حاجة إلى قوله لأنك تعرفينه سلفا .
— لست أعرف شيئا !
— لا أجِد الألفاظ الملائمة لقوله .. لأنني لست شاعرا .
— ولا أنا .. قل باختصار !
— إنني أحبك .
وأطرقت برأسك وكسوت وجهك علامم الحزن التي طالما أبصرتك عليها ،
ثم قلت في شبه استخفاف :

- هذا قول لا فائدة منه .
- كيف .. إني جاد فيه .. إني لا أستطيع الحياة بدونك .. سأقدم إلى أبيك لخطبتك .
- ورأيتك تلتفتين إليّ ببطء ، ثم انطلقت منك بضحكة قصيرة ساخرة مليئة بالمرارة ، وتساءلت :
- تتقدم لمن ؟
- لأبيك .
- أين هو ؟
- ذلك الرجل الذى أراه فى داركم .
- إنه ليس أبى .
- ليكن من كان .. سأقدم إليه .
- حتى ولو كان زوجى ؟
- زوجك ! زوجك أنت !؟ أنت متزوجة ؟
- ولم أشك فى أنك تحاولين أن تمزحى ، فقلت متضحكا :
- لا داعى للمزاح .. إني أتكلم جادا .
- قلت لك إنه زوجى .
- والمرأة العجوز من تكون ؟
- أمى .. أتريد أن تخطبنى منها ؟
- وكنت أحس أنى تلقيت صدمة عنيفة لم أفق منها بعد ، وعدت أتمتم فى دهش :
- أنت متزوجة ؟
- وأجبت كأنما تحدثين نفسك :
- كنت أدرى منك بأنه لا فائدة .
- ألهذا كنت تصديننى ؟
- أكنت تريد من امرأة متزوجة أن تفعل سوى ذلك ؟

— كنت أحقق .. إلى آسف لما حدث .. لن أحاول إزعاجك بعد الآن .
هذا ما قلته لك .. ولكنى كنت أشعر وأنا أقوله أن من الصعب تنفيذه ..
وأنه قد سبق السيف العذل .
لقد قلت لك إلى كنت أحقق ، ولكنى صرت بعد ذلك أشد حمقا .. لقد
أحببتك ، وأنا لا أعلم أنك متزوجة .. فلما علمت .. لم أرتدع .. بل صرت
أكثر ولها وولعا .

ومتى كان المحب يروعه منطق أو توقف حبه خشية عاقبة أو خوف زلل ؟
لقد كان من العبث وقف السيل .. لا من ناحيتي فحسب ، بل من ناحيتك
أنت أيضا .. فقد هدم لقاءنا الأول كل ما كنت تتذرعين به من مقاومة .. وكل
ما كنت تدعينه من صد وإعراض .

لقد جرف حينا كل شيء : التقاليد والضماير ، والخوف والفضيلة .
سارت بنا العربة يومذاك تهادى في الطريق المظلل بأشجار الكافور .. وكنا
غريقين في حزننا ويأسنا .. وليس آلف للقلوب من تشارك الأحزان .
ولكن هل كنت حزيننا حقا ؟ لا أظن .

إن حزنى كان مجرد حزن سطحي .. أما في الأعماق فقد كانت ترسب
أكداس السعادة .

لتكونى من تكوينين .. زوجة أو أما أو أى شيء .. كفى أنى أحسست أنك
تخبيننى .

إنك لم تقولى شيئا ، ولكن ملاحك وصمتك ووجومك واستسلامك
واستنادك إلى كفى كان آيين من كل قول ، وأفصح من كل شرح .

وأخيرا أوصلتك إلى قرب البيت .. وافترقنا على أن نلتقى كأصدقاء .

أصدقاء ! ما أقدر الإنسان على خداع نفسه !

نحن نلتقى كأصدقاء ؟

وآين نذهب من اللهفة المتأججة والشوق المستعر ؟

ولكن ماذا يضيرنا من أن نسكت ضمائرنا بهذا الادعاء ما دامت سريعة
الاقتناع .. سريعة السكوت ؟

وتعودنا أن نلتقى بعد ذلك كل ليلة .. بعد أن يأوى الأهل إلى مضاجعهم
ويغطون في نومهم .. حيث نتسلل إلى شاطئ النيل كأننا طفلان هاربان ..
ونهبط في القارب الذى تعود الملاح إعدادة لنا في تلك الساعة ، وأتسلم منه
الشراع الصغير ، ونخوض به جوف النيل .

أكان ذاك حقيقة .. أم حلما من أحلام الدجى ؟
كيف مرت بنا الليالى وقتذاك .. الزورق ينساب فى لين ، والنسيم يعبث
بالشراع .. وأنت متكئة برأسك على صدرى .. وعطر شعرك يملأ أنفى ..
وذراعى تحيطان بجسدك الرقيق .. وصوتك العذب يردد أغنيتنا المحبوبة ،
وكأننا نعيش فيها :

آه لو كنت معى نختال عبره

بشراع تسبح الأنجم إثاره

حيث يروى الموج فى أرخم نبره

حلم ليل من ليالى كليوبتره

ولم ليالى « كليوبتره » وليست لياليك أنت يا عروس البحر يا حلم الخيال !

وتأخذين فى تكرار « آه لو كنت معى » .. وأنت ترنين إلى بعينيك فى حنين

وشوق .. فأهمس فى فمك « إلى معك .. معك دائما » .

ولكنك تهزين رأسك فى أسف كأنك تقولين : « أحلام خيال تبددها

اليقظة » .

* * *

وذات يوم سمعت طرقا على الباب غير عادى .. ثم أبصرت خادمك تقبل

على مذعورة وتساؤنى الحضور إليكم لأن سيدها قد أغمى عليه .

وأسرعت بالحضور إليكم ، وأخذت أفحص زوجك الكهل ، وقمت له

بالإسعافات اللازمة ، واتضح لى أنه مصاب بضغط الدم ، وأنه يخشى عليه احتقان فى المخ أو شلل .

ووجدته مخلوقا رقيقا طيبا ، فأخذت أطمئنه على صحته وأنباته أنى سأتولى علاجه .

وهكذا وجدت نفسى قد أقحمت فى داركم وأصبحت برغمى صديقا حميما لزوجك .

وبدأ الضمير يطرق طرقاته ملحة متوالية .. لينبئنى فى لحظة أننى قد بت شر أنواع الرجال .. يسقبنى من حبك مرارة وعلقما .. ويسم لى علاقتنا ، ويديها على حقيقتها أمرا إذاً وفعلا نكرا .

ووجدت نفسى — لكى أحتمل حياى — أمام أحد أمرين : إما أن أقطع علاقتى بك أو أحو صلتى به .

وكنت أعلم تماما أنى لا أطيق بعدك ولا أحتمل فراقك ولكننى كنت أعلم كذلك أن زوجك فى حالته الراهنة — وبعد أن توليت علاجه فى أول الأمر — فى أشد الحاجة إلىّ وإلى ثقته بى ، ومن الجرم أن أنقطع عن تولى أمره فجأة قبل أن يبل .

وأخيرا .. وفى ثورة من ثورات الضمير .. قررت أن أنقطع عنك . كانت غباوة .. أو غرورا .. أو حسن ظن بالنفس .. سمها ما شئت .. فكثيرا ما تتتابنا نوبات جنون .. توهنا بأننا قد وهبنا من الإدارة ما نستطيع به وأد قلوبنا .. وقتل مشاعرنا .

وبدأت أناى عنك وأتباعد وأتهرب من لقاءك والنظر إلى عينيك .. وكنت أحس المرارة والخذلان فى ملاحك دون أن أحدثك أو حتى أنظر إليك .. ولكننى كنت أتجلد وأتصبر .. وكان عزائى عن أملك أنى أشاركك إياه إن لم يكن ألى شرا منه .

وبذلت كل ما أملك فى علاج زوجك ، ولم أنجل عليه بجهد ، فقد كنت

أحس أن جهودي معه تكفير عما فعلت به .. وبدأت أشاهد ثمرة جهودي بأن ظهرت عليه بوادر الشفاء .

وخلوت إلى نفسي ذات ليلة بعد طول تعب وسهد ، فتملكني إحساس جارف بالحزن والضييق والحرمان ، وأحسست أني أكاد أسقط إعياء بعد طول عدو .. وكان كل ما بي مبعثه الحنين إليك واللهفة عليك .. وبدأت أتململ من القيود التي شددت بها نفسي قائلاً :

إني قد قمت بواجبي نحو زوجك ، وأن عليّ أن أقوم بواجبي نحو نفسي وألا أترك قلبي ييس وروحي تذبل وتجف .

أكثر عليه أن أسترده منه حيائي بعد أن وهبته حياته ؟ أجل .. ليهني حيائي .. وحيائي أنت ولا حياة لي سواك .

وانقطعت عن زيارتك بضعة أيام ثم ذهبت إليكم .. لالعيادته بل لأنبئك أني عدت إليك .

ولم أجدك .. وأنبأتني أمك أنك ذهبت إلى خالتك منذ ليلة أمس لأنها مريضة وفي حاجة إلى من يعني بأمرها .

وعجبت ! لم لا تذهب أمك إلى خالتك وهي أختها ، وتبقين أنت بجوار زوجك ؟!

وفي اليوم التالي ذهبت إلى عملي بالقصر العيني .. فإذا بزميل أخصائي في أمراض النساء يمس في أذني أنه يريدني لأمر هام .. وفي مكان خال أنبأتني أن مريضة في مستشفى تريد رؤيتي .. وعجبت من قوله وذهبت معه وأنا مشدوه .. ولم يك يخطر ببالي قط أنك أنت هذه المريضة حتى رأيته .

أجل أبصرتك أنت بوجهك الشاحب وقسماتك الهادئة وقد استلقيت على الفراش في ضعف واستسلام ، فسألتك في لهفة عما بك .

وأنبأتني هامسة أنها عملية إجهاض .. وأنك أقدمت عليها خشية أن يفضح أمرك عندما وجدتني قد خذلتك وتحليت عنك بعد أن كنت تنوين أن تسألي.

زوجك أن يهلك حريتك ويطلقك لكى نعيش معا .

وذهلنى قولك .

أأنا أخذلك وأتخلى عنك ! أتخلى عن حياتى ؟

أقسم لك أنى ما عرفت قط أنك حامل ، وأن انصرافى عنك لم يكن سوى ثورة ضمير نشأت عن قرى من زوجك العجوز .

لشد ما أخطأت فى ظنك .. إنى على استعداد لأن أحمل عنك وزرك .. فإنه

وزرنا .

إنى سأذهب لأنبئه بنفسى ، وأطلب منه أن يهلك حريتك .

وغادرتك بعد أن بللت يديك بأدمعى ، أدمع التكفير والندم .. لقد كان يجب على أن أكون أشجع من ذلك ، ولا أتركك وحدك وأتراجع فى منتصف الطريق .

ومرة ثانية وجدتنى قد اتخذت قرارا أعجز عن تنفيذه . كيف أواجه الرجل الذى لم يكذب يلا من مرضه بالحقيقة المؤلمة ؟ كيف أطلب منه أن يطلق زوجته التى حملت منى لأنى أريد زواجها ؟ هذا منتهى الجنون . إنى لا شك قاتله بقولى .

لا .. لا .. إنى لا أستطيع .. يجب أن أؤجل المسألة حتى أجد لها حلا . ومع ذلك لم أكد أقرب من الدار حتى وجدت الحل سهلا ميسورا .. فقد رأيت فى داركم حركة غريبة .. وسمعت فى داركم صوت بكاء ، ثم علمت أن زوجك وفر على مشقة مواجهته .. وأطلق سراحك وصعد إلى السماء . ولا أكتمك أنى شعرت من موته بصدمة .. رغم أنى وجدت فيه حلا لمشكلتنا .

وعدت إلى المستشفى لأنبئك أننا قد بتنا أحرارا فى حبنا وأننا نستطيع الزواج .. ولكنى وجدتك أنت أيضا قد رحلت .. لقد قضى عليك نزيف مفاجئ .

— ٥٩ —

أية سخرية هذه ؟ من يصدق أنكما رحلتما سويا في ساعة واحدة ؟
لقد أبى العجوز إلا أن يأخذك معه .. أترأه كان يعلم كل ما بيننا ؟ من
يدري ؟

لقد هجرت الشرفة وهجرت البيت .. لم أطق البقاء فيه لحظة واحدة ،
ومرت بى السنون وأنا كلّم القلب ، شارد الروح لا أكاد أبصر زورقا يجرى ،
أو شراعا ينساب ، حتى يحمل إلى صوتنا حنونا يهتف بى : « آه لو كنت
معى » .

* * *

وأوشك أعبدہ

مضناك جفاه مرقده	وبكاه ورحم عوده
حيران القلب معذبه	مقروح الجفن مسهده
يستوى الورق تأوّه	ويذيب الصخر تنهده
ويناجى النجم ويتبعه	ويقيم الليل ويقعده
ينى فى الحب وينك ما	لا يقدر واش يفسده
ما بال العاذل يفتح لى	باب السلوان وأوصده
ويقول تكاد تحن به	فأقول وأوشك أعبدہ

(شوق — عبد الوهاب)

يا لائمى فى الهوى ، أرح من اللوم نفسك .
أنا مجنون ، فلا تضع وقتك معى عبثا .. إن ضرب الميت حرام ، ولوم المجنون
عبث .

أنا سعيد بأحزاني ، ولوعتى وأشجاني ، فدعنى أعب منها ما استطعت فقد
استسغتها ورؤيت عليها نفسى ، حتى باتت جزءا من كيانى .
دع عنك لومى ، فقد تعودت البكاء ، وملت إليه .

إن القلب لن يضجع ، والفؤاد لن يهجع .. فقد أقسما ألا يغمض لهما جفن
بعد رقدتها الأخيرة ، وأن يرعاها فى ضجعتها بين الثرى بعين الحب والشوق التى
ظلت قليلة عنها حتى رحلت .

أجل .. إلى ساعوْضها وفاء عن طول وفائها ، وحبا عن عظيم حبا .. علّها
تغفر لى فى قبرها ما بدر منى فى حياتها من إهمال وإعراض وتجاهل وإنكار .
لا تقل إن حبى سيراى على عظام نخرة وقبر بقفرة . لا تقل لى لن أجد له

بجأوبة ولا ردا ، فما كان ذلك ليثيننى عن حبيبى لها . ألم تكن هى تحببى دون أن
تنتظر منى بجأوبة ولا ردا ؟
إن حبيبى لها لا يطلب رداً ، فهو نفسه ردّ لندائها الضائع المتبدد ، إنه صدى
لحببها الصامت ورجع لصبابتها الذاهبة .
أنا لا أرجو من حبيبى شيئاً .. فقد سبق أن أخذت عوضاً عنه دون أن أشعر ..
إنى أردّ به ديناً قديماً .
إنى لأجلس فى سكون الليل الحالك المدلم ، صامت اللسان ، صاخب
الحشا ، أرقب نافذتها المظلمة التى طالما راقبتنى من خلالها .
إنى لأحيا على ما مضى .. على وريقات خلفتها لى بعد أن وضعت فيها عصارة
روحها وذوب نفسها وقلبها ، أقلبها بين يدى وأضمها إلى صدرى فأجد فيها
عزاء جميلاً .. ويستبدى الحنين فأبصرها من خلال الورق .. وأسمعها فى هديل
الورق ، وأبيت والغائب الحاضر فى خلوة ممتعة هنيئة ، لا يشوبها عاذل
ولا يقطعها رقيب .. سوى نسمة تعبر ، أو طير يرف .
إنى لأقرأها المرة بعد المرة ، وأنا جاثم فى خلوقى أتطلع إلى مقرها السابق من
النافذة المغلقة .. ما مللت قط من القراءة أو النظر .
لقد حفظتها عن ظهر قلب ، وباتت كل كلمة منها ، بل كل حرف ، منقوشاً
فى ذهنى وفى قلبى ، كأنها كلام الله فى قلب المؤمن .
وإنى لأستطيع تلاوتها وأنا مغمض العينين ، وأترنم بها كاللحن الجميل
والأغنية الساحرة .

* * *

» حبيبى ...

أترانى أخطبك أم أخطب نفسي ؟
إنى واثقة من أن حديثى لن يبلغك ، وما أحسست من هذا بضيق ولا حزن ،
فما أردت بكتابتى أن أبلغك إياه ، لأنى لأجسر على هذا ، ولا أرجو منه أية فائدة .

كيف لا وأنا أعلم علم اليقين أنى فى نظرك مخلوقة غير كائنة ، أو كائنة كالملايين غيرها من الكائنات التى لا تعنى لديك شيئاً خاصاً .. بل تمر بذهنك مروراً عابراً دون أن تترك أقل أثر ودون أن يكون لها استقرار فى نفسك إلا لحظة مرورها بك .. أما بعد ذلك فتصبح نسياً منسياً .

أنا أكتب لك — أو لنفسى — لأن ذلك هو خير ما أملك ، ويعلم الله ماذا كان يمكن أن يحدث لى لو لم أروِّح عن نفسى بهذه الكتابة .. إن لى فيها عزاء .. إني أفرغ بها جمرات من الوجد تتأجج فى صدرى وتستعر فى قلبى ، وأهيم بها لنفسى من متع الأوهام ما يعوضنى عن شقاء الواقع وظلمات الحقائق .

إني أحبك .. أقولها ولا أخشى لومة لائم .. فما من أحد يستطيع سماعها إلا أنا ، وما من أحد يستطيع أن يشعر بحبى إلا أنا .

إننى أحبك ، أحبك ، دعنى أرددها .. فإن فى مجرد ترديدها متعة كبرى .. إني أحس منها بنشوة عجيبة .. وكأني وأنا أقولها أضع رأسى على صدرك وأترك شعرى لأصابعك تتخلله وتعبث به .

ألم أقل لك إن فى الكتابة إليك خير عزاء ؟ إني أستطيع أن أكتب بشجاعة وصراحة وأن أقول كل ما أتمنى قوله ، دون خجل ولا خشية . إني أتمتع بحرية فى الكتابة لا أظننى كنت أستطيعها لو خاطبتك وجهاً لوجه .. أو حتى لو علمت أن كتابتى هذه ستصل إليك وتبلغ مسامعك .

دعنى أجدول بك جولة فى ربوع الماضى ، نعبز القفار ونخترق الآكام . دعنى أشرح لك كيف كنت أراك وأرقبك وأتبع خطاك ، وأنا أكاد من الوجد أذوب ، وأنت عنى — ساحلك الله — معرض ساه .

كانت أول مرة رأيته فيها ، وقد مررت بدارنا فى ذهابك إلى كليتك ، وكنا قد انتقلنا حديثاً إلى الدار التى اشتريناها ، ثم تعودت أن أبصرك بعد ذلك كل صباح عندما كنا — أنا وأختى — نقف أمام الباب فى انتظار عربة المدرسة ، وعلمت — حيثئذ — أنك تقطن فى دار مجاورة كائنة وراء دارنا .

ومرت الأيام وأنت تمر بنا مروراً عابراً حاملاً حقبتك المليئة بالكتب ،
والمسطرة حرف T تحت إبطك وقد بدت عليك علامات الجد والوقار كأنك
« باشمهندس » كبير ، لا طالب هندسة ، ولم تكن تعيرنا كبير اهتمام .. لمظهرنا
الصبياني .

وهكذا ظللت لا تزيد في نفسينا عن أن تكون إحدى ظواهر الشارع الثابتة
الميعاد كبائع اللبن أو عربة الرش أو ساعي البريد ، أو .. إن شئت الصدق ..
أفضل قليلاً .. بوسامة منظرِكَ وامتشاق قوامك .. حتى التقينا بك يوماً في سينا
مترو ، وقد وقفت أمام شبك التذاكر في مقدمة الصف الطويل الذي اصطف فيه
جمهور غفير ممن يريدون الدخول .

ولم يكن هناك أمل في دخولنا ، فقد كان احتشاد الناس يبعث على اليأس ..
وهمنا فعلاً بالعودة ، أنا وأختي وأخي ووالدتي ، ولكن عندما لمحتك واقفاً في
الصف الأول ضربت أختي بمرفقي ألقت نظرها إليك ، والتفت أبصارنا
فابتسمت وأشارت برأسك محيياً .

استغلت أختي فرصة ابتسامتك — وهي تفوقني جرأة واستغلالاً للفرص —
فتقدمت إليك وسألتك أن تبتاع لنا أربع تذاكر ، وأخذت النقود من أخي
فدفعت بها إليك ، ولييت الرجاء بابتسامة لطيفة وحاولت أن تمتنع عن أخا
النقود ، ولكنها ألحت عليك فقبلتها مرغماً .

وابتعت التذاكر ودخلنا معاً ، بعد أن أنقذتنا من ضيق العودة إلى الد
خائبين ، وقمنا بواجب التعارف بينك وبين أمنا وأخي .. ولم نكن نعرف عنك
سوى أنك جارتنا الطالب بالهندسة ، أما غير ذلك فقد كنا نجهله ، حتى اسمك
لم نكن نعرفه .

وكانت المقاعد الخمسة متجاورة ، فتم تعارفنا خلال فترات الراحة ،
وسألتك والدتي عن والدتك وأبناك أنها « واخدة على خاطرها منها » لأنها كان
يجب أن تبدأها بالزيارة فاعتذرت بأنها كانت مريضة وأكدت لها أنها ستزورها في

أقرب فرصة .

وعندنا معا إلى دورنا ، ووجدتك على غير ما كنت أتصور ، حلو الحديث ،
حاضر النكتة ، لطيف المعشر ، لا أثر فيك للتكلف أو الغرور ، (النفخة) التي
كنت تبدو بها وأنت تسير أمامنا حاملا المسطرة حرف T .

وأستطيع أن أجزم أن بداية حبي لك كانت في تلك الليلة ، وقد كانت هي
نفسها بداية يأس وبداية إحساس بالخطر .

« رحم الله امرأ عرف قدر نفسه » .. وأنا ما طمعت في رحمة الله إلا لهذا
السبب . فأنا أعرف تماما قدر نفسي ، أعرف أنني لم أهب الكثير مما يسبى
ويفتن ، وأعرف أن جمال باطني يفوق كثيرا جمال ظاهري ، ولم أحاول أن أدع
المرأة تخدعني وتموه علي . أو أن أقنع نفسي بخطأ مقاييس الجمال ، وأفهمها أن
الشعر الخشن أجمل من المسترسل ، وأن السحر يكمن في العيون الضيقة
والحواجب الثقيلة .

كنت أعرف أن وجهي قد يكون مقبولا ، ولكنه ليس بالوجه الجميل ،
وأقسم لك أن ذلك لم يكن يسبب لي أى ضيق ، فقد كنت منطوية على نفسي لا
آبه بمن حولى ، والإنسان لا يهتم بصورته إلا لتأثيرها على من حوله ، فإذا كان لا
يهتم بهم ، فهي عنده غير ذات موضوع .. لقد كنت في شغل شاغل عن الناس
وعن نفسي ، بالرسم والقراءة والموسيقى ، ومحاولة الكتابة وقرض الشعر .
لقد كان ظاهري صامتا ، أما باطني فقد كان يصخب بالمشاعر
والأحاسيس .. لقد كنت غنية عن الناس بنفسى ، وكنت أملك في جوفى كل
عناصر الاستقلال الذاتى .

وأرقت تلك الليلة فلم يغمض لي جفن حتى ساعة متأخرة من الليل .
وأحسست لأول مرة أن جمال باطني لن يغينى شيئا ، وأنى لم أعد غنية
بنفسي ، وأنى فقدت استقلالى الذاتى ، وبت أشعر أنى مخلوقة ضعيفة ذات
سلاح مثلوم مغلول مغمور في غمده .

فكرت فيك كثيرا في تلك الليلة ، وبدأ لى أنى أصبت بحبك منذ زمن طويل .. منذ رأيته أول مرة تمر بدارنا . ولكن جرثومة الحب ظلت كامنة حتى هذه الليلة عندما جلسنا متجاورين وتلامست كتفنا ثلاث ساعات في الظلام . وكان يجب على ، وقد أصبت بلوثة الحب ، أن أغمض عيني وأمتع بأوهام العشاق ، وأن أعلل النفس بالآمال ، وأمنيتها بأعذب الأحلام .. ولكنى لم أجسر على ذلك ، فقد اندفع فى نفسى — مع إحساسى بحبك — إحساس باليأس منك .. ففى لحظة واحدة دق فى قلبى ناقوسان : ناقوس الحب وناقوس الخطر .. أو ناقوس عرس وناقوس جناز .

كنت أعلم من اللحظة الأولى أنى مقبلة فى حبك على معركة لا قبل لى بها ، وأنى سأعجز عن خوضها ، وسأولى منها فرارا ، ولقد قررت منها فعلا ، ولكن بعد أن أصابنى السهم فى الصميم ، فانطويت على نفسى وأخذت أنزف ببطء . كان خصمى فى المعركة هو أختى .. لقد دقت أنت ناقوس الحب ، ودقت هى ناقوس الخطر .. ولا أظن المعركة قد نشبت بيننا قط ، فقد ألقيت السلاح واستسلمت من اللحظة الأولى ، وأخليت لكما الميدان ، ووقفت أرقبه محسورة .

لقد كان من الجنون أن أغامر فى معركة ضد أختى ، وقد وهبها الله أمضى أسلحة الجمال وأرهفها حدا : من شعر كأمواج الليل ، ووجه جذاب الملايم حلو التقاطيع ، وجسد فارع ممشوق .. وأكثر من هذا كله شخصية مسيطر متحذثة تتضاءل بجوارها شخصيتى .

وهكذا كسبت المعركة من الجولة الأولى ، ولم يعد هناك شك فى أنها استأثرت دونى باهتمامك فى أول لقاء .. وفى كل لقاء .

وحضرت والدتك لزيارتنا فى اليوم التالى ، ثم أخذت العلاقات بيننا تتوطد ، وكثر التزاور بين العائلتين ، وأقبلت علينا متذعرا بالصدقة التى نشأت بينك وبين أختى ، ورفعت بيننا الكلفة فأضحينا نراك فى دارنا فى أى وقت ، وأضحينا (أغنيات)

نقضى فى بيتكم وفى حديقته شطرا كبيرا من فراغنا .
ولو كان قلبى بيدى ، لما ترددت لحظة فى أن أحوله عنك وأسكت دقاته
العنيفة المتواصلة التى تتواتر كلما لاح له طيفك أو طافت به ذكراك ، ولأرحته
منك وأرحت نفسى منه .. ولكن أمره لم يكن بيدى .. لقد كان نائرا متمردا ،
أحمق طائشا ، مصرا على حبك بلا تفكير ولا أمل .. أئمله الحب فلم يعد يرجو
سوى أن يبقى فى ثملته ونشوته ، راقصا مترنحا يصفق لك ويهفو إليك .
وأصابك من الحب ما أصابنى ، وكنت أقدر الناس على فهم مشاعرك .. لقد
شغفت بك وشغفت أنت بأختى ، بت مجنونة بك وبت أنت مجنونا بها .. وما
ألومك وما ألوم نفسى .. فقلوبنا حرة تخفق لمن تشاء .. ونحن لمن تشاء .. وقد
استسلمت لقضاء الله من أول الأمر ، ولم يعد هناك مجال للوم .. وهل يلام
إنسان لأنه لم يستطع رد القضاء ؟

أما الذى يستحق اللوم حقا فهى أختى .. ولقد أخطأت أنا فى حبك ولكنى
كنت مخلصه فيه ، وأخطأت أنت بحبها ولكنك لم تكن تقل عنى إخلاصا . أما
هى ، فما أحبت وما أخلصت ، ولكنها كانت بك لاهية عابثة مخادعة .
أنا لا ألومها لأنها لم تحبك . وإن كنت اعتبر هذا غباوة منها ، وأرى حبك
شرفا لا تستحقه ، ولكنى ألومها على أنها تظاهرت بحبك ، حتى لقد استغربت
ذلك منها وأنا التى أعرفها أكثر من نفسها .. مخلوقة أنانية مادية ، تسخر من
المشاعر ، ولا تؤمن إلا بالمادة والواقع الملموس .

لقد كانت تتسلل بك ، وما حاولت قط أن تحمل حبك محمل الجد ، وأقبلت
عليك لإقبالها على شىء جديد ، أو على تجربة .
وهكذا بدأت التجربة بثلاثتنا .. أنا أحبك ، وأنت تحبها، وهى تتسلل بك
وتعبث .

وأخذت أرقبكما فى صمت وسكون .. وأقول لك الحق إننى بدأت أكرهها
لا عن غيرة ولكن من أجلك .

بدأت أحس لها بيبغض ونفور ، مع أننا قد نشأنا معا طول العمر ، فما كانت تكبرني بأكثر من عام ، وما افترقنا في حياتنا لحظة واحدة .
إني لم أكرهها لأنها أحببتها ، وما كنت بمبغضتها لو أنها نظرت حبك نظرة جدية ، فأحبتك مخلصه .. ولكنني أبغضها لأنها استخفت بك وبحبك وجعلت منك مسلاة .

وسار كل منا في طريقه ، أنا ممعنة في حبك ، أرقب من نافذتي في سكون الليل حجرتك ، وأتطلع إلى شبحك مكبا على المكتب للاستذكار .. أنظر إليك في حنين وشوق ولهفة ، وأظل ساهرة :

أناجى النجم وأتبعه وأقيم الليل وأقعده

لا يغمض لي جفن حتى تأوى إلى فراشك وتسود الظلمة مضجعك .
لقد حفظت من طول المراقبة كل حركاتك وسكناتك ، وبت أعرف قبل أن تفعل أى شيء ، ما توشك أن تفعل ، ولم أكن أرى من حجرتك إلا المكتب وطرف الفراش ، ولكنني كنت أتصور بعين الوهم ما وراء الجدران .
فأرى الحجرة كأن جدرانها قد شفت ، وأراك تغدو فيها وتروح .. ثم تترقد على الفراش وتتمطى ، ثم تضع الوسادة فوق رأسك كما قلت لأختي ذات مرة .
وجرؤت مرة ودخلت إلى حجرتك ، وكنا في زيارتك فغافلتهم وتسليت إليها .. ولم أجدها غريبة عني ، فقد كان كل ما بها تماما كما تصورت ، وجلست أمام مكتبك ، ورقدت على فراشك ، ووضعت رأسي على الوسادة حيث تضع رأسك ، وقبلت موضع فمك ، وشممت بقايا أنفاسك .. ثم غادرت الحجرة بعد أن سرقت شيئا أو على وجه أدق ، سرقت شيئين : صورتك ، ومنديلا ملقى على المكتب .. وما زلت أحتفظ بهما حتى الآن ، ذخيرة العمر وخلاصة متاع الحياة .

وسرت أنت في طريقك .. وكان حبك لها كحبي لك قويا جارفا جعلك تغمض عينيك عما سواها .. وتلمس المعاذير للحضور إلينا فإذا ما جلست معنا

أخذت تغمرها بنظرات ملؤها الصبابة والشوق والولع ، ثم بدأت تسوق إليها الهدايا وتشركني في بعضها ذرا للرماد في العيون .. ولم يضايقني ذلك قط بل كنت به راضية قانعة .

كنت أحس أن أقصى متعة لي هي أن تكون أنت راضيا ، فأخذت أهيبك لك الرضاء عن طريقها .. أستيقظ في الصباح فأجمع الورود ثم أوقظها وأسلها أن تحملها إليك .. وأظل أدخر من مصروفي كل دائق حتى أبتاع لك أسطوانة قلت ذات مرة أنها تعجبك ، وأقدمها لها قائلة إننا يجب أن نرد بعض هداياك التي غمرتنا بها .. فإذا ما قالت إنه مفروض في الرجل أن يقدم الهدايا ، قلت لها إنها لن تكلفها شيئا سوى تقديمها إليك ، وإنني سأتحمل الثمن كله .

و كنت أعلم تماما مبلغ سرورك بتلك الهدايا التي تحملها إليك ، وخاصة أنك تظن أنها هداياها هي .. وأنها ليست مجرد حاملة لها .

و كنت أسألها بلهفة كيف تقبلتها ، وأطلب منها أن تصف لي رضائك وسرورك ، وكان هذا هو كل ما أطلب .. لقد كان حسبي منك ، إحساسى بهنائك ، بأية وسيلة ، ومن أى طريق .

أما هي ، فقد سارت في طريقها معك فترة وجيزة ، ثم أخذت تنكص على أعقابها ، كما كنت أتوقع ، إذ أصابها الملل وتملكتها السآمة ، وجعلت تتهرب منك وتلقاك بفتور .

و كنت أول من أحس بما أصابك من ضيق ولوعة .. وأصابتني من لوعتك لوعة أشد ، وحز في نفسي ما بدا عليك من شرود حزن .. وأحسست أن حبي لك يزداد عنفا .. وتملكتنى رغبة جارفة في أن أدفع عنك الحزن وأبعد عنك الشجن .. ووجدت أن من واجبي أن أعلم أختي أو غريمتي في حبك .. كيف تحبك .

ومرت الأيام وأنا أحاول أن أعيدها إليك ، وأن أغرس حبك في قلبها ، أو أنقل إليها من قلبي عدوى حبك ، و كنت أجلس إليها الساعات الطوال أحاول

أن أسمو بها إليك ، وأعلمها الحب الصحيح ، وأريها منك ما لا يراه سوى أنا المدلّهة .

وأفلحت إلى حد ما .. واستطعت أن أجعلها تلقاك في الحديقة كل ليلة .. وهيات لكما لقاء تتناجيان فيه وتنعمان بحبكما ، أو على وجه أصح ، تناجيا فيه ، وتنعم بحبها ، وكنت أجلس على مقربة منكما خشية أن يفاجئكما أحد ، وكأني كلب أمين لا همّ له إلا حراسة سيده ، والسهر على راحته وأمنه وطمأنينته .. وهل لي من سيد سواك أسهر على راحته وأمنه وطمأنينته ؟

وهكذا ظللت أدفعها إليك ، وأسوقها إلى حبك ، وإلى لقاءك ، حتى كان ذلك في ليلة ليلاء عاصفة الريح شديدة البرد ، وكنت أجلس وراء زجاج النافذة أرقبك في حجرتك كما تعودت أن أفعل .. وكان البيت غارقا في صمت عميق والأهل كلهم قد استغرقوا في النوم ، عندما سمعت على السلم حركة مريبة ، ووصل إلى سمعي وقع أقدام تسترق الخطى ، وأصخت السمع فانقطع الصوت .. ولكنه عاد مرة أخرى .. وقمت من مكاني فاتجهت إلى السلم . فإذا بأختي تقف في نهايته ، ودهشت ليقظتها وسألتها ما بها .. فأجابت بأنها أرقّت وأنها تبحث عن قرص أسبيرين لأنها تحس في رأسها صداعا .

وعدت إلى حجرتي ، وبدأت الوسوس تملأ رأسي .. لقد كنت أحس من أختي في بضعة الأيام الماضية ما يبعث على الرية .. وكنت أراها تختفي من الداء فجأة دون أن أعرف إلى أين ذهبت .. كنت أرى في ملامحها شرودا وتفكيراً . وكنت أشك كثيرا في أن شيئا ما يشغل بالها ، وأن شخصا جديدا دخل في حياتها .

وتركت حجرتي مرة ثانية وهبطت إلى الطابق الأسفل فراعني أن أجدها واقفة بالباب الخارجى وقد حملت حقيبة في يدها ، وأبصرت على باب الحديقة عربية تنتظر وبداخلها شبح لم أستطع تمييزه ، ولكنها أسرعرت تعدو هاربة إلى الخارج واتخذت مكانها في العربة .

وبلا تفكير عدوت ورائها لأمنعها من الفرار وازتكاب تلك الحماسة الكبرى ، خرجت من باب الحديقة والعربة تهم بالحركة واستطعت أن أتعلق بمؤخرتها قبل أن تمنع في السير .
وصممت على أن أعيدها ، وأن أمنعها مما توشك أن تنزلق إليه من أجل إنسان واحد .. هو أنت .

وأخذت العربة تعدو في الطرقات المظلمة ، والريخ تصفر في أذني ، والبرد ينخر في عظمي ، دون أن يستر جسدي سوى قميص خفيف .
وأخذت أنكمش وألصق جسدي في العربة ، وأطبق يدي متشبثة بقطعة الحديد التي أمسك بها .. حتى أحسست فجأة بالعربة تعلو وتهبط ثم تدور في منحنى ، وأفلتت يداي وشعرت بأرض الطريق تقرع رأسي ولم أفق بعد ذلك إلا وأنا طريحة الفراش .

وحمدت الله رغم ما أصابني لأني نجحت فيما أردت ، فقد عادت معي أختي إلى الدار بعد أن سمعت صيحتي ، وأنا أسقط إلى الأرض ، وادعت أمام أهلنا أننا خرجنا معا للتريض فمرت لي عربة صدمتني ، ولم يكن أحب إلي من أن أوافق على قولها .

لني أرقد في فراشي سعيدة بما فعلت .. فإني ألمح الندم يملأ وجهها ، وسعيدة أكثر بزيارتك لي ، وعطفك عليّ .. حتى بت أتمنى أن تكون حياتي سلسلة حوادث وصدمات حتى أحظى منك بهذا العطف .

ولكن لا .. لا أظن القدر ينعم علينا حتى بالحوادث والصدمات ما دمنا نطلبها ونحتاج إليها ونفقد منها .

كل ما أوده أن يهديها الله ويغرس في قلبها حبك حتى تعيش هائنا .

* * *

هذا هو ما وعيته من كتابها وحفظته عن ظهر قلب .
لقد كتبت ثم رحلت بعد بضعة أيام ، قضت عليها الصدمة والالتهاب الرئوي

الذى أصابها فى تلك الليلة ، وقد عثرت أختها على الوريقات فأخفتها عن أهلها ثم حملتها إلى ذات ليلة وسألتنى أن أنساها لأنها لا تستحق حبى ، أما الذى تستحقه فهبى صاحبة الوريقات .

وما أظننى كنت فى حاجة إلى نصحتها بعد أن قرأت الوريقات .
من يصدق هذا ؟ من يصدق أن ذلك النموذج السامى كائن بين البشر ؟
إن الأيام تمر بى والحنين لا يحمد والشوق لا ينطفىء .. أجلس فى بهمة الليل شارد الذهن تائه ، باكى المقلة ذابلها ، أرقب نافذتها المظلمة وأطلع إلى شبحها .

حيران القلب معذبة مقروح الجفن مسهده
ويهتف بى صوت يسرى مع الرياح : « ألم يندمل القرح ؟ » فأقول : « بل زاد نكاه » ويقول : « ألا يعزيك عن الراحل شيء ؟ » فأقول : « إن العزاء لا يتناول إليه » . ويقول : « أتضيع عمرك وراء أمل خاب ؟ » فأقول : « لست أول من أضاعه » . ويقول : « أتعشق الرميم ؟ » فأقول : « والرماد والهشيم » . ويقول : « تكاد تجن به » . فأقول : « وأوشك أعبده » .

فى الليل لما خلى

فى الليل لما خلى إلا من الباكى
والنوح على الدوح حلى للصارخ الشاكى
ما تعرف المبلى فى الروض من الحاكى
(شوق — عبد الوهاب)

أخذت أصابعها تعبت بالرسالة وهى شاردة وأجمة ثم أطبقت عليها فجأة
وتملكها يأس بالغ وحزن شديد .

هذه سخرية جديدة ، من سخریات القدر !
ضحكة أخرى ماجنة من ضحكاته التى يأبى إلا أن يلاحقها بها ، فينفث بها
السم فى جوفها .. ويحرك منها الشجن ويثير اللوعة .
لو أنه تركها فى ظلمات يأسها الحالكة ودياجير وحدتها الموحشة ،
لاستطاعت ، رغم ما بها ، أن تحتمل .. فكل بلاء فى هذه الحياة يمكن احتماله
بطول الأناة والتعود ، وكل مصاب لا بد أن يوهن الزمن من حدته .. ويخفف
من وطأته .

وهى قد تعودت الشقاء حتى استساغته ، وأنست إلى اليأس حتى لم تعد
تذكر أن هناك شيئاً يسمى الأمل ، ووطنت النفس على الوجدة حتى باتت من
وحدتها فى اطمئنان وأمن .

ترى لم يأبى عليها القدر هذا الاطمئنان إلى الوحشة ، والراحة فى اليأس ؟ أعلى
الشقاء لا تخلو من الحسد ؟

لم يأبى القدر إلا أن يذكرها بما هى فيه ، ويلوح لها بالأمل ، بعد أن أضاع الأمل ؟

أكلما اندمل جرح ، دمی جرح ؟ وكلما شفى قرح ، نكئ قرح ؟..
 أكلما تعودت الظلماء ، أراها من الضياء قبسا ، ومن النور بارقة ، فلا تكاد
 تتعلق بهما ، حتى تذرهما الرياح وتتركها في ظلمة أشد وبهمة أحلك ..؟
 ولكن لم تتعلق هي بهذا الشعاع الكاذب ، والقبس البراق ؟ لم لا تغمض
 عينها فلا تعود تحس بألم الخدعة ، ومضاضة الوهم ..؟
 إنها تحاول ، ولكن لا تستطيع .
 أى تائه في الحللوات يستطيع أن يغمض عينيه ، عن بارقة تلوح ، مهما كانت
 كاذبة ؟

أى صايد ، يمكنه أن يعرض عن سراب يلمع ، مهما يكن كاذبا خداعا ..؟
 إن النفس الحزينة لتتوق إلى العزاء ، حتى ولو كان نفاقا في نفاق .
 وهكذا كانت تقبل ، في كل مرة ، على البارقة الكاذبة ، والسراب الخادع ،
 والعزاء الملىء بالمرارة والسخرية .
 في كل مرة كانت تصيها نفس المتعة ونفس النشوة . وفي كل مرة أيضا ،
 كانت تعقبها نفس الصدمة ونفس اللوعة .
 في كل مرة كانت تندفع مع القدر الساخر إلى قمة الأمل ، وفي كل مرة كانت
 تهبط معه إلى قرارة اليأس .
 وها هي أخيرا ، تمسك في يدها بسخرية جديدة ، بارقة تلوح ، وسراب
 يلمع .

نفس الحديث الملتهب ، والجمل المليئة بالوله والصبابة والألفاظ الشاعرية
 العظيمة ، التي تفوح من خلالها رائحة اللهفة والشوق .
 عزيزتي ...

لا أشك في أنك لا تعرفين من أنا . ولا أى إنسان بين المخلوقات أكون ،
 ولا أظننى قد كتبت إليك هذا لأعرفك به ، فذلك أمر قد لا يهكم معرفته — على
 الأقل في وقتنا هذا — فأنا لا أعدو أن أكون بالنسبة إليك ، أحد آلاف المجهولين

الذين لا تحسین بهم والذين لا تربطك بهم صلة مهما وهت أو يشدك إليهم وثاق
مهما رق واضمحل .

ولكنی كتبت إليك هذا ، لأعرف من تكونین ..؟
من تكون هذه الساحرة التي أصابنی منها مس غیر كل ما بنفسی وقلبی رأسا
على عقب ..؟

أنت بغير شك لا تحسین ما فعلت لی ، بل أغلب ظنی أنك تروحين وتغدين
في الحياة ناعمة البال مطمئنة الخاطر ، كأنك لم تقلبی كيان إنسان ، ولم تلهيه
وتؤججه ، بل من یدری ؟ إننی لست أول من تفعلین به هذا ، لأن هذا هو
طبيعة عملك في الحياة ، تابشرینه ببساطة كما يياشر أى إنسان مهنته التي تعودها
عشرات السنين ، حتى بات يفعلها دون أن یدری ما يفعل .

اعذریننی إن أسهبت ، فما حيلة محروم منك ، مسلوب نعمة لقائك ، إلا أن
يلجأ إلى لقاءك على الصفحات ، يسهب فيطيل اللقاء ، ويسط قلمه فيزيد
الوصل .

هل تذكرین كيف التقيت بك أول مرة ؟ لا أظنك ! فإن الشيء الذي قد أراه
حدثا يصح أن يؤرخ به التاريخ ، قد يكون عندك تفاهة تتكرر في حياتك كل
يوم .

على أية حال ، تذكرین أم لا تذكرین ، إني أذكر جيدا ، ذلك الحدث الذي
غير مجرى حياتی .

أذكر أول لقاء لنا ، على متن الريح ، لقاء في الهواء لا وجهها لوجه ، بل صوتنا
لأذن .

لقتيك ذات ليلة والنفس حزينه والذهن شارد مكتئب وقد جلست في الشرفة
ساعرا مسهدا ، أعد — كما يقولون — نجوم الليل ، وأسمعها الشكوى وتسعمنى
الأنين .

كنت وقتذاك غودجا لإنسان بائس يائس ، يزخر كيانه بالتعاسة ، وتفويض

نفسه باليأس .

كنت أكبره الدنيا ، وأكره الناس .. كنت أتذوق طعم المرارة في كل قطرة من كأس الحياة ، وكنت أشم رائحة اليأس في كل هبة من ريحها .

كنت أتمللم لتمللم السليم الذى أرقه السهد وأسائل نفسى : لم نحيا ؟ وما الذى سنجنه من طول عناء وكد وامتناء لمركب صعب ؟ لم كل هذا ؟ وما الذى يغرينا بالصبر والاحتمال ؟

كنت أسائل نفسى ، فيعيني الرد ، حتى حملت الريح إلى في تلك الليلة الجواب ، فأحسست — بعد طول حيرة وهيام — بأنى قد استقررت بعد بحث على مقر ، واهتديت أخيرا إلى مرفأ .

في تلك الليلة جلست أرقب الكون وقد سكنت أحشاؤه وركدت ريجه ، وبدت الكواكب قد علاها الشحوب وأضناها الكلال ، وزادت وحشة الليل وبهمته من وحشة نفسى .. في وسط هذا السكون العجيب الخيم حمل إلى نسيم الليل الهادئ صوت موسيقى ناعمة هادئة ، تنبعث في أجواء الفضاء كأنها نفس من الفردوس أو نغمة من السماء ، وأحسست بالنغم الجميل ينفذ إلى نفسى في لين لظاها كأنما هي كف رطبة ندية تمسح بخنان رأس محمومة التهب لظاها واحتدم سعيها .

وكان اللحن يصل إلى أذنى خافتا كالضوء الشاحب .. والشعاع الكليل والقبس الواهن .. كان يصل إلى مترنحا متقطعا ، ذوب النسيم أوصاله ، ورقق أعطافه ، فانساب إلى النفس كأنه فتات من أصوات الملائكة ، أو كأنه عطر لنغم فياض أو مسحوق للحن طرب .. انتشرت ذراته في الهواء .. وتسلفت إلى الصدور .. واستقرت في الحنايا .. واختلطت بشغاف القلب ، فتركت النفس نشوانة كأنها حققت بمخدر أو ثملت بخمر .

ترى هل استطعت أن أبين مشاعرى .. أم أن حديثى يبدو كلاما منمقا مزر كشأ ؟. هل استطعت أن أصف جيدا وقع اللحن في نفسى .. أم أنى لم أزد في

قولى عن خيال الشعراء ؟

قد أكون ، وقد لا أكون .. فقد يفهم البعض قولى ، ولا يفهمه البعض الآخر . بل أغلب ظننى أنه لن يفهمه إلا من جلس مثلى حزينا فى جوف الليل ، وحمل إليه النسيم مثل لحنك الخافت الناعم الذائب ، فمنه ما يشبه السحر . خلاصة القول ، لقد وجدت نفسى بعد لحظات واللحن يسرى إلىَّ ويملك حواسى ويهز مشاعرى ، وكأن ما بى من حزن قد صهر ، وإذا بعينى تدمع ومقلتى تهمل وإذا بجامد الدمع فيهما قد ذاب .

واندفعت فى نوبة من البكاء حارة مغرقة . أبكى وأبكى . أنا الذى طالما استعصى علىَّ الدمع وجفت مآقى ، وظلت الأحزان تتكتل فى نفسى دون أن تجد لها مخرجاً ، حتى بت كأنى جلمود يأس وصخرة حزن .

وهكذا استطاع لحنك الهادئ فى جوف الليل أن يفتت حزنى ويذيب دمعى .. ووجدت نفسى — أنا الرجل الرشيد العاقل — أبكى كالأطفال ولا حياء .. بل لقد أحس من بكائى راحة وهدوءاً .

وانتهى اللحن .. وخفت الموسيقى .. وابتلعهما سكون الليل البهيم ، ووجدتنى أعود إلى فراشى — لأول مرة — قرير النفس هادئ البال وملء أذنى صدى النغم .. وملء جوانحى صوتك الحنون .. يهتف ناعماً خافتاً :

فى الليل لما خلى .. إلا من الباكي

كان ذلك أول لقاء بيننا .. لقاء — كما ترين — على أجنحة النسيم .. لقاء أرخ مولدى من جديد .. وبدل حياتى .. وغير مشاعرى .. لقاء كان يعتبر بالنسبة لى .. بعثاً .. وإن لم تشعري به أنت .

وكذا بدأت أنتظرك ليلة بعد ليلة .. أبدد بألحانك أحزانى .. وأضئ ظلمة نفسى .. وباتت موسيقاك فى جوف الليل .. ألزم إلى نفسى من كل ضرورات الحياة .

وبدأت أبحث عنك وأستقصي أخبارك فعلمت من خادمنى أنك تقطنين على

مقربة منا .. وأنتك منطوية على نفسك .. متباعدة عن الناس .. مبالاة إلى الوحدة .. فزادت لهفتى عليك ووجدت فيك صنوا لنفسى .
ومرت الأيام وأنا قانع منك بهمسائك الرقيقة وموسيقاك العذبة ، وبلقاء في جوف ليل خلا .. إلا من الباكي .
إني أتمنى لقاءك ، ويبدو لي أنك أرق من أن تخيبي لخلق رجاء أو تردى لإنسان مطلباً . وأؤكد لك أني لن أضايقك كثيراً .. ولن أثقل عليك من فؤادي الملائن وصدرى المفعم .
هل تسمحين بلقاء ؟ .. إني واثق أنك لن تقولي لا .

* * *

وتهاوت الرسالة بين يديها ، وهزت رأسها في يأس ، وهمست في إصرار :
— بل ، سأقول لا ، وألف لا .
كفاها مرارة وخيبة . وكفى القدر سخرية منها .
وأكثر من هذا ، ستبطل الغناء والعزف في سكون الليل ، عزاؤها الوحيد في هذه الحياة ، ستكف عنه ، ما دام هو السبب في هذه السخرية .
إنها تذكر الرسائل السابقة ، كانت تفيض رقة ووها ، من عشاق ، جذبتهم ألحان الليل ، وأوقعتهم في حبها . فأرسلوا إليها مشاعرهم المتأججة يطلبون اللقاء ، وأصابها من مشاعرهم نشوة أنستها ما بها ، وغرها الأمل البراق ؛ فاندفعت إليه . وكان اللقاء وكانت الصدمة .
لقد خيل إليها في كل مرة أن تلك المشاعر المتدفقة والحب الملتهب ، سيتجاوز عما بها من تشويه ، ذلك التشويه الذي أصاب جانب وجهها من جراء الحريق الذي أصابها في طفولتها ، وكان الأمل يدفعها في كل مرة إلى أن تلبى النداء وتذهب إلى اللقاء ، ثم تعود منه ملومة محسورة ، وهي تتخط كالطير الذبيح .
أهؤلاء هم العشاق الذين يذوبون وجدا وصباة ؟ أهؤلاء هم الذين كانوا يتلهفون على لقاءها ؟

ماذا أصابهم حتى لقوها بمثل هذا البرود والجمود وانصرفوا عنها ، كأن ألحان الليل قد تطايرت وتبددت ، أو كأنها قد أضحت نواحا وبكاء ؟
لا ، لا ، إنها لن تخدع في هذه المرة ، خير لها أن تظل في جحرها المظلم ، من أن تخرج منه لتعود إليه كافرة به ثائرة عليه .
وأمسكت الخطاب فمزقته إربا .

* * *

وأقبل الليل فجلست تعزف وسط السكون الخيم ، وانبعث اللحن حزينا شجيا ، كأنه صادر من قلبها المحطم وفؤادها اليأس المدهم .
وفجأة أحسست بحركة قرب النافذة ، وفي الظلمة الدامسة لمحت شبعا يقف .

وأصابها من رؤيته هزة ، وارتجفت من قمة رأسها إلى أصبع قدميها .
ماذا تفعل به ؟
أتصدّه وتنكره ، قبل أن يصدها وينكرها ؟
وفجأة طاف بذهنها خاطر ومض فيه كلمح البرق .
لم لا تلقاه في ظلمة الحديقة فتستعين بالظلام على سخرية القدر ، وتمتّع معه بلقاء لا مرارة فيه ولا خذلان .. ؟
وهمست به .. إنها قادمة .

وبعد برهة قصيرة ، كانت الظلمة قد لفتها في إحدى خمائل الحديقة .
كان يجلس في الظلام مطرقا برأسه ، متكئا على عصاه ، وكانت تجلس عنده متباعدة مشيخة بوجهها ، وقد أخذ قلبها يدق بشدة وعنف ، وأخذت تدعو بكل ما في نفسها من حرارة : « ليت لا يرى » .

وتحدث هو ، فخرج صوته من صدره عميقا مخلصا شجيا ، حدثها عن ألحانها وموسيقاها ، وعن مدى تأثيرها في نفسه وكيف أنها أنقذته من وهدة اليأس ، وبددت أحزانه .. ثم حدثها عن حبه لها ، وكيف أنه بات يحس أنها قد

أصبحت جزءا منه .
وأصابتها من حديثه نشوة ومتعة ، فما سمعت من قبل مناجاة عاشق مستهام ،
وما أحست أنها تحب .. إلا على صفحات الورق .
وحمدت الله ، والليل الخالك ، والظلمة المخيمة ، فقد أعانها على التستر ،
ووهبها لحظات حب كانت تتوق إليها .
ليحدث بعد ذلك ما يحدث وليكن ما يكون .. كفى أنها ستستمتع
بساعتها .

وبدأ يتحدث عن نفسه ، وقد أطرق برأسه وأخذ يعيث بعصاه في رمل
الحديقة ، وأنبأها أنه يستطيع أن يهوى لها كل ما تود من راحة وهناء ، وأنه
سيبذل لها كل ما يستطيع ، ثم تساءل في النهاية ... هل يمكن أن يعوض حبه
وإخلاصه عن العيب الذي به ؟

ورفعت حاجبها ، وتساءلت في دهش عما يقصد .
وبدا عليه اضطراب شديد ، وأخرج من جيبه منديلا يجفف به عرقا تصب
من جبينه ، ثم أنبأها بصوت خفيض مرتجف أنه ضرير .
ومضت لحظة صمت ، بدا فيها كل منهما شارد الذهن غارب البال ، ثم
أخذت تقترب منه في ثقة واطمئنان ومدت يدها فربت عليه في رفق وحنان .
وهمست بحجية :

— ليس هذا عيبا .

ورفع يدها إلى شفثيه وأحست بقطرات من الدمع تبللها .

ثم سمعته يهمس :

— أسمعني لحنى الحبيب .. لحن البعث الذى أضاء لى ظلمة عيني :

فى الليل لما خلى إلا من الباكي

وأجابت فى صوت حنون :

— إن الباكي لن يكون بعد ذلك باكيا .

آه لو شاركتنى

وهفا كل فؤاد ، وشدا كل لسان
هذه فاتنة الدنيا وحسنا الزمان
بعثت فى زوق مستلهم من كل فن
مرح المجدا ف يخال بحوراء تغنى
يا حبيبى هذه ليلة حبى
آه لو شاركتنى أفراح قلبى
على محمود طه — عبد الوهاب

عودتها فى ساعة غروب ، والشمس الدامية تهبط وراء الأفق من الناحية
المقابلة من شاطئ النيل ، ووقفت متكئة بمرفقها على حافة الشرفة مسندة ذقنها
إلى راحة كفها ، متطلعة ببصرها إلى النهر العريض ينساب فى قوة وأناة ورفق .
لم يتغير شيء ألبتة ، كل شيء ما زال على عهدا به كأنها لم تغادر المكان لحظة
واحدة ، حتى الحجرة التى كانت بها قد عادت لتجدها خالية ولتحتلها مرة
أخرى ، وتقف فى شرفتها كما تعودت أن تقف دائما . وكأن السنين الخمس
ماولت وما انقضت ؟

خمس سنين !

إنها لا تكاد تصدق ، فهى فى وقفها تلك لا تشعر أن الزمن قد تحرك قيد
شعرة . لقد كانت تقف هكذا منذ أيام أو لحظات ، ليس هناك ما يدل على أن بين
يومها وأمسها خمس سنوات طوال . اللهم إلا شيء واحد ..
إنه صوت حلو كأغريد السحر ، يهتف بها من الحديقة بين آونة

وأخرى : « ماما !

هذا الصوت يجسد لها فعل السنين الخمس ، ويقدم لها الأثر الملموس على أن بين وقتها هذه ووقتها تلك ، صنعت السنون هذه المخلوقة العزيزة المحبوبة التي تفصل بين يومها وأمسها .

ولم يكن قد مضى على عودتها أكثر من ساعة أبدلت خلالها ملابس ابنتها وتركتها تنطلق إلى الحديقة ثم جلست تفتح الحقائق وتخرج الثياب لترتبها داخل الدواليب .

وأحست بالتعب يتسرب إلى نفسها فخرجت إلى الشرفة ترقب النيل والحديقة ساعة الغروب .

وسمعت وقع أقدام تسير في الغرفة وتلفتت فوجدت « عمتها » مقبلة بوجهها البشوش الضاحك وخطواتها المتثاقلة وهي تتسائل قائلة :

— كيف الحال يا عابدة ؟.. أوجدت متساعدا لكل ملابسك ؟ إن في حجرى دولا لا أحتاج إليه ، تستطيعين استخدامه كما تشائين .

— لا أظننى سأحتاج إلى أكثر من هذا . كيف حالكم أنتم ؟ إن الحديقة تبدو مزدهرة كعهدي بها ، لا شئ قد تغير سوى التكهية التي أزيلت واستبدلت بها النافورة .

— ما رأيك فيها ؟

— آية في الجمال !

ونظرت « العمة » إلى كورم الملابس وقالت :

— دعيني أساعدك في ترتيبها .

— لا داعى لأن تتعبى نفسك . أستطيع أن أرتبها وحدى .

وبدأت المرأتان تتعاونان في إخراج الثياب ووضعها فوق الأرفف .. وعادوا

الحديث فقالت عابدة متسائلة عن ابن عمتها :

— كيف حال فريد ..؟

(أغنيات

— كالخصان .. لقد ذهب لبيتنا بضع حاجات .. ولا بد أنه في طريقه إلينا . إن شوقه إليك شديد .

— وليلى ؟

— لن تعرفها إذا ما أبصرتها .. لقد صارت شابة .

— لا بد وأن تكون ساحرة فلقد كانت دائما طفلة جميلة .

— لقد أصبحت أجمل مما كانت .. خمس سنين فعلت بها كثيرا .. إنها الآن في

السابعة عشرة ، وهى تبدو عروسا مكتملة الفتنة .

وشرد الذهن بعائدة .. فتذكرت الصبية الشقراء اللاهية العابثة .. وقد أخذت تهتز بها الأرجوحة في الحديقة .

كانت ليلي ابنة عمها .. وكانت تعيش معهم في الدار الكبيرة الكائنة في الروضة على شاطئ النيل ، والتي كانت تضم العائلة المكونة من العمة وزوجها وابنها فريد وابنتى أخويها اليتيمتين : عائدة وليلى .

كانت أياما ممتعة ما أحست عائدة باليتم أو بالمذلة فقد أغدقت عليها عمتها من العطف والمحبة ما جعلها تشعر بأنها لم تفقد أبويها .

إنها تذكر لعبها في الحديقة ونزهتها على الشاطئ فيعاودها حنين لذيذ وشوق ممتع .

ولم يطل بذهنها الشرود فقد قطعته صوت العمة مستعيدة إياه من شروده ،
منادية :

— عائدة ! ..

— نعم يا نينة .

ومضت فترة صمت ، وبدأ على العمة التردد ثم قالت بصوت متهدج :
— لست أدرى كيف أنبتك بمبلغ حزني على ما حدث ، لقد أحسست من موت محمود بصدمة أليمة ، وكنت إذا ما ذكرت وحدثك وغربتك ومبلغ فجيعتك فيه ، أفعم قلبي الحزن والأسى .. لقد كان مخلوقا طيبا كريما وزوجا

مخلصا وفيا ، وأعتقد أنه قد هيا لك حياة طيبة رضية ، ولكن القدر لا يرحم
والموت لا يميز طيبا من خبيث .

وخيم في الحجره سكون موحش ، ولم تسعف عايدة الكلمات ، فأطرت
برأسها في حزن ووجوم .

واستمرت العمه في حديثها قائلة :

— كانت الواقعة مفاجأة أليمة لنا ، ولكنى مع ذلك تلمست العزاء في عودتك
إلينا بعد طول غيبه . فلشد ما أسعدنى أن أجذك تعيشين بين ظهرائنا مرة
أخرى ، وأن تعودى إلينا أنت والطفلة الجميلة .

واحتلت الدموع مكانها من المقل وأخذت تنساب في هدوء منفسه جهدها
عن الصدور المكروبة المحزونة .

وسرعان ما تخلصت العمه من أحزانها وعادت إلى مرحها وبشاشتها ،
وحاولت أن تغير مجرى الحديث قائلة :

— اعذرينى أن نكأت قرحك ، ولكنها كلمات كان لا بد لها أن تقال .. هل
أضع ملابس نانى في هذا الدرج ؟

وأخرجت عايدة من صدرها زفرة حارة وأجابت :
— أجل .

— أظن الظلام قد خيم ، ومن الخير أن تنادى « نانى » من الحديقة حتى
تتناول طعامها وتأوى إلى فراشها ، سأعد لها الفراش .. اذهبى أنت وناديا من
الشرفة .

وخرجت عايدة إلى الشرفة وعلا صوتها مناديا :
— نانى .

— نعم يا ماما ؟

— اصعدى .. لقد حان وقت العشاء والنوم .

وبعد نصف ساعة كانت الطفلة الجميلة ترقد في فراشها ، وقد أخذ صدرها

يعلو ويهبط في هدوء وسكينة .
واغتسلت عائدة وجلست إلى المرأة لتمشط شعرها المنساب في حلكة الليل ،
وأخذت تتأمل وجهها . وهي تضع عليه طلاء خفيفا .
وهتف في نفسها هاتف يجزم في ثقة بأنها جميلة في أوج جمالها ، وقمة فنتها
وسحرها .

ولم يكن الهاتف مغررا أو خادعا ، فلقد كانت حقا آية في النضارة والحسن ،
نضارة امرأة مكتملة الأنوثة ، بالغة النضج والتفتح .
وأخذت تجمع شعرها لتعقسه وراء رأسها .. عندما سمعت خطوات خفيفة
سريعة تصعد الدرج الخشبي الموصل بين الصالة السفلى والدور الأعلى الذي تقع
فيه حجرتها .. ثم أخذت الخطوات تقترب بسرعة من حجرتها وسمعت صوتا
يهتف في فرحة بالغة :
— أبله عائدة !

وبعد لحظة اندفعت من الحجرة فتاة شقراء رائعة الحسن .
ونفضت عائدة لتتلقى الفتاة المندفعة بين أحضانها وأخذت ليلي تقبلها في
شوق وتقول في فرح صبياني :
— لم أكن أصدق أنك آتية حقا ، وأنتك ستعيشين معنا مرة ثانية ، إياك أن
تسافرى بعد ذلك أو تأخذيننى معك . أين نائى ؟
— لا ترفعى صوتك فهى نائمة !
— لقد قالت عمتى إنها رائعة !
— ليست فى مثل روعتك .. إنك سيدة البنات .
وسارت ليلي إلى فراش الصغيرة ووقفت تتأملها فى إعجاب شديد .. وقالت
عائدة :

— هيا بنا .. ألا تنوين النزول للعشاء ؟
— سألحق بك بعد دقيقة واحدة أبذل فيها ملابسى .. ستجدين فريدا فى

انتظارك .. لقد قدم في التو .
 ولم تكن في حاجة إلى من ينبئها أن فريدا قدم في التو فلقد سمعت صوته يعلو
 بأغنيته المحبوبة ، التي كان لا يفتأ يرددتها في كل حين .
 عجباً .. إنه ما زال كما هو .. حتى أغنيته لم يملها بعد ولم تطغ عليها أغنية
 أخرى .
 وتلكها إحساس غريب بالطمأنينة والثقة .. لقد كانت الأغنية أغنيته
 هي .. أو أغنيتهما معا .
 إنه لم ينسها .. لم ينس كليهما .. لا هي ولا الأغنية .
 وأخذت تهبط الدرج وهي تنصت إلى الأنغام الخافتة المنبعثة من أسفل .
 ووصل إليها صوته يدندن قائلاً :
 وهما كل فؤاد ، وشدا كل لسان هذه فاتنة الدنيا وحسناء الزمان
 وهبطت إلى الصالة وهي تحاول جهدها أن تتمالك نفسها وأخيراً وقفت أمامه
 وجها لوجه .
 وران الصمت ، وسكت هو عن الغناء برهة وأخذ يحملق فيها بإعجاب ،
 وضحكت هي وقالت :
 — هكذا .. لا ترحيب .. ولا سلام ولا كلام ؟
 ولم يبد عليه كأنه قد سمع قولها ، وأخذ يردد أغنيته هامساً :
 — هذه فاتنة الدنيا وحسناء الزمان !
 — أما زلت حسناء الزمان ؟
 — هذا الزمان وكل زمان .
 ثم أمسك بيدها وأخذ يهزها مرحباً وهو يقول :
 — أهلاً وسهلاً .. كيف حالك يا عايدة ؟
 — كما ترى .
 — مشرقة منيرة ، منذ أن أقبلت على البيت وأنا أتساءل : ماذا أثار الحى ؟

وأحست بالسعادة تغمرها .. إن السنين الخمس لم تغير منه شيئا .. إنه ككل شيء باق على عهده .. ما تغير ولا تبدل .

وجلس الاثنان على إحدى الأرائك ، وكان لديهما الشيء الكثير مما يقال بعد فرقة خمس سنين ، ومع ذلك فقد ران عليهما صمت أحست هي منه بكثير من راحة ومتعة .

وبعد هنية علا صوت العمة تصيح من حجرة الطعام :
— العشاء جاهز .

ونفض الاثنان متجهين إلى حجرة الطعام وجلسا متجاورين قبالة العمة التي قالت ضاحكة مرحبة :

— لا جديدا عايدة .. كل شيء كما تركته .. لقد صنعت لك « المسقعة » التي تبينها .. ولكن أين ليلي ؟
وأردفت منادية :

— ليلي .

واندفعت ليلي إلى الحجرة ضاحكة وهي تيجب :

— آسفة يا نينة .. كنت أغسل وجهي .

واتجهت بحركة لا إرادية إلى الناحية التي يجلس فيها فريد وعايدة فقالت العمة :

— تعالى بجانبى يا ليلي .. لقد احتلت عايدة مقعدك .

وكانت عايدة ترقب الفتاة الشقراء وقد وقفت في مكانها وهمت بتغيير اتجاهها لتجلس بجوار العمة ، ولحمت تردد الفتاة والابتسامة العذبة التي رمت بها فريد قبل أن تستقر في مقعدها المواجه لها ..

وأحست عايدة مما حدث في اللحظة الخاطفة بناقوس خطر يدق وبأن شيئا جديدا لم يكن يخطر لها ببال .. قد حدث .

إن ما أبصرته كان من السرعة والبساطة ، بحيث لا تستطيع تمييزه إلا عين

خبير .. خبير بأحوال الهوى وأعراض الحب .
 وفي اللحظة التالية حدث ما جعل وساوسها تصبح يقينا لا يداخله شك ..
 لقد قفزت ليلي من مقعدها وانطلقت إلى الصالة ، وبعد لحظة عادت ومعها
 جاكته فريد ، ووضعتها فوق كتفيه وقالت مؤنية :
 — قلت لك مائة مرة لا تخلع الجاكته وتجلس هكذا في الهواء وأنت عرقان .
 وضحك فريد وقال لعائدة :
 — إن البنية الصغيرة أصبحت أما رءوما ..!
 « بل أضحت ولهانة عاشقة » .
 هكذا هتفت عائدة في نفسها وهي تقول ضاحكة :
 — إنها على حق .. ما دمت لا تزال طفلا صغيرا .
 من كان يصدق هذا ؟
 أبعد هذه السنين الخمس من البعد والفرقة .. تعود لتجد الطفلة الصغيرة قد
 أصبحت منافسا خطيرا لها .
 ولكن لا .. إنها قد تكون منافسا .. ولكنها لا تظن بها أية خطورة .. شيء
 بسيط من المقارنة يملأ نفسها ثقة وطمأنينة .. إن من الغباء أن تحس من الفتاة بأى
 خوف !
 إن حبها له هو الأصل الثابت وما عداه عارض زائل .. إن لها رصيда من
 ذكريات الماضي يجعلها تهزم به أى خصم جديد .. إنها أسبق إلى حبه .. وهى
 امرأة مكتملة الأنوثة تامة النضج ، تملك فى جانبها التجربة والمعرفة .. ومن
 الحق أن تخشى الهزيمة من طفلة غريرة .
 لقد أحبه دائما فى الطفولة ، والصبا ، والشباب ، لقد نشأت فى هذه الدار
 على حبه .. إنها تذكر السنين الخوالى ، وهما يعدوان فى الحديقة معا .. ويأكلان
 ويشربان معا .. وتذكر بدء إحساسها بجديده حبه .. ولهفتها على مصارحته به ..
 وإلى أن تسمع من شفتيه أنه يحبها وتنصت إلى عذب المناجاة وحلو الهمس .

إنها تذكر نفسها الهائمة ، وقلها الذائب ، وساعات السهد الطويلة التي كانت ترنو خلالها إلى السماء وتناجى النجوم ، كانت لا تنام إلا على صوته الهادئ العذب يردد في سكون الليل لحنها المحبب وأغنيتها العريزة .

كانت تغمض عينيها في كل ليلة على هتافه الحنون :

« يا حبيبي هذه ليلة حبسى آه لو شاركتنى أفراح قلبى ! »
الليلة وكل ليلة .. كانت ليلة حبهما ؛ كانا يتشاركان أفراح القلب من بعيد ، فإذا ما التقيا وتقاربا ، انكششت القلوب وتعثرت الألسن .
وأخيرا عزمتم على أن تضع لتلك الحالة حدا ، وأن تزيل ذلك الحاجز الثقيل من التقاليد الذى يحجب بينهما .

إن الأمر أبسط كثيرا مما تتصور ، فما كان عليها إلا أن تسأله الخروج وإياها إلى الحديقة ذات ليلة والقمر يتبوأ أريكة السماء ويغمر الكائنات بنوره الرطيب ، ثم تجلس وإياه تحت التكمية .. والنسيم يسرى هادئا بين يديها ، وتقول له بمنتهى البساطة : « إني أحبك » .

يا لها من حمقاء .. لم تحاول أن تفكر في هذا من قبل ! أم ترى إلزاما عليه أن يكون البادئ بالتصريح ؟

وحلت الليلة الموعودة .. وجلست بجواره تحت التكمية وهمست قائلة :
— أريد أن أقول لك شيئا !

— وأنا أريد أن أقول لك شيئا !

وخفق قلبها بشدة إنه لا شك سيقول « إني أحبك » لتدعه يقول هو أولا ، فلشدها يسعد ما أن يكون هو البادئ ، وأجابته هامسة :
— قل أنت أولا .

— إني سأسافر إلى إنجلترا قريبا .

وأذهلها قوله وهتفت قائلة :

— أنت ستسافر ؟ ولم ؟

— للدراسة .

وهمت بأن تقول : « ظننتك ستقول إنك تحبني ! ولكن الكلمات لم تستطع أن تغادر شفثتها ولم تجسر إلا أن تقول في يأس :

— ولكن ما الداعي لها ؟

— لقد عرضوا البعثة عليّ وبدأوا لي أنها فرصة يجب ألا أتركها .. فقبلت . إنها بعثة للتخصص . ولا شك أنها ستفتح أمامي مستقبلا باهرا .

ولم تستطع أن تنصت إلى التفاصيل التي أخذ يدلي بها إليها عن البعثة والسفر .. ومواد الدراسة ، فقد أحست بخذلان شديد ، وبدأ لها أنها كانت واهمة في حبه لها وأنها كانت تمنى نفسها بأمنية ضائعة .

وأخيرا عندما انتهى من حديثه سأها :

— والآآن جاء دورك .. ماذا كنت تودين أن تقولى لي ؟

وعاودتها كبرياؤها . وأجابت في رزانة بأول كذبة طافت بذهنها :

— لقد صنعت لك « بلوفر » جديدا .. لا شك أنه سينفعك كثيرا في

السفر !

وغادرا التكمية .. ولم تمض بضعة أيام على لقائهما حتى سافر .

وبعد بضعة أشهر تقدم محمود لخطبتها ، وكان مخلوقا مهذبا رقيقا ، جميل التقاطيع ، حلو البسمات ، يمت لها بصلة قرابة بعيدة ، وقدم لها الحب والوفاء

والمركز المحترم .

ورأت « العمة » فيه زوجا خليقا بها ، دون أن تبدى أى تردد أو تمنع فحبذ

الزواج منه ، وبين يوم وليلة تمت الخطبة والعقد والزفاف .

وكان محمود موظفا في السلك السياسى ، فلم يكذب يمضى شهر على الزواج

حتى تقرر نقله إلى الخارج .. وكان عليها أن ترحل معه ، وفي يوم الرحيل أعطت

« العمة » رسالة وصلت من فريد .

وفضبت الرسالة ، فوجدت بها الشيء الذى طالما تمتته وانتظرته ولكنه كا

متأخرا ، لقد أفصح عن حبه أخيرا ، وكتب ما لم يجسر على قوله وسألها أن تنتظر عودته حتى يتزوجها .

وبكت ليلتها طويلا ، وأرقها السهد المضى ، ولكنها لم تستطع أن تفعل أكثر من البكاء ، وفي الصباح رحلت مع زوجها .

ومضت خمس سنوات وهى تنتقل وإياه من بلد إلى بلد آخر .

خمس سنوات طوال ، كانت كافية لحدوث الشيء الكثير ، كافية لولادة نانى وموت أبيها ، ثم وجدت نفسها تعود فى خاتمة المطاف لتستقر فى بيت عمها مرة ثانية ، ولتجد كل شيء على ما كان عليه عدا شيئا واحدا ، هى لىلى .

ولم تكن تتخيل أن حبا لفريد سيعاودها بمثل هذه السرعة وهذا العنف . فرغم أن ذكره ما فتئت تطوف برأسها أينما ذهبت إلا أنها ظنت أنه لم يعد فى نفسها أكثر من ذكرى . ولم تتوقع قط أن قربه سينكأ جرحها ويملأها بذلك الحنين والشوق إلى الحب القديم . وأنها ستغمر بالسعادة التى تنشدها . عندما تسمع الأغنية العذبة .. أغنيها هى . وتشعر أنه ما زال يحبها . ولا كانت تظن أنها ستحس بالغيرة من لىلى الصغيرة ، عندما تدرك أنها هى الأخرى تحبه .

وغادرت المائدة وبنفسها خليط عجيب من المشاعر : الحب ، والقلق ، والخوف ، والرغبة فى النضال .. النضال مع الفتاة الصغيرة التى تتوقع الخطر من جانبها .

وأخيرا استقر جسدها فى الفراش وأغمضت عينها وقد صممت على أن تفوز به هذه المرة وألا تدع فرصتها الأخيرة تفلت من يديها .

وفى الصباح فتحت عينها على قبلة من لىلى .. وعلى صوت الفتاة تهتف بها فى شوق وفرحة :

— إني لا أكاد أصدق أنك قد عدت حقا .. لقد كنا دائما نتحدث عنك أنا وعمتى وفريد ، وكنت لا أتمنى شيئا قدر أن أراك ثانية . لا أظنك تتصورين كم كنت أحبك وأعجب بك . لقد كنت دائما مثلى الأعلى .. ونموذجى الذى

أتشبث به . كنت أطلع إليك كأنك شيء لم يخلق الله أمثاله . إني أذكرك ليلة زفافك وأذكر ثوبك (البمبة) الطويل ، وقوامك المشوق .. ومظهرك الرائع وحديثك الجذاب .. كأنك إحدى الملكات .. كم كنت أتوق إلى أن أصبح مثلك ؟

وبدد صوت الفتاة المليء بالتقديس ما أحست به من بواذر البغض والكراهية ، وأدهشها أن تكن لها مثل هذه المشاعر .. وأدهشها أكثر من ذلك قولها بصوت خافت ولهجة حنون :

— كنت أراك وفريد غموذجالزوجين .. وشدا ما أدهشني أن يسافرويتترك تنزوجين غيره .. لقد كان يبدو لي أنكما تحبان بعضكما حبا يفوق كل حب ، بل أستطيع أن أجزم أنه ما زال يحبك حتى الآن .. وأنت . أما زلت تحبينه ؟ وضحكت عابدة وأحست بكثير من الارتباك من أحاديث الفتاة الصريحة الجريفة وضممتها إلى صدرها قائلة بصوت خافت :

— أجل .. ما زلت أحبه .

ثم ترددت برهة قبل أن تقول متسائلة :

— وأنت ؟

— أنا ؟ أحبه فقط ؟ إني أعبدته ! ألا تريه يستحق العبادة ؟ لو أنى كنت مكانك لما تركته يتسرب من يدي .

وصممت الفتاة فترة ثم أردفت قائلة بحماسة :

— إنكما تستطيعان الزواج الآن .. ولا شك أن ذلك يضع خاتمة سعيدة لقصتكما .. إني أحب الخاتمة السعيدة .. ولو أن الحياة لا تمنحنا إياها دائما . وقطع عليهما الحديث صوت فريد ينادى من الخجرة الأخرى المجاورة :

— ليلي .. أيتها الكسولة .. لم تحضري الشاي ؟

— سأحضره حالا .. كنت أصبغ على عابدة .

وجلس الجميع يتناولون طعام الإفطار .. فريد بجوار عابدة ، ونانى تجلس على حجر ليلي بجوار العمة .. وفي خلال الطعام قال فريد ليلي :

— لقد ابتعت تذكرتين للسينما فى حفلة صباح اليوم لأنى لم أكن أتوقع أن تعود عايدة .. ألا تظنين من الأفضل أن أرجعهما ؟

— ولم لا تذهب أنت وعائدة ، إنى سأمكث هنا مع نانى .
وقالت عائدة :

— لا .. لا .. يجب أن تذهبا ، إنى أريد أن أتم ترتيب الحجرة .. وسأمكث أنا مع نانى .

ولم يعترض فريد .. ولم يقل شيئا أكثر من :
— إذن البسى سريعا يا لىلى .

وبدا لعائدة أنه سعيد بذهابه مع الفتاة الصغيرة .. فإنه لم يلح عليها فى الذهاب ، وقبل اعتذارها بمنتهى السهولة .. وأحست أنها بدأت تتلقى أول طعنات الهزيمة .. وأحست أن فريدا .. إذا لم يكن يحب لىلى الآن .. فهو لا شك موشك أن يتردى فى حبها ، وأنه يتأرجح الآن بين هوى غابر وحب جديد .. وأنه لا بد لها من خوض معركة حامية الوطيس حتى تستعيده إليها .
وبعد الظهر عاد الاثنان من السينما وقد بدت عليهما علامات السعادة والغبطة .

وأضنت لىلى بقية اليوم فى اللعب مع نانى . وفى عمل مراكب من الورق تلقى بها فى النافورة .

ولم تغادر عائدة الفراش .. فقد أحست بأفكارها تصطبخب فى ذهنها وتثقل رأسها .

وعندما سقط الظلام صعدت نانى إلى حجرتها وألقت بنفسها فى أحضان أمها قائلة ببراءة الأطفال :

— ماما .. إنى أحب لىلى ، ألا تحبينها ؟

— بالطبع أحبها إنها فتاة حلوة وطيبة .. إنها أشبه بالأميرة التى خطفها السلطان .. ألا تذكرين حكايتها ؟
— أجل أذكر .

- ولكنى لا أريد أن تموت ليلي .
- من قال لك إنها ستموت ؟ إنها ستحيا عمرا طويلا .
- وهل ستكون نهايتها سعيدة ؟ هل ستزوج وتعيش في التيات والنبات وتنجب صبيانا وبنات ؟
- وضحكت الأم ثم أجابت :
- بالطبع يا ناني كل فتاة ستكون خاتمتها كذلك .
- أنت واثقة .. أحقا ستكون ليلي نهاية سعيدة ؟
- وتذكرت عايدة ما قالته ليلي « إلى أحب النهاية السعيدة ولكن الحياة لا تمنحنا إياها دائما » وسألت ابتها في دهشة :
- أقلت لك ليلي شيئا عن النهاية السعيدة ؟
- لا يا ماما .. ولكنى أتمنى لها ذلك ، فهي فتاة جميلة .
- وبعد العشاء .. وغقب أن أرقدت عايدة طفلتها في فراشها تركتها وذهبت إلى حجرة ليلي فوجدتها جالسة تقرأ في إحدى القصص .. فخطفتها من يدها قائلة :
- أريد أن أقول لك شيئا يا ليلي وسأقوله باختصار : هل تحبين فريدا ؟
- ودهشت الفتاة لهذا السؤال المفاجئ ولكنها أجابت بصراحة :
- أحبه جدا .. منذ أن وعيت على الحياة وأنا أحبه بل أتفاني في حبه .
- وأنا أيضا كذلك يا ليلي .. أتقبلين نصيحة مجربة ؟
- أجل .
- اذهبي إليه الآن وخذي به إلى الحديقة وقولي له « إلى أحبك » .
- أتقولين حقا ؟
- أجل ! لا ترددى ، ولا تعيقك كبرياء ولا خجل فقد أضاع ترددى ثانية عمرى سدى .
- ولكنك قلت إنك ما زلت تحبينه !
- أجل ! ولكنك أحق به ، إن من الحق أن يعاند الإنسان القدر ، ومن

الجنون أن يسير الإنسان في طريقه خمس سنوات ثم يعود القهقري بمتنهي الهدوء والبساطة ليلتقط متعة فقدتها .. ثم يعاود سيره مرة ثانية .. هيا يا ليلي ولا تترددى .

ثم هبطت عائدة إلى حيث يوجد فريد ، فإذا به يوشك أن يخرج إلى الحديقة فسألها :

— ألا تريدن الخروج إلى الحديقة يا عايدة ؟

— لا .. إني متعبة قليلا .. أريد أن أحدثك حديثا قصيرا .

— نعم ؟

— عن علاقتنا القديمة ، إني أشعر أننا قد أصبحنا كأخ وأخت ، ويبدو لي أن حبنا القديم قد عفت آثاره (وكانت تشعر بمدى ما في قولها من كذب) . إن أمامك ليلي ، تستطيع أن تجد فيها خير زوجة ، إنها ستلحق بك في الحديقة لتقول لك شيئا .

وبعد برهة كانت تجلس في حجرتها وقد لفتها الظلمة .. ونهضت إلى النافذة لتغلقها فأبصرت في الحديقة تحت ضوء القمر شبحان يجلسان على حافة النافورة وقد تشابكت منهما الأيدي والتقت الشفاه .

ووسط السكون بلغ مسامعها لحن سرى مع النسيم :

« يا حبيبي هذه ليلة حبي ، آه لو شاركتني أفراح قلبي ! » .

وترقرقت في عينها دمعة انسابت على صفحة وجهها .

وأغلقت النافذة وتلمست طريقها إلى الفراش في الظلمة الدامسة .

ووصل إلى أذنيها صوت أنفاس هادئة تتردد في سكون الغرفة وأرجائها .

كانت أنفاس انتهت ناني .

وكانت لها خير عزاء .

وعادها الشوق

سلوا كوس الطلا هل لامست فاها
واستخروا الراح هل مست ثناياها
ما ضر لو جعلت كأنى مرافها
ولو سقتى بصاف من حياها
ألقت إلى الليل جيدا نافرا ورمت
إليه أذنا وحات فيه عيناها
وعادها الشوق للأحباب فانبعثت
تبكى وتهف أحيانا بشكواها
يا جارة الأيك أيام الهوى ذهبت
كالعلم ، آها لأيام الهوى آها
(شوق — أم كلثوم)

صفه لى .. صفه .. كيف يبدو ، وكيف يتلفت ؟ .. وكيف يعبس ،
وكيف ييتسم ؟
إنه لا يعبس ولا ييتسم ، إنه يجلس مواجهها المسرح فى صمت وسكون .
— كيف ؟ . لى لم أتعوّد منه صمتا ولا سكونا .. إنه دائم المرح ، دائم
الضحك ، كيف يستقر فى هدوء وسكينة ؟
— وماذا تريد أن يفعل رجل فى مثل سنه ووقاره ومركزه ؟ .. أنسى أنه
موجود هنا بصفته الرسمية ، وأنه أكبر من فى هذا الحفل ؟
— ولكن كيف يبدو ؟ وكيف يجلس ؟ ألا تستطيع أن تصفه لى ؟ صفه لى

كما تراه .

إنه يجلس في حلتة الرسمية الفخمة ، في وقار واتزان ، تحيط به كل مظاهر الأبهة والوجاهة والأناقة .

— أجل .. أجل .. لقد كان دائما مثالا للوجاهة والأناقة .. ووجهه ؟ كيف تراه ؟ أما زال بخده الأيسر أثر ذلك الجرح الذي أصابه عندما كبا به جواده ؟

— ماذا تقولين ؟ .. كيف أستطيع أن أميز الندب من هذا البعد ؟ إلى لا أكاد أبصر إلا جانب وجهه ، على أية حال ، اطمئني . فلا شك أن أثر الجرح ما زال موجودا .. ما دمت واثقة من أنه كان موجودا !

— وعينه ؟ كيف تبدوان ؟ .. ترى هل أحاطت بهما التجاعيد ؟

— بالطبع .. إلى لا أستطيع رؤيتهما من مكاني ولكن لا شك أن التجاعيد قد سرت ، لا حول عينيه فقط ، بل في كل وجهه .. إنه لا شك قد جاوز الخمسين !

— في العاشر من يونيو يصبح عمره بالضبط أربعة وخمسين عاما ، ولكن السن لا دخل لها بالتجاعيد ، أقصد التجاعيد التي حول عينيه ، لقد كانت موجودة دائما وهو ما زال في أوج صباه .. كانت لذيدة .. وكل شيء فيه كان لذيدا . ما بالك لا تصفه لي ؟ صفه لي أرجوك .. صف كل شيء فيه .

— صه .. صه . إن الستار يوشك أن يرفع ، لقد أطفعت الأنوار .. أظن هذا يقننك بأن وصفه قد استحال عليّ ، فما عدت أراه من قريب أو بعيد .

— ولكن أنا أستطيع رؤيته .. في كل وقت ، وفي كل آونة ، من قريب أو بعيد ، في الضياء ، وفي الظلمة ، في السبات ، وفي اليقظة ، إذا كان وصفه قد استحال عليك ، فإنه لا يستحيل عليّ .. دعني أصفه لك أنا .

— صه . كفى عن هذا الهمس . إن الغناء يوشك أن يبدأ .

— إلى أستطيع أن أراه وقد جلس جلسته الممتدة الرزينة الوقور ، وأستطيع أن

أجزم بأن وقاره ورزاقته ليسا سوى مظهر أجبر نفسه على الظهور به تشيا مع الوضع الذى هو فيه ، وحفظا لهية المركز الذى يشغله ، ومجارة للناس فى تفكيرهم .. أما باطنه فهو لا شك يصخب بالضحك والمرح ويود لو انطلق من قيود جلسته الوقور ليمزج ويتررب .. إلى أعرفه جيدا .. فهو يكره التزمّت ويغض الجد .. كان يقول لى إنه كثيرا ما يضطر إلى أن يصرخ فى جنوده ، ويعبس فى وجوههم وهو فى نفسه أميل إلى الضحك والتبرجج .. إنه لا يجد إلا متصنعا ، وكم ود لو لم يجد أصلا ولكنه يعلم أن الأمور لا تستقيم إلا بادعاء الجد ، وأن الحياة تحتاج إلى بعض الجد ، فى بعض الأحيان .

— أرجوك .. كفى همسا .. إن أصحاب البنوار المجاور لنا يتلفتون إلينا .
— أستطيع أن أراه فى جلسته ، مستقيم الجسد ، بارز الصدر ، مرفوع الرأس .. إلى أجزم بأنه لم يترهل ولم ينتفخ .
— أجل .. إنك على حق .. ما زال جسده مشدودا وهامته مرفوعة ، كأنه ابن الثلاثين .

— أعرف ذلك ، لقد كان لا يخشى إلا الكرش والسمنة وكان دائم الحرص على ممارسة الرياضة ، مضربا عن العشاء ، وكان يفخر دائما بأنه ضابط فرسان وأن الفرسان لا يترهل لهم جسد ولا يبرز لهم كرش .. انظر إليه ، أتراه ما زال بالطربوش أم خلعه ؟

— إنه يخلعه الآن ، لقد وضعه على مقعد بجانبه .
— كنت واثقة من هذا .. لم يكن يكره شيئا كما يكره الطربوش ، وكان لا يرى فيه أية وجهة أو أى مظهر للوقار أو الوطنية ، ولكنه مع ذلك كان يضطر إلى ارتدائه فى الرسميات ، وفى الحفلات والمآتم .. كيف ترى شعره ؟ أما زال على لونه أم ترى الشيب قد وخطه ؟ كأنى به مكلا بالبياض ، لكنه يياض محجب لذيد ، فيه جلال وجمال .. وأنى لواثقة بأنه لم يصب بصلع .. شعرة واحدة لم تغادر رأسه .

(أغنيات)

— تماما .. تماما .. كأني بك ترينه رأى العين .
 — بل رأى الذهن والقلب ، والروح ، إلى أبصر أنفه الأشم المرفوع ..
 وأبصر فمه الضاحك :- . وأبصر شفثيه الرقيقتين ، الدائمتى الانفراج عن أسنانه
 البيضاء .

— إنه لم يعد يضحك .
 — لو خلوت به لأمعن في الضحك ، وعاد إلى طبيعته المرحه .
 — ولو ضحك فما أظن شفثيه تنفرجان إلا عن طقم سليم منتظم .
 — كلا إنه ليس هكذا ، إلى أعرف أسنانه ، سنا سنا ، لم تكن في فمه سن
 واحدة ليست سليمة أو جميلة .. صحيح أن أحد أضراسه آلمه حيناً ، لكنه
 سارع إلى علاجه وحشاه ، لا .. لا .. لن تسقط من فمه سن واحدة .
 — هل تحبين أن نذهب إلى مقصورته للتمتع بمشاهدة أسنانه ؟ هيا بنا هيا ،
 أؤكد لك أن سماع أم كلثوم لا يطربني أكثر من مشاهدة أسنانه .
 — كفى سخرية ! أنت الذى اضطررتنى إلى وصف أسنانه ، لقد اهتمته بأنه
 يضع في فمه أسنانا صناعية . ألم تقل أنت ذلك ؟
 — آسف جدا .. إن أسنانه من اللؤلؤ المنشور .. أيرضيك ذلك ؟
 — أنت سخيف ، لن أحدثك بعد ذلك .
 — تحسنين صنعا ، فقد همت أم كلثوم بالوقوف للغناء . أظنك أنت أيضا

تفضلين السماع ؟
 ودوّت الأكف بالتصفيق ، وغطى الضجيج على ما عداه من همسات
 وأحاديث .. ووقفت أم كلثوم تعبت بمنديلها بين أصابعها ، وتبتسم منحنية
 للجُمهور ، وردا لتحيته العاضفة .

وبدأت الوصلة الأولى .. وعلا صوت أم كلثوم وهى تنشّد قصيدة
 « نهج البردة » ، وصمت كلانا ، وليس كصوت أم كلثوم ، وسيلة لإرهاق
 السمع ، وتركيز الحس والمشاعر .. وبخاصة فى هذه الأغنية على الأقل بالنسبة لى .

و كنت أتلفت إلى جارتى خلال الوصلة بين آونة وأخرى فى الفترات التى كان يفلت فيها زمام حناجر المستمعين فتنتطق بالهتاف .. كنت أتلفت إليها محاولاً أن أستشف ما وراء زجاج منظارها الأسود الذى أخفى عينيها الخائيتين ، ولكنى لم أكن أتبين السكينة والهدوء .. ولم أشك فى أنها تستمتع بالغناء .. فقد كانت قبل كل شىء فنانة مرهقة الحس رقيقة المشاعر ، ولكنى لم أشك أيضاً أن استمتعها بالغناء كان لا يكاد يقاس باستمتعها بشىء آخر .. الشىء الذى أجبرها على أن تتجشم مشقة المجئ إلى مكان الغناء .. غير مكثف بالاستماع إليه مذاً بالراديو .. وعلى أن تجشمنى مشقة اصطحابها .. وهى الحساسة التى تدرك جيداً مدى عبء اصطحاب ضريبة إلى حفل كهذا .

كنت واثقاً أن الشىء الذى كان يشملها أكثر من الغناء هو إحساسها بأن صاحبنا الكبير يجلس هناك !

ليشعر بوجودها أو لا يشعر .. وليعرفها أو يجهلها .. فليس يهمها شىء من ذلك كله قيد أملة .. يكفيتها أن تحس وجوده وأنها تتنفس من هواء المسرح الذى يتنفس فيه !

مجنونة !؟ إى والله مجنونة ما فى ذلك شك ؟ مجنونة عاشقة . وللناس فيما يعيشون مذاهب . وعلى قدر الهوى اختلف الجنون !

إن ذلك الرجل الكبير — رغم أنه ما زال محتفظاً بالكثير من رونق الشباب ونضارة الصبا — لم يعد بعد ذلك المعشوق الذى يوله من أجله قلب ، أو يسلب فى حبه لب ، ويطيش عقل .. اللهم إلا إذا كانت صاحبتنا تعشقه باعتبار ما كان .. وما زالت — لأمر ما — متعلقة بكل ما كان !

ولكن من كانت هى ؟ وكيف عرفتها ؟

عرفتها معرفة صداقة .. منذ عهد غير بعيد ، وإن كنت أعرفها معرفة سماع منذ طفولتى ، فقد كانت وقتذاك امرأة معروفة وغاية شهيرة يعرفها كل العظماء والدهناء .

ووجدت فيها امرأة مكفوفة البصر قد شارفت خريف العمر ، وأدهشني عدم إصهارها ، فما كانت لدى أقل فكرة عنه .. وأحسست بالثناء لها والعطف عليها ، وبخاصة لما وجدت من حلو حديثها ورقة مشاعرها .. وبدأت أكرر زيارتها في بيتها ، وتوثقت عرى الصداقة بيننا بعد أن بدأت أتلقى منها دروسا في العزف على العود ، الشيء الذي طالما كنت أتوق إليه ، والذي استطاعت هي أن تحققه لي بغير ما جهد ولا مشقة .

وهكذا زادت الأيام من صداقتنا معا ، ولم أكن أجِد فيها أى عيب ، فقد كانت امرأة عفيفة كريمة ، واسعة الأفق سليمة التفكير ، لا يمكن أن توجد فيها هنة أو يؤخذ عليها مأخذ .. اللهم إلا ذلك الشيء الذى بدأ يتكشف لي على مرّ الأيام وعلى ازدياد الصلة وتوثق العلاقة .

كان أول ما لاحظته هو احتفاظها بعدد لا يستهان به من صور ذاك الكبير ، وقد استطعت أن أستبين من ذلك أن صاحبنا كان في صباه على علاقة بها عندما كانت في زهرة شبابها .

وأنا أعرف أن في طبيعة ذلك النوع من النساء ، إذا ما كانت هن علاقة سابقة بكبير من الكبراء.. أن يحاولن إبراز تلك العلاقة ويأبين اعتبارها شيئا انتهى ، فهى عندهن أثر دائم خالد ، يرفع من كبريائهن ، ويبعث فيهن الفخر .. بغرام قديم ، بل بعز تالد ومجد بائد .

وفي ذات ليلة هادئة شاعرية ، علمت منها أنها كانت وإياه — فى زمن ما — عاشقين مخلصين ، وأنه كان بينهما هوى آخر من هوى المجنون ولىلى .. وأن الأمر كاد ينتهى بهما إلى الزواج ، لولا أن حدث حادث مَرَق ما بينهما ، وأبعد كلانهما عن صاحبه .

كان هذا كل ما علمته منها عن علاقتها به ، حتى كانت هذه الليلة التى عرفت فيها أن الرجل سيذهب بصفته الرسمية لحضور الحفلة الخيرية التى تغنى فيها أم كلثوم .

— ١٠١ —

وسألتني أن أصطحبها إلى هناك ، فدهشت إذ كانت المرة الأولى التي تسألني أن أخرج وإياها .. وأحسست بأنها ستحملني عبئا ثقيلا ، وقلت لها محاولا التخلص :

— ولكن الحفلة ستذاع .. فلم لا تسمعيني في الراديو وأنت مستريحة ؟ إني على استعداد لأن أقضى السهرة معك نستمع إليها سويا !
— أريد الذهاب ، وقد سألتهم أن يحجزوا لي بنوارا فإذا لم ترد اصطحابي فسأذهب وحدي !

وتبينت مبلغ ما في قولها من إصرار على الذهاب وتأنيب لي على الرفض ، فلم أجد بدا من الموافقة !
وانتهت الوصلة الأولى ، وأفاقت صاحبتنا من نشوتها على صوت الضجيج والهتاف ، ورأيت الرجل الكبير يتحرك في مقعده كأنما بهم بالقيام ، ثم أخذ في الانصراف .

ونظرت إليها وقلت :
— يبدو أنه لن يحضر سوى الوصلة الأولى .
— لم ؟

— لقد نهض من مقعده وغادر البنوار .
— ربما كان ذاهبا إلى المقصف .
— لا أظن هذا ، فإني أراه يتجه إلى الباب الخارجى وحوله رهط من الحاشية .

وبدا على وجهها الأمتعاض والضيق ، وصدق ظني في أن استمتعها بالإحساس بوجوده كان أصل نشوتها . فقد وجدتها تطلق من صدرها تنهيدة حارة ثم حركت قدميها في قلق وتساءلت :
— ألا تود النهوض ؟
— له !

— إلى أحس ببعض التعب ، وأفضل العودة إلى الدار ، أرجو منك أن تعود بنا .

ولم أجد بدا من العودة .. وإن لم أستطع أن أمنع نفسي من حنق شديد . هذه الأمور الصبيانية قد تكون محتملة عندما تحدث من العشاق الصغار ذوى الأحلام الطائشة والقلوب الرقيقة المrehفة ، ولكن عندما تحدث من مثل صاحبتنا . فإنها تكون مبعث حنق وموضع سخرية .

ما هذا الطيش الذى تفعله المرأة .. وهى فى خريف عمرها ؟ ومن أجل من ؟ من أجل رجل كبير وقور لا يكاد يحس لها وجودا ! لا .. لا .. هذا كثيرا ! إن الحب فى مثل هذه السن .. ويمثل هذه الطريقة .. يصبح أمرا مجوجا مستقلا .

ولكنى مع ذلك كنت أقدر المرأة وأحترمها وأحبها فسرعان ما تبدد حنقى عليها ، وسرعان ما تلمست لها الأعذار وقلت لنفسى إن لكل إنسان سخافته ، فلاعتبر هذه المسألة سخافتها ، ولأغفر لها .. ولا سيما أنها إذا ما استبعدت منها تلك السخافة ، تصبح نموذجا لامرأة عاقلة ، رزينة ، كريمة ، عفة .

وعدت معها واصططحبتها فى ظلمة الليل إلى دارها .. وهناك سألتنى البقاء لكى أتناول العشاء وأستمع إلى الوصلة الثانية .. فوافقت .

وأحضر الخادم بعض العشاء الخفيف ، ثم خلفنا وحدثنا وجلست وإياها على إحدى الأرائك نزرد الطعام ونستمع إلى الراديو ، وعلا صوت أم كلثوم فى الوصلة الثانية يردد « سلوا كتوس الطلا هل لامست فاها » .

وبدأ الغناء فاترا ، وبدا لى من المرأة وإطراقها وصمتها أن بها كثيرا من حزن تود لو تلفظه من صدرها .. لتخفف من عبئه على كاهلها .

ومددت يدى إلى الجهاز فأدرت مفتاحه نخفضا بصوته حتى أضحى يكاد لا يسمع .

وسألتها فى صوت خفيض :

— ما بك ؟

— لا شيء .

— بل بك شيء !

— ليس أكثر من شوق عائد .. اغفر لي ما حدث ، واعتبره سخافة عجز .

— لا تقول هذا .. إن القلوب لا تشيخ ولا تهزم .. وكلنا عرضة لما بك !

— لا أظن .. إن بي بعض الشذوذ .. كان يجب أن أنسى وأن أعقل ..

والأعواد فأحرك الشجن الكامن ، واللوعة الهاجعة .. كان يجب ألا أتعلق

بسراب ، وأتشبث بحلم ضائع .. كان يجب أن أترك ما ذهب يذهب ولكنى لم

أستطيع . إن مصابى هو فرط إحساسى بأنى مظلومة ، وأنه لا أمل لي هناك في عزاء

سوى عزاء الشوق والحين والذكرى !

— ولكن لم لا تلفظين بعض ما في صدرك .. فتخففى عنك ما أنقض

ظهرك ؟

— لا أستطيع . إنه سر يجب أن يبقى مطويا في صدري .

— حتى غنى ؟

— لست أدري .

— وحتى لو بقى مطويا في صدري كما هو في صدرك ؟

— الواقع أنى أريد منك عزاء .. وأكره أن أبدو أمامك عجوزا عاشقة

مخرقة .

وسكنت قليلا ، ثم تهتدت ، وبدأت تقص قصة حبها البائد وشوقها العائد

— كنت في زمن مضى .. منذ ما يقرب من عشرين عاما . غانية مص

الأولى .. كنت قبلة الرجال .. ومحط أنظارهم .

— أعرف هذا جيدا .

— وكان الكل يتلهفون على رفقتى ويتمنون مصاحبتى ولكن واحدا هو

الذى استطاع أن يستحوذ على مشاعرى ويتملك قلبى .

— طبعاً هو .

— أجل ! .. وكان وقتذاك ما زال ضابطاً صغيراً من الضباط الفرسان ..
وكان دائماً الحضور إلى الملهى الذى أعمل فيه مع « شلة » من رفاقه الضباط ..
ووجدتنى على الأيام أختصه بكل حبنى ، وأثره على كل من حولى من المعجبين
أصحاب الثراء والجاه ، وأولهم رجل من أصحاب الملايين كان وقتذاك متيماً
بى .. وكان من أقرب المعجبين إلى ولكنى لم أتردد فى أن ألفظه من أجله !
— أكنت سعيدة وقتئذ ؟

— منتهى السعادة .. وكنت متمتعة بأقصى ما توده امرأة .. كنت محبة
محبوبة .. كنت أستعذب فى سبيله كل مر .. لقد كان شديد الكبرياء ، شديد
الغيرة .. وكان أول ما طلب منى هو ألا أعرف إنساناً سواه ، وأن أهجر ذلك
الرجل الغنى .. وأنت تعرف قيمة هؤلاء الرجال فى حياة الغانيات ، وتعرف
أنهم ، وبخاصة فى ذلك الزمن ، من أهم عمد حياتهن ، وأكبر موارد رزقهن
ومسببات ظهورهن ، ولكنى مع ذلك طردته من رفقتى ، وأنبأته بأن ما بيننا قد
انتهى .. وهكذا تخلصت من كل من حولى .. وفرغت له ، غير نادمة
ولا آسفة .. فقد كان يستحق كل تضحية . وكانت معاملته لى تختلف عن
معاملة كل من لقيت .. لقد كان رجلاً وكان يحبنى ويحترمنى .. يحبنى حبا قويا
جارفاً .. ويحترمنى كأمراة نقية طاهرة .. حتى انتهى الأمر بيننا إلى أن سألتنى الزواج .
« وغمرتنى السعادة يومذاك ، وأحسست لأول مرة أنى امرأة نظيفة
محترمة ، وهجرت الملهى ، وبدأت أتهيأ لحياة جديدة مستقرة .. وكنت أقضى
الساعات الطوال وإياه على جوادين يضربان بنا فى عرض الصحراء .. بين التلال
والوهاد ، ناعمين بالفراغ والخلوة .. كأننا ملوك الرمال .. وأصحاب
الفضاء .

« لقد علمنى أشياء جديدة .. علمنى كيف أطرب لمهبط الشمس الغاربة فى
الأفق ، وعلمنى كيف أقف لأتأمل زهرة جميلة .. علمنى كيف أشعر ، وكيف

أحسن .. بعد أن كنت أنطلق في الحياة عادية لا ألوى على شيء .
« وهكذا سرنا في طريق معبد للحب حتى كدنا نصل إلى النهاية الحلوة ..
عندما حدث حادث من حوادث القدر القاهرة ، التي كان يمكن ببساطة
ألا يحدث .. فلا يعصف بحياة إنسان ويقلبها رأساً على عقب .
« حدث ذلك في يوم كان ينتظر أن يكون نوبتجيا ، وبسيت ليلته في
الشكنات ، ولم يكن هناك ثمة أمل في لقائنا تلك الليلة ، ولكن حدث أن تبدلت
نوبته وحاول الاتصال بي للقاء فلم يفلح ، ودعاه بعض رفاقه إلى قضاء السهرة
في أحد النوادي .
« ولم يكن من هواة المقامرة .. ولكن رفاقه أخذوا يستدرجونهم إلى اللعب ..
وأخذت الخسارة تدفعه إلى الإمعان فيه رغبة منه في تعويضها .. وهكذا استمر
يخسر ويخسر حتى أضحت خسارته تربو على مائتي جنيه .
« وأنت تعرف قيمة الجنيه وقتذاك ، وتعرف ما كانت تعنيه مائتا جنيه
بالنسبة إلى ضابط مثله لا يجاوز مرتبه الخمسة عشر جنيا .
« وكان عليه أن يستر الفضيحة بأية وسيلة .. ولم يكن أمامه من حل عاجل
سوى أن يمد يده إلى الخزانة التي كان هو الأمين عليها ، ليسدد منها الدين معتقدا
أن المسألة لن تكشف قبل أن يكون قد دبر أمرها .
« ولكن الأمر تعذر تديره .. ولم يكن قد أنبأني بشيء مما حدث ، ولكنني
استطعت أن أتبين في وجهه منذ أول لقاء بعد ذلك مدى ما به من قلق
وانزعاج .. وبعد إلحاح أنبأني بالأمر ، وحاول طمأنتي بأنه سيستطيع تدير
المبلغ بسهولة .
« ولكنني لم أقتنع ولم أطمئن .. لقد كان المبلغ بالنسبة لي يمكن تديره ..
أما هو .. فمن أين ؟ وكيف ؟
« وإذا لم يستطع تديره .. فماذا تكون النتيجة ؟ .. إن المسألة جد خطيرة ..
ويجب أن تحل بسرعة .

« وكنت أعرف مبلغ كبريائه .. كبريائه التى تصل إلى حد العناد والجنون ، وكنت أعرف سلفا ما سيكون رده لو حاولت أن أعرض عليه تدبير المبلغ .. لم أكن أشك فى أنه سينهرنى ويسبنى . وينبئنى أنه ليس فى حاجة إلى مساعدة امرأة !

« وهكذا صممت على أن أقدم له المساعدة دون أن يشعر . وإمعانا فى الخداع ادعيت أمامه أن المسألة عسيرة ، وأن من الصعب جدا الحصول على مائتى جنيه فى مثل ذلك الوقت وبمثل هذه السرعة .

« ولكنه هز رأسه وقال : « ربنا يفرجها » .

« وتركته فى ذلك اليوم وأنبأته أنى لن أستطيع لقاءه لأن لى خالة مريضة لا بد من زيارتها .. وافترقنا على أن نلتقى فى اليوم التالى .

« وتركته ، مهمومة النفس مضطربة الذهن .. وكنت أحس حينذاك أنى مع الوقت فى سباق .. فقد كان على أن أحصل له على المبلغ فى الليلة نفسها .. وكان على أن أدبر طريقة لإرساله له دون أن أشعره بأنى صاحبة فضل عليه .. خشية أن تدفعه كبرياؤه إلى رفضه .

« لم تكن مشكلة الحصول على المبلغ أنه مبلغ ضخم .. فقد كنت أستطيع بسهولة أن أحصل على أضعاف أضعافه فى لمح البصر .. وبإشارة بسيطة من أصبغى .. ولكن المشكلة كانت فى إحساسى بأنى مقيدة بالوسيلة التى أحصل عليه بها .. أو — بصراحة أكثر — فى إحساسى بأنى ، مهما تكن الدوافع ، يجب ألا أفعل ما يחדش كرامته أو يجرح كبريائه .. وأنى — بوصفى زوجته المقبلة — يجب أن أصون نفسى عما يشينها حتى ولو كان ذلك فى سبيل إنقاذه !

« وكان المعجبون القدامى على استعداد لأن يهبونى كل ما أطلب .. ولكنى كنت أصور لنفسى ما عساه يحدث إذا علم بذلك ، فتأخذنى الرجفة !

« لقد كنت أحبه ، وكنت أريد أن أنقذه .. ولكنى لم أكن أريد أن أنقذ مركزه لأحطم كبريائه ، بل كنت أريد أن أحافظ على الثقة التى منحنى إياها ..

والحب الذى أحاطنى به .

« وهكذا ضاقت بى السبل .. ولم أجد أمامى سوى أن أجمع كل دائق
أستطيع الحصول عليه .. برهن ما كنت أملك من حلى ، وبيع ما كان يمكن بيعه
فى تلك الفترة القصيرة .

« وعدت إلى الدار فى تلك الليلة مكدودة الجسد محطمة الأعصاب ..
وكانت ليلة قر عاصفة الريح شديدة البرد .. ولم آو إلى مضجعى ، فقد كان
ما جمعته دون المبلغ المطلوب بقليل .. فأرسلت الخادم إلى صديقة كانت تقطن
على مقربة منا لعلها تقرضنى بقية المبلغ ، وجلست فى بهمة الليل الصامت
الموحش أصطلى نيران المدفأة وأحرق فى نيرانها المتأججة وأخذ الدهن الغارب
الشارد يمعن فى الأوهام والتخيلات .

« كان علىّ أن أفكر فى أسلم وسيلة لإرسال المبلغ ، الوسيلة التى تجعله يقبل
المبلغ ويؤدى به دينه .. وفكرت أول الأمر فى أن أرسله إليه باسم مجهول ..
ولكنى رأيت أن هذا سيقلق باله ويضايقه وأنا أكره أن أسبب له القلق والضيق ،
وخشيت كذلك أن تهديه الوسوس والتخمينات إلى حقيقة الأمر .

« ومر بخاطرى فجأة خاطر وجدت فيه خير حل للمشكلة .. وحدث الله
أن هداى إلى .. وأن جعله يبرق فى رأسى المكدود المتعب .. على غير توقع .
« لقد ذكرت وقتذاك أنه أنبأنى ذات مرة بأن بينه وبين أحد أعمامه خصومة
شديدة ، فقد وضع العم يده على بضعة أفدنة ورثها هو عن أبيه ومرت السنة تلو
السنة دون أن يعطيه عمه حقه منها مدعياً أن الأرض بور .. ثم اشتراها بعد ذلك
منه .. ولكنه لم يعطه سوى جزء ضئيل من الثمن ، وبقي حتى الآن مدينا له
بيضع مئات من الجنيهات .

« وذكرت أنه قال لى مازحاً فى ذات يوم : إنه لا سبيل إلى الحصول على ذلك
الدين ، سوى أن يتزوج من ابنة عمه ، ثم يخبره بين دفع الدين أو طلاقها !
« مرّ كل ذلك بخاطرى مرّ البرق .. ووجدت فى عمه خير منقذ للموقف فقد

كان دائما يتوقع أن يرسل له عمه الدين أو بعضه في أى وقت .. بل كان دائما يدخل الدين في حساب مشروعاته المستقبلية ويعدده شيئا لا بد آت .

« وهكذا استقر بى الرأى على طريقة إرسال المبلغ إليه وأخسست بعد ذلك براحة كبيرة ولا سيما أنى كنت على يقين من أنه لن يحاول سؤال عمه هل أرسل المبلغ أم لا .. بل كنت واثقة بأنه لن يحاول حتى أن يشكره على إرسال المبلغ » .

وتهدت مرة أخرى قبل أن تستأنف حديثها وتقول :

« وتنفس الصعداء ، وأرخت أطرافى على المقعد الذى كنت أجلس عليه أمام المدفأة ، وأسندت رأسى على حافة المقعد .. وأغمضت عيني مستسلمة للراحة والهدوء .. وهاجمنى النعاس فلم أقاوم .. ولم أدر كم لبثت فى إغفائى .. ولكن الذى أدريه أنى استيقظت فجأة وأنا أحس بلسعة فى وجهى .. وأشم رائحة دخان و« شياطين » تملأ الجو وكأنى أوشك أن أختنق .

« لقد تطاير بعض الشرر من المدفأة دون أن أشعر بذلك . فسرت النار إلى الرياش وإلى .. ووجدت النار قد اشتعلت فى كل ما حولى !

« ولم أفكر وقتذاك إلا فى شيء واحد .. نعم لم أفكر فى نفسى .. ولا فى الأثاث المحترق .. بل تركز ذهنى فى شيء واحد .. هو النقود .

« ووجدتها على المنضدة .. فى حقيبة يدي الجلدية .. سليمة كما هى .. لم تمسسها النار فأمسكت بالحقيبة وقذفت بها بعيدا عن النار إلى حجرة مجاورة .

« وبدأت محاولتى فى الاستغاثة وفى إطفاء النار .. وكل همى أن أحصر النيران فى موضعها حتى لا تمتد إلى بقية الدر .

« ووصلت الخادم ، ووصل الجيران .. وتعاون الجميع على إنقاذى ، وعلى إخماد الحريق .. حتى تمكنوا فى النهاية من التغلب عليه .. وانتهى الأمر بسلام .. دون أن أخسر ، إلا شيئا واحدا .. أظنك تستطيع تخمينه » .

ونظرت إلى بمنظارها الأسود .. وتخلت ما يحجبه الستار الزجاجى من بصر خاب وعينين مظلمتين .. وأصابتنى رجفة ، وحاولت جهدى أن أخبس

دمعتين همتا بالانسياب من مقلتي .

وران الصمت برهة .. ووجدتني أقطعه هامسا :

— وبعد ؟

— رقدت على الفراش .. مغمضة العينين .. إغماضة الأبد .. وكان أول ما فعلته عندما أفقت من إغمائي .. أني طلبت الخادم .. وأمرتها بأن تأخذ المبلغ من الحقيبة .. وأن ترسله إليه بالبريد على أنه من عمه .. وظللت أتقلب على الفراش متململة .. فلم أهدأ حتى عادت وأنبأتني بأنها قد أرسلته .
وعادت إلى الصمت مرة أخرى .. وعدت أستحثها لكي تتم حديثها متسائلا :

— وماذا فعل هو ؟

— وماذا كان يستطيع أن يفعل ؟ .. لقد حزن على حزننا شديدا ... واستمر يعودني كل يوم ... وأنبأني بأن عمه أرسل إليه النقود وأنه قد سدّد بها دينه .
— وزواجكما ؟

— لقد أحللتها منه .. ماذا كنت تظنني فاعلة ؟ ألقى عليه عبء امرأة ضريرة لينوء به مدى حياته ؟ لقد عرض على الزواج .. ولكنني رفضت .. فقد اعتبرت عرضه رثاء وعطفا وتأدية للواجب .. ولم أكن حمقاء لأنقذ حياته ثم أدمرها ثانية .. لقد أبيت زواجه .. ورجوته أن يتزوج من يشاء ومتى يشاء .

— وهل تزوج ؟

— أجل ...

— من ؟

— ابنة عمه الذي أنقذه أبوها .. من الدمار والضياع !

— كيف ؟ .. ألم تنبئني بأنه استمر إلى النهاية دون أن يعرف الحقيقة ؟ !

— بل لقد عرف .. ولكن بعد أن تزوج وأتى إلي ذات ليلة فجثا أمامي راكعا وبلل وجهي بالدمع .. دمع الشكر والحب والتقدير .. وكان هذا خير ما لقيت

— ١١٠ —

من عزاء .. انبأنى مرة ثانية بأنه على استعداد لأن يترك زوجته من أجلى .. ولكنى
رفضت وسألته الرحيل .. ثم حاولت بعد ذلك أن أنساه !

— ولكن النسيان قد تعذر عليك ؟

— لم يتعذر تماما .. إني أكاد أنسى ، لولا شوق يعاودنى من آن لآخر .. فينكأ .

القرح ويدمى الجرح .

وساد الصمت ، ومددت يدى متشاغلا بإدارة مفتاح الراديو .. وفى
سكون الليل علا صوت أم كلثوم أشبه بأنين قلب مكلوم يهتف :

« وعادها الشوق للأحباب فانبعثت تبكى وتهتف أحيانا بشكواها »

ولم تكن وحدها التى انبعثت تبكى .. لقد كنت أنا أيضا أبكى .. على أنى

تماكنت نفسى وتماسكت .. وعدت أستمع إلى الصوت الساحر الذائب الذى

يزفر وجدا ويلهث جوى :

يا جارة الأيك أيام الهوى ذهبت كالخلم ، آها لأيام الهوى آها

الشيخ زعرب

الإهداء

معجزات هذا البلد في عصرنا ثلاث :

« أم كلثوم » و« عبد الوهاب » و« الريحاني » .

وقد سبق أن أهديت كتابي « أغنيات » إلى المعجزتين الأولى والثانية . ويبدو لي أن المعجزتين إما تجهلان القراءة ، أو تجهلان الذوق ، لأنهما لم تشعراني بأنهما أحستا بالإهداء .

وأشعر رغم ذلك أن من واجبي أن أهدى كتابي هذا إلى المعجزة الثالثة . يشجعني على ذلك أنها خرجت عن نطاق البشر وأضحت في عداد الأرواح ، وأنها بذلك ستجنبني — لا محالة — مشقة جمود الأحياء .

فإلى روح « الريحاني » أهدى كتابي هذا . فهو أحق من سواه .

بـ « الشيخ زعرب وآخرون » .

« يوسف السباعي »

(أغنيات)

مقدمة

هذا الكتاب توأم لـ « أبو الريش » .. والتوأمان مصريان أصيلان منتزعان من صميم الحياة المصرية الأصيلة .. بين الحوارى والدروب .. أو بين « أبو الريش وجنيئة ناميش » .

ولئن كان رابط القصص فى مجموعة « أبو الريش » هو عامل المكان .. فإن رابطها فى « الشيخ زعرب » هو الشخصية .. والرابط فى كلا التوأمين كما قلت مصرى .. ولذا فليس هناك حد فاصل بين التوأمين .

« فالشيخ زعرب وآخرون » قد يعيشون فى « أبو الريش وجنيئة ناميش » وما بينهما ... وكذلك قد تحوى دروب « أبو الريش وجنيئة ناميش » الكثير من أمثال « الشيخ زعرب » وزملائه .

ولست أدري ما إذا كان هذا النوع من القصص المحلى الفكاهى الساخر يرضى جمهرة قراء البلاد العربية كالعراق وسوريا ولبنان ومراكش وغيرها من الشقيقات الناطقات بالضاد والذين يشاركون القراء المصريين فى استيعاب جزء كبير من إنتاج الأدب العربى .

لست أدري مدى رضاء هؤلاء الإخوان عن مثل هذا النوع من الإنتاج ولكن الذى أدريه هو أن هذا النوع شىء واجب .. فهو لا يعدو تسجيل لوحات كائنة فى حياتنا .. بل إنها هى حياتنا فعلا .. وإذا لم يسجل الكاتب حياة قومه .. فمن يسجلها ؟

بقيت كلمة أحب أن أوردتها فى هذا التقديم .. وهى دهشى من ذلك الانزعاج الشديد الذى يصيب البعض عندما يصطدمون — على حد قولهم — هنا وهناك ببعض الأغلاط اللغوية .

وإني أوافقهم على أن هذه الأخطاء على قلتها أشبه بالأتربة التي قد تؤثر تأثيرا ظاهريا على بهجة الكتاب .. ولكن أعتقد أن مهمة الإزالة هذه توكل دائما إلى المصححين .. وأن الكتاب يمر قبل الظهور على ما لا يقل عن أربعة من ذوى العمام والتمائم .. فإن بقيت به بعد ذلك أتربة فهو تقصير من مزيلي الأتربة للغوية أو كناسي اللغة .

ولكن ذلك لا يجب أن يدعو البعض إلى مثل هذا الانزعاج الذي يدونه ، فاللغة أولا وآخرا لا تزيد عن وسيلة للتعبير . وصحتها تقاس بقدرتها على إفهام الغير ما تود قوله ، والتأثير على نفسه بما في نفسك وإشراكه معك في تفكيرك ومشاعرك .

وإذن فمن الخطأ أن نباشرها كشيء معقد في ذاته ، ثقیل في مباشرته ، بل يجب أن تكون لدينا الجرأة في التحلل من كثرة قيودها وتعدد نظمها وقواعدها ، وتشكيلاتها وتصريفاتها .

وإني أعتقد أن الزمن كفيل بذلك .. فهو جار في تخفيف اللغة بما يناسب تطور التفكير ، ولست أشك في أن تسعة وتسعين في المائة من القراء لا يشعرون قط بما قد يصادف هؤلاء البعض من الأخطاء التي تصدهم وتزعجهم . وما دامت أمثال هذه الأخطاء وهي غير متعمدة لا تحس بين الأغلبية الراضية .. فليس على الأقلية المتزعجة إلا أحد أمرين : إما تعودها حتى تصبح في حكم الصواب ، وإما إراحة أنفسهم بتصحيحها في سكون .

إن مباشرة اللغة العربية كحرفة معقدة مليئة بالنظم والقواعد شيء يجب أن يزول .

وهو أمر يحتاج إلى جرأة قدير كجرأة « دانتى » حينما ترك اللغة اللاتينية جانبا وجعل من الإيطالية المحلية لغة أدب .

وبعد ، أرجو ألا يكون فيما كتبت مزيد من إزعاج لمخترفي اللغة .

« يوسف السباعي »

الشيخ زعرب

ما زالت مصر بلد العجائب والمتناقضات وهذا الخليط
في ميدان الغفير خير شاهد على ذلك .. فداخل السرادق
وخارجه يبدو أكبر تناقض يمكن أن تقع عليه عين ..
داخل السرادق تصطف الحكومة المصرية الفاخرة ،
وخارج السرادق يحشد الشعب غير الفاخر .

قبل أن أقص عليك قصته .. تعال معي نجول جولة في وجهه .
رويدا .. رويدا .. حتى لا نضل بين الأخاديد والتجاعيد والوهاد
والنجد لنبدأ « من فوق لتحت » .. من أعلى قمة له .. حيث يقوم طرف
زر بلا زر .. قصير أشبه بعقب السجارة .. يعتلى طربوشا .. ليس به من سمات
الطرايش إلا هيكله المنهار الجوانب المطبق الجدران ، أما اللون فأسود أغبر تكون
من خليط من تراب وعرق ، ولنهبط بعد ذلك إلى وجهه ، فنستقر على جبينه
برهة .. حيث يصادفنا أول نتوء في منتصف الجبين .. نتوء أشبه بكاللو وارب
متفخ .. رفعت عنه حافة الطربوش التي بدا من أسفلها شيء أشبه بحرف طاقيا
بيضاء .. أو منديل رأس .. يعصب به الرجل رأسه حتى لا يكبس ذلك
الطربوش على نافوخه ، وتمر بالنتوء البارز أخاديد متعرجة متوازية تنحدر يمينا
وشمالا في جبين الرجل حتى تصل إلى الأذنين .. يقطعها من أسفل أخذودان
رأسيان يمران بين العينين ويستقران على أعلى الجبهة في وجه الرجل ، والنتوء من
أهم الظواهر في جبين الرجل ، وهو لا يستمد أهميته هذه من هيئته الطبيعية بل من
قيمته المعنوية .. فهو بمثابة مواهب ومستندات وشهادات على ولاية الرجل ،

وإدمانه الصلاة والعبادة والسجود .

إن هذا البروز .. هو زبيبة الصلاة .. وآية الورع والتقوى .
 لنعبر زبيبة الصلاة .. أو كاللوتدين والولاية .. ولنهبط بين العينين فنستقر
 على أرنبة الأنف ولنقلب البصر ذات اليمين وذات اليسار بين العينين والأذنين .
 فأما الأذنان فعريضتان .. كأنهما جناحا خفافش أو أذنا حمار ، وأما العينان
 فمن الجور أن نسميهما عينين .. فهما لا تعدوان أخدودا أكثر عمقا يتمم أخاديد
 الجبين ، ولولا ارتجاف في الجفن بين آونة وأخرى ، ولولا تعودنا أن نجد عينين في
 هذا المكان من الحلقة الآدمية ، لما اعترفنا بعيني الرجل ، ولما أحسنا لهما
 وجودا !.

أما وقد توقعنا أمامهما ، واعترفنا بوجودهما .. فليس هناك بد من التمعن
 فيهما ، والتحقق في أوصافهما .. الرموش أو بقايا الرموش دائمة مسبلة ،
 والجفون مغلقة مطبقة .. فإذا ما فتحت دفعت إلى الذهن قول شوقي « مقروح
 الجفن مسهده » . فلا أظن أن هناك مثلاً أفضل منه للجفون المقروحة الدامية
 الذابلة ، ويعلم الله أمن شهد قرحها أم من رمد ..! على أية حال .. إن الرجل من
 أولياء الله وعشاق الرسول .. فهو والحال كذلك يدخل في زمرة العشاق ،
 وسهد العشق لا يستبعد على مثله !.

فإذا ما تركنا العينين إلى الأنف ، وجدنا أنفه هيئة ضخمة محترمة .. تشغل
 من فرط عرضها وضخامتها ثلثي مساحة الوجه ، وهو من حيث الشكل أشبه
 بالطربوش السابق الذكر .. ليس له هيئة محدودة .. بل منبعج مفرطح ، ملء
 بالمسام والشعيرات .

فإذا هبطنا من الأنف ، وجدنا أنفسنا قد استقرنا فجأة على الشفة العليا ..
 أو بتعبير أصح الحافة العليا للفم .. دون أن نعبير المسافة المفروضة أن توجد بين
 الأنف والشفة التي ينبت فيها الشارب في الوجوه الآدمية الأخرى ، ويعلم الله ..
 إذا كانت لتلك المنطقة المسترة وجود في وجه الرجل .. أم لا وجود لها ! فإن

طرف الأنف قد تدلى ، حتى أخفى ما وراءه .. فبدا شارب، الرجل وكأنه قد نبت من طاقى أنفه ، واختلط بذقنه البيضاء الشعثاء الهابطة من شحمتى الأذنين إلى منتصف الصدر ، والتي يحيط بها .. المستند الثانى لولاية الرجل ، وهو المسيحة المعلقة حول عنقه المدلاة على صدره ...
استرح برهة ، وخذ نفسك .. فأغلب ظنى أن الملل والتعب قد أصابك من تلك الجولة المنهكة في هذا الوجه المقفر الخرب .
لا تريد أن تستريح !. ذنبك على جنبك .. هيا بنا وراء الرجل لنرى إلى أين نذهب .

إن اليوم لديه يوم مشهود فقد ارتدى بدلة التشريفة الكبرى ، وأخفى هلاهيله بعباءة فضفاضة حمراء خضراء وأمسك في يده عصا المرشالية وهي أشبه بالعصى التى تستعمل في تنظيف الأسقف التى توضع في نهايتها (رأس العبد) .
لا تختلف عنها إلا في أن زعرب استبدل بالعبد كلمة (الله) منقوشة على صفيحة أشبه بشخصيخة تدلى منها شرابة كانت فيما مضى (دكة لباس) !.
لنذهب وراءه .. حتى يستقر المقام بنا وبه في أرض الغفير حيث الاحتفال بالمحمل .

الميدان فسيح .. قد اصططفت في منتصفه قوات الجيش ما بين فرسان ومدرعات ومشاة ، والجنود متأهبة والمدافع منصوبة .. كأننا في ميدان قتال ، والنداء يعلو من مكبر الصوت فتتزعزع الأسلحة وترتفع وتنخفض ، والله وحده يعلم ما صلة كل هذا بالمحمل .
لنتنظر .

أين المحمل ؟ ، وأين الشيخ زعرب ؟ .
ها هما هناك .. في أحد أركان الميدان ، وأمامهما صفت السرايدات المقامة في واجهة الميدان وقد تكأأ فيها حشد من القوم يتطلعون بأبصارهم في لهفة .. إلى لا شيء .. ويتشوقون إلى مشاهدة ما سبق أن شاهدوه عشرات المرات

بلا تغيير ولا تبديل .

وتبدو بضعة جمال .. بينها جمل مصبوغ بالخناء . وقد وضع على رأسه منفضة .. أى والله منفضة ريش لا تختلف قيد أئمة عن المنافض التى يزيلون بها التراب عن الأثاث ، يأخذ الجمل فى البعبة والكركرة ، ثم يجذب قائده مقوده إلى أسفل ويبركه على الأرض ، يأخذ طابور من جنود بلوك الخفر المرتدين الفانلات الصوف البنى فى حمل الهودج المستقر بجوار الجمل ليضعوه على ظهره ويشبوه به .

ويرفع الجنود الهودج بعد أن يحيطوا به من كل ناحية فى الوقت الذى ينطلق فيه الصياح من حناجر « طقم الحمل » منشدين بصوت نشاز بضعة أناشيد لا يفهم لها معنى .. ملتفين حول الجمل المبارك ، وبينهم الشيخ زعرب يهتز مترنحا وقد رفع عقيرته بالغناء .

يظل الهودج يتأيل بين يدى الجنود ، وهم يحاولون تثبيته على ظهر الجمل ، والثلة العجيبة ، من الأولياء وأهل الله ترنخ وتمايل وتنق فاعرة أفواهها كالغربان وقد تكون منهم خليط مضحك يعجز أقدر المسارح الكوميديّة عن إخراج مثله .. ففى خلقهم عجب ، وفى لبسهم عجب .. تراهم ما بين أكرش منبعج ، وهزيل نحيل ، وأعرج وأكتع وأحذب وأعور .. قد غطوا أجسادهم بعباءات صفراء ووضعوا على رؤوسهم عمام بدت فى مجموعها أشبه بقوس قزح .. فهذا قد لف عمامته بشال بنفسجى ، وذاك بشال فستقى ، والآخر بشال أحمر إنجليزى .

ويتبى القوم من تثبيت الهودج على الجمل .. عندما تسمع فى الجو أصوات صفافير وفرقة متوسيكلات .. ثم تبدو عربية حمراء فخمة أنيقة ، وينطلق صوت المكبر أمرا الجنود :

« سلام نائب الملك » .

فترفع الأسلحة وتنخفض ، وتبدأ المدافع قصفها والموسيقى عزفها .

ويقف زعرب وسط جمهرة الأولياء .. يقلب البصر فيما حوله .. ثم يرفع شفته السفلى .. اشمئزا ، ويهز رأسه عجباً !
كل شيء كما هو .. لا جديد في ميدان الغفير .. ولا في غير ميدان الغفير .
ما زالت مصر بلد العجائب والمتناقضات ، وهذا الخليط في ميدان الغفير خير شاهد على ذلك .. فداخل السرادق وخارجه يبدو أكبر تناقض يمكن أن تقع عليه عين .

داخل السرادق .. تصطف الحكومة المصرية الفاخرة ، وخارج السرادق يحتشد الشعب المصرى .. غير الفاخر .
ويأخذ المحمل في الاستعداد للتحرك ، وتصطف أمامه صفوف من الجند بالملابس البيضاء ، ويعلو صوت المكبر صائحا : « سلام المحمل سلاح سلام » .

وتصدح الموسيقى ، ويبدأ المحمل سيره في لفة ضيقة ، وقد سار وراءه موكب من الجمال .. يعلوها نافخو المزامير وبعض المشاة من أولياء الله ، واندس بينهم الشيخ زعرب .

وبدأ الشيخ زعرب يعد اللفات في سره .
طبعا سيلف المحمل سبع لفات كما يفعل كل سنة !
عجبا .. لم كانت سبعا ، وليست ستاً أو ثمانى ؟ .. هذا شيء علمه عند أهل الدين .

ولكن ما السبب لأن يلف المحمل حول نفسه في ميدان الغفير ؟ وما السبب في وجود كل هذا الجيش ؟
علم ذلك عند الله وحده .

ويبدأ قصف المدافع .. والشيخ زعرب لا يخاف شيئا كهذا الدوى .. فهو يذكره بأيام الغارات .. وأخذ جسده يتنفذ عقب كل طلقة .. وأخذ يرفع بصره مستنجدا بالمحمل .. ثم انتقلت عيناه من هودج المحمل إلى الهياكل الخشبية

التي وضعت عليها الكسوة الشريفة وقد طرزت عليها بالقصب آيات قرآنية كتبت بخط جميل تشابكت حروفه .

وهز زعرب كتفيه في عجب ! وساءل نفسه : ماذا يضيرهم لو كتبوها بطريقة مقروءة ؟ أم تراهم كتبوها غير مقروءة من أجل الذين لا يعرفون القراءة ؟

وانتهى الحمل من لفاته السبع .. وبدأت القوات العسكرية تتحرك للمرور في الاستعراض .. ووقف زعرب يرقب ذلك الجمع الهائج المائج ، وشرده به الذهن إلى زمن مضى يبدو له غير بعيد ، كأن السنين الغابرة التي تفصله عنه قد تقلصت وانكمشت ، فبات منه على قيد ليال وأيام أو بات أقرب إليه من أمسه القريب . كان أول عهده بالحمل منذ خمسين عاما ، وقد جلس يرقبه من طابونة أبيه في حى الحسين ، وكان الناس قد تكأكأوا في الشوارع حتى لم يبق هناك موطنٌ لقدم .. واشتد الزحام في النوافذ وفوق الأسطح حتى بات الناس كأنهم ذباب حط على قطعة حلوى !

وبدت بشائر الموكب وظهر الحمل يتهادى ، ووراءه المزامير تنفخ والأناشيد تتلى والدعوات تتعالى ، وبين تلك الأصوات المختلطة كان يعلو صوت صرخات حادة . وأخذ زعرب يبحث عن صاحب الصوت .. حتى وقع بصره على مخلوق عجيب قد لف في أسمال حمراء خضراء صفراء زرقاء بيضاء سوداء ، وأحاط عنقه بقلائد من الودع وصغار الحمار ، وأخذ يقفز ويتواثب ويتراقص وراء الحمل صارخا بأعلى صوته : « أنا في جاه النبي ! »

وسأل أباه عن هذا المخلوق الراقص الصارخ . فأجابه بأنه الشيخ كتكوت أحد مجاذيب الحسين ، وهو رجل به (هفة) تدفعه كل عام إلى أن يعدو وراء الحمل بهذه الهيئة ، ولا يهدأ له بال حتى يشيع الحمل إلى نهايته . وتعود بعد ذلك أن يرى الشيخ كتكوت كل عام وهو يعدو وراء الموكب مستغيثا بجاه النبي ، وانطبعت صورة الرجل في ذهنه على هيئته تلك . ولم يعد

يتصور أن الرجل يمكن أن يكون إلا على هذه الحالة من العدو والصياخ .. حتى كان ذات يوم وقد جلس في الطابونة بجوار أبيه يرقب أقباص العيش الخارجة ويرصد الحساب الداخل ، ويأمر وينهى بين الخبازين والفرانين عندما سمع عواء أشبه بعواء كلب جريح وصيحات متتابعة « حرامى » .

وترك مقعده واندفع إلى خارج الطابونة يتبين جليلة الأمر .. فإذا به يرى الشيخ كتكوت يعدو ، ولكنه كان هذه المرة بلا محمل يتقدمه ، بل بموكب من الرجال والصبية يعدون وراءه .. ينالون عليه بالعصى والطوب وهو يطبق بجنون على رغيف في يده ويصيح بأعلى صوته ، كما تعود أن يصيح : « أنا في جاه النبى » ، ولكن كان هناك في هذه المرة ما يستحق الاستغاثة .

وتكاثرت القوم على الشيخ كتكوت .. يحاولون نزع الرغيف من يده .. منهالين عليه بالسباب والشتم . وكان الرجل قد بلغ باب الطابونة ، ولم يجد ملجأ سواه .. فانحرف فيه فجأة مختفيا داخل الطابونة مبتعدا عن مطاردة الناس له .

وتكأ كالأقلام على الباب ، ووقف زعرب في طريقهم يمنعه من الدخول ، وصاح به أحدهم :

— امسك الشيخ كتكوت الحرامى .. المجرم .. لقد رأيت به عيني يسرق الرغيف من فوق القفص .

وبلا تفكير مد زعرب يده إلى أحد الأقباص المرسومة في الداخل وأعطاه للقوم ، وصاح بهم :

— ما هذا الضجيج .. إن الرجل لم يسرق شيئا .. هاكم الرغيف المسروق انصرفوا وشأنكم .

وتفرق القوم مخذولين محسورين .. فما كانت المسألة مسألة رغيف .. بل كانت رغبة في الأذى وحبا في الشر ! .

والتفت إلى الداخل فوجد الشيخ كتكوت يقف وراء كوم من الأقباص وقد

أطبق بأسنانه على الرغيف يقضمه بنهم وعجلة كأنما يخشى أن يستعيده منه القوم .

ومضت عليه برهة وهو في مكانه لا يريد الانصراف ، أو كأنه قد أضحى في مأمن لا يود تركه .

ولكن زعرب أنبأه أنه يستطيع الانصراف بالرغيف آمنا مطمئنا ، دون أن يخشى شيئا .. وعاد إلى داخل الطابونة .. فسأله أبوه عما هناك فأخبره بما رأى وما فعل .

واستحمقه أبوه ، وانهل عليه باللوم والتقريع ، وأنبأه أن هذا الرجل الذي أحسن إليه بالرغيف لا يستحق الحسنة لأنه يملك آلاف الجنيهات .. جمعها من التسول .. إنه يعرفه تمام المعرفة ، وأنه إنما يدعى الجوع والفقر ليأخذ ما يريد .. وأصر على أن يخصم ثمن الرغيف من مصروفه .. حتى يعطيه بذلك درسا لا ينساه .

ومرت السنون ، واختفى المحمل ، واختفى معه الشيخ كتكوت ومات أبو زعرب .. وآلت إليه الطابونة بما فيها وأضحى هو صاحب الأمر والنهى . وأتم فيه درس أبيه .. فلم يحاول أن يحسن قط .. بل كان كل همه هو جمع المال .

وانتعشت أعماله ، وزاد رزقه واتسعت موارده .. وبلغ أوج مجده وارتفعت قمة غناه ، واطمأن إلى الدهر .. حتى خذله الدهر فجأة .. عندما حدث حريق في الطابونة ذات ليلة .. فأقى عليها وأودى بما فيها . وأصبح عليها الصبح التالي فإذا بها خليط من هشيم ورماد .

وكانت صدمة مروعة عنيفة .. لم يفق منها حتى الآن .. وانحدر به الحال .. حتى بات لا يجد له موقدا ولا مأوى إلا على قارعة الطريق بجوار الحسين وسط تلك الثلة من المجاذيب والأولياء .

وهكذا دخل في زمرة المجاذيب ، وطبعته السنون بطابع أولياء الله ، وأنبئت

له الزيبة السالفة الذكر ، واتخذ مكانه المختار على مصطبة قيل له إنها كانت من قبل لرجل يدعى الشيخ كتكوت ، كان من أولياء الله الصالحين لم يرتكب في حياته سيئة أو يفعل منكرا ، سوى أنه سرق رغيفا ذات مرة عندما ضاق به الحال حتى أوشك أن يموت جوعا !.

وصاح زعرب بمحدثيه :

— إن الشيخ كتكوت لم يسرق .. فقد رد الرغيف إلى أصحابه .
ومن أدري بذلك سواه ؟!

ووجد زعرب نفسه يسير في ذلك الطريق الذى سلكه سلفه الشيخ كتكوت ، ولم يكد الاحتفال بالمحمل يعود إلى سابق عهده بعد طول اختفاء .. حتى اتخذ زعرب مكانه وراء الموكب .. يعدو راقصا صائحا « أنا في جاه النبي » !.

* * *

وعاد زعرب إلى نفسه وأفاق من شروده .. عندما بدأت المدافع تطلق تحية لنائب الملك وهو يهيم بالانصراف .. وتحركت العربة الفخمة تليها بقية العربات في عجلة وتزاحم كأنها في سباق .

وبدأ الموكب يستعد للمسير .. هابطا إلى شارع العباسية ثم شارع فاروق وقد تكأ كالأشخاص على جوانب الطريق واحتشدوا في النوافذ والشرفات .
وأخذ سيل المجاذيب يتدفق وراء المحمل ، وانطلقت الزغايد وتعال المزامير ، والطبل البلدى ، وأضحى الموكب أشبه بزفة راقصة .

واتخذ زعرب مكانه وسط المجاذيب ، وبدأ في الرقص والصياح .. عندما مر بذهنه فجأة قول الرسول : (إني مباه بكم الأمم يوم القيامة) .
وتلفت حوله باحثا فاحصا وحاول أن يجد فيما حوله شيئا يستحق أن يباهى به الرسول ، ثم هز رأسه متشككا وقال لنفسه :

« شد ما أخشى أن نخذلك يا رسول الله » .. وسرعان ما أبعد عنه خواطره ثم

اندفع في الرقص والصياح : « أنا في جاه النبي » !.

* * *

وأخيرا انتهى الموكب .. أو الزفة ، ووجد زعرب نفسه يعود في النهاية إلى جحره متعبا مكدودا وقد نال من الإعياء ، وأحس بقارصة الجوع فما دخلت جوفه لقمة واحدة طول اليوم ، ولم يكن يملك شيئا يستطيع أن يشتري به طعاما ، ومر بخاطره أن حرفا واحدا من تلك الحروف المختلطة التي طرزت بها الكسوة .. كان يمكن أن يهيئ له ولعشرة من أمثاله وليمة فخمة ، ولكن من يدرى بوجوده أو يشعر بجوعه !

ووقع بصره فجأة على حانوت للعيش قد رصت في دولاب في واجهته الأرغفة وقد أخذ سطحها المنتفخ يريق متوردا .. وخطر له أن يمد يده فيخطف رغيفا ، ولكنه تذكر الشيخ ككوت وتذكر مصيره عندما سرق الرغيف وتحيل كل سكان الشارع وقد أخذوا يعدون وراءه ، ويشبعونه ضربا ولطما .. كأنه بسرقة الرغيف قد أماتهم جوعا .

ووقف برهة يحملق إلى الأرغفة شارد الدهن غارب البال ... عندما أحس بيد توضع على كتفه وسمع صوتا يناديه :
— تفضل يا شيخ .

وتلفت وراءه فوجد صاحب الحانوت بصديريته المخططة وسرواله الطويل ، وجسده النحيل وقد مد يده إلى الدولاب فأخرج أحد الأرغفة وأعطاه له .
هذا آخر ما كان يتوقعه ..

وأخذ زعرب الرغيف في إطراق وصمت ، وبدا له كأنه يغرف صاحب الوجه من قبل .. ولكنه لم يتذكر أين رآه !. ولا من هو .
وقبل أن ينصرف زعرب قال له الرجل :

— احضر إلّى كل يوم حتى أعطيك رغيفا .. سأجعله راتبا يوميا لك .
وتتم زعرب ببعض الدعوات ثم أدار ظهره وهم بالانصراف .

— ١٢٧ —

ولكنه لم يكد يخطو خطوة حتى أبصر صبييا يفد على الحانوت ويصبح
بصاحبه :

— أعطني أقتين يا معلم كتكوت .

كتكوت ! .. كتكوت ! .. أجل لقد تذكر .. إن هذا الشبه هو شبه الشيخ
كتكوت بعينه .. إن الرجل لا شك ابنه .

عجبا ! .. أبعد هذا العمر الطويل .. يرد الدين بالربح المركب ؟!

حقا .. « افعل المعروف وارمه البحر ، فهو لا شك مردود إليك وإلى ذريتك
من بعدك ! ! » .

حسن أفندى

هذه قصة يرويها « طربوش حسن أفندى » . هل
سمعتم عن حسن أفندى ؟ أجل .. أجل .. إنه هو حسن
أفندى الشهير صاحب النكتة إياها .

ماذا تقولون ؟ .. إن بعضكم لا يعرفها !! وتطلبون
منى أن أرويها لكم .. لا .. لا .. عيب جدا .. هذا كلام
لا يروى .. إن كل ما أستطيعه هو أن أدع « طربوش
حسن أفندى » يروى قصته .

أنا لا شك طربوش قدير .. طربوش « بهلوان » ولو لم أكن كذلك لما
استطعت أن أستقر لحظة على رأس حسن أفندى .. من فرط « ما عوجنى » على
حاجبه الأيمن .. إلى لا أكاد أبصر نفسى فى المرأة حتى يصيبنى الذعر ويخيل إلى
أنى سأهوى من فوق رأسه .. ومع ذلك . فما هويت قط .. بل استطعت أن
أحتفظ بتوازى دائما ، حتى فى الأوقات الحرجة التى ينهمك فيها حسن أفندى فى
تلعب حواجه على سبيل « البصبة » .

إن حسن أفندى رجل بصباح .. لا يشغل رأسه فى الحياة شئ كالنساء ..
وهو لذلك شديد « العياقة » .. وكل « عياقته » تنصب على وعلى شاربته .
إلى أبصره الآن أمامى ، وقد تمدد فى فراشه .. وعلا شخيرته وصفيره .. وبدا
منظره كأقبح ما يكون لإنسان .. وقد تعرى جلبابه عن ساقين كالجرید .. ومال
كرشه على أحد جوانبه ، وانفجرت شفتاه الغليظتان فى بلاهة لتخرج أنفاسه
الصاخبة .. وتهدل شارباه .. وأسبل جفناه ، وغطى رأسه ببطاقيّة بيضاء
خططة .

كانت الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر .. وقد تناول حسن أفندى غداءه

فى « المسمط » القائم على ناصية الشارع والذي تعود أن يتناول فيه غداءه كل يوم حتى لقد مللت أنا نفسى منظر لحمة الرأس وفئة الكوارع .

وبداً حسن أفندى يتقلب على جنبيه .. ويفرك يديه أجفانه ، ويتشاءب ويتمطى ، ثم نهض من فراشه أحمر العينين منتفخ الوجه ، ودس قدميه فى القبقاب .. وسار يقرع به أرض الحجرة متجها إلى الحمام .

وسمعه يتنخم ويتمخط .. ثم بدأ يرفع عقيرته بالغناء صائحا بصوته النشاز :
« يا مالك قلبى بالمعروف .. حبك كواى تعالى شوف » .

وأخيرا خرج من الحمام ، وقد أغرق رأسه ووجهه بالمياه ، وأمسك بمنشفة ، أو على الأصح بمسححة — فقد كانت من فرط قذارتها لا تصلح إلا لمسح البلاط — ووقف أمام المرأة يمشط رأسه بتؤدة وعناية .

وخلع الرجل جلبابه .. ووقف بالقميص « الكريشة » واللباس « البفته » الواصل إلى ما تحت ركبتيه وأخذ يتحسس عضلاته ، ويحرك يديه إلى أعلا وإلى أسفل فى شبه تمرينات رياضية .

ومد يده فسحب القميص من فوق المشجب وأخذ فى ارتدائه ، وأحكم ربط الكرافنة حول الياقة المنشاة التى قد علاها إطار من العرق والقذارة ، ثم دس ساقيه الرفيعتين فى بنطلون أخرجه من تحت مرتبة السرير .

وأتم الرجل ارتداء ملابسه .. واطمأن على المنديل الحريرى فى جيب الجاكتة .. وعلى كتيبة الساعة فى جيب الصديرى .. وأخذ يفتل شاربته بعناية بالغة ، واضعا عليها بعض الكوزماتيك .

وبدا عليه الرضا التام .. ومد يده إلى فنقرنى بأصبعه بضع نقرات أثار بها من جسدى هاجع الأتربة .. فعلتنى سحابة قائمة من الغبار .. وأخذ يمسحنى بكفه بشدة حتى انجلى عنى معظم ما لى ، وأحسست بشيء من الخفة والنشاط .
ونظر إلى المرأة ووضعنى على رأسه بعناية بالغة ، وميل شديد على أحد حاجبيه .

(أغنيات)

وخيل إليّ أن ميلي على حاجبه في هذه المرة أكثر من المعتاد .. وبدأ لي من حركاته أنه مقدم على أمر جلل .. وخاصة بعد أن أبصرته بمسح حذاءه في ساق بنطلونه .

وأخيرا .. وبعد أن اطمأن على منظره تماما .. تناول عصاه ، وغادر الحجرة هابطا الدرج في ثقة واعتزاز .

و كنت أعرف طريقه الذى لا يحدد عنه ، ووجهته التى لا يقصد سواها .. وهى دكان الأسطى زكى المزين ، الكائنة في شارع خيرت ، فهو يهبط من البيت في شارع الناصرية ، فيلقى التحيات ذات العين وذات اليسار ويرفع بصره خلصة إلى النوافذ علّ بها ما « يشبرق » به نظره .. ثم يتمهل أمام « المقلة » .. حيث يحشو جيوبه باللب الجرنه والفلول السودانى ، ويتحرك بعد ذلك قاصدا « عم على الشربلى » .. حيث يتوقف أمام البرطمانات الزجاجية الشفافة .. المليئة بالليمون والخروب والعرقسوس والتمر هندى ، ويتحسس بيده « السطل » النحاسى الذى تندى سطحه المثلج بقطرات الماء ، ويطلب كوبا من الخروب .

ويرحب به « عم على » أيما ترحيب ويمد يده إليه بشوب الخروب ، فيأخذ في تناوله يتمهل وترو .. وعيناه ترقبان نافذة « أم زكية » الكائنة أمام دكان الشربلى ، فلا يكاد يلمح ابتها زكية .. وقد عصبت رأسها بمنديل تدلت منه « الأوية » الملونة على جبينها ، وأخذت « تطرّقع » باللبانة بين شديقها ، حتى يبدأ عملية البصبصة ، وأرتجف أنا فوق حاجبيه وأهتز وأحس كأن أسفلى زلزال .. ويأخذ حاجباه في الصعود والهبوط .. وأنا أتمايل كأنى بهلوان على حبل ، أطلب من الله السلامة .. وأخشى بين لحظة وأخرى أن أفقد توازنى ويمختل مقامى ، فأهوى على الأرض .

وأخيرا .. وبعد أن أكون قد أنهكت من فرط الاهتزاز وتلعيب الحواجب .. تصل إلينا ضحكة رنانة منطلقة من شفتى « زكية » مستقرة في قلب

حسن أفندى .. فتثبت حواجبه ، ويتصلب جسده ، كأنه « مريوح » ، وتظل عيناه عالقتين بالنافذة والكوب مثبت على شفثيه .. حتى تختفى الفتاة من النافذة .

ويتمالك الرجل نفسه ويستعيد قواه .. فيتحرك بعد ذلك متجها إلى شارع خيرت .. فإذا صادفه أحد باعة التين الشوكى ، توقف أمامه وأخذ في انتقاء التينة بعد التينة حتى يزدرد عشر تينات ، ثم يستقر بعدها على مقعده أمام دكان الحلاق .

كان هذا هو برنامج صاحبي اليومى الذى لا يحدد عنه .. وكان فى جلسته عند الأسطى زكى .. لا يفعل شيئا سوى البصبة .
وبصبة حسن أفندى تكون بإحدى طريقتين : إما بصبة فى حالة الثبات .. أو بصبة فى حالة الحركة .

ففى الحالة الأولى .. يجلس حسن أفندى على المقعد متنفخ الأوداج .. وقد وضع ساقا على ساق .. وأخذ يرقب الغاديات والرائحات ، مستعينا فى مغازلتهن بلسانه وحاجبيه .

والرجل لا يستثنى فى مغازلته عجوزا أو صبية .. فهو مندفع فى بصبته بلا تمييز ولا روية .. كأن عليه واجبا لا بد من تأديته .. وهكذا تندفع التشبيات من فمه كأنها السيل .. « يا بت يالى زى الجوزية » .. « يا باشا يالى زى البغاشة » .. « هز يا وز » .. « أنا أموت فى المهلبية » .. « نظرة يا ست يا ام العواجز » .. « إيه ده يا سى محمد .. إحنا سمنا قوى » .

ويستمر حسن أفندى فى مغازلته .. حتى تمر به امرأة تدخل فى « مزاجه » وتثير نشوته فينتقل من حالة الثبات إلى حالة الحركة ، ويتحول من المغازلة الشفوية إلى المغازلة العملية .. فيترك مقعده ويهرول وراء المرأة .. ويظل يطاردها حتى بيتها .. وأحس حينذاك بالعرق يتصبب دونى وأرانى قد ترحلت .
حتى صرت فى مؤخرة رأسه وأخيرا يعود من حيث أتى .

ورغم هذه المغازلات من حسن أفندى .. ورغم جريه في الشوارع وراء النساء ، فقد كنت أعلم أن واحدة فقط هي التي تسيطر على تفكيره ، وتتحكم في زمام قلبه .. وهى « زكية » بنت « أم زكية » .

خرج حسن أفندى من باب الدار .. وانتظرت أن يتجه إلى « المقلّة » كما يفعل كل يوم .. فيحشو جيوبه باللب والفل ، ولكن لم يفعل .. بل رأيته قد تجاوز المقلّة .. واتجه إلى دكان المعلم حسونة الحلوانى ، وأخذ ينقل بصره فى محتويات الدكان .. من بسبوسة ، وكنافة ، وجوزية ، وجلب ملبس ، وملبس ، وشربات .

وأخيرا طلب من المعلم حسونة أن يزن له رطلا من البسبوسة ، وآخر من الكنافة ، وأن يلفهما له مع علبتين من الملبس ، وخرج الرجل من الدكان حاملا اللفة .. وأنا فى دهشة مما ينوى أن يصنعه بذلك ، وزادت دهشتى عندما رأيته يتجاوز حانوت الشربتلى ، ثم ينتقل إلى الرصيف الآخر ، ويدخل بيت أم زكية .

إذا فهذا هو الأمر الجلل الذى ينوى فعله .. وهذه الحلوى هدية للفتاة . ما شاء الله .. أية جرأة تلك التى أصابت الرجل .. وماذا تراه مختلفا من أسباب للزيارة ؟

وصعد الرجل الدرج ثم توقف أمام باب الشقة ، ونقر الباب بأذب فأجابه صوت نسائى : « مين » ؟

وفتح الباب .. فإذا بنا أمام زكية وجها لوجه .

كان أول ما لفت نظرى ونظر صاحبى .. فى زكية هو مجرى العبير من نهديها فلقد كانت الفتاة ترتدى قميصا واسع فتحة الصدر بحيث أبدى ما بين النهدين فى وضوح وجلاء .

ووقف حسن أفندى مبهوتا مأخوذا ، وقد ثبت بصره على صدرها ،

ومضت لحظة وهو لا ينبس ببنت شفة .. حتى صاحبت به الفتاة :

— ده إيه يا ختي ده .. ما تتكلم !! عايز إيه !!

وتكلم حسن أفندى فأنبأها في صوت متلجلج أنه يريد الست أم زكية .
وعادت الفتاة تسأل متخائبة :

— نقول لها مين ؟

— حسن .. حسن أفندى المناويشى .. جاركم ومفتش مراجيح القاهرة
بوزارة الشؤون الاجتماعية .

وعلا صوت من الداخل يصيح :

— اتفضل يا سى حسن .. أهلا وسهلا .. خليه يخش يا بنت في أودة

المسافرين .

وأفسحت البنت الطريق وسارت أمام حسن أفندى وقد انتقل بصره من
نهيدها إلى ردفها .. وقد أخذوا يهتزان في رجرجة منتظمة داخل القميص المتسع .
وأخذت أطل على الفتاة من فوق رأس الرجل ، وقد أصابتني أنا الآخر
النشوة .. إننى ما توقعت قط أن أراها بمثل هذا النضج والامتلاء .. إن الرجل .
والله معذور .

وعلا صوت أم زكية مرة أخرى يصيح :

— اعملى قهوة يا بت لسى حسن ، دى خطوة عزيزة .

وخرجت زكية من الحجرة وحسن أفندى محمقا يبصره مأخوذا مذهولا .

وأنا حائر فيما ينوى الرجل طلبه من المرأة .

وبعد لحظات أشرقت عليه أم زكية بأكداس اللحم والشحم التى علت
جسدها والكحل الذى أغرق عينها .. والأساور التى رصت في معصمها ..
ولسانها الذى لا يهدأ في فيها لحظة واحدة .

وبدأت المرأة حديثها مرحبة بحسن أفندى بقولها :

— أهلا وسهلا .. أهلا وسهلا .. داحنا زارنا النبى يا سى حسن أفندى .

— أهلا بك يا ست أم زكية .. محسوبك حسن أفندى المناويشى مفتش ...
 — عارفاك يا خويا عارفاك .. وهوا فيه كام حسن أفندى فى حنتنا .. اسم الله
 عليك وعلى مقامك .. دانت نورت البيت .

— الله ينور عليكى .

— يا مرحبا .. يا مرحبا .

واستمر الطرفان يتبادلان التحيات بلا توقف ، وكنت على حال من القلق ،
 جعلنى أضيق ذرعا بهذه التحيات المتتالية كأنها طلاقات مدفع ماكينه .. وتمنيت
 لو يدخل صاحبنا فى الموضوع رأسا ، حتى أعرف أى أمر جلل ، قد دفعه إلى
 المغامرة بدخول بيت أم زكية .

ولم يكن هناك شك فى أن إقدام مثل صاحبنا الذى أستقر على رأسه على دخول
 بيت مثل بيت ضاحبتنا التى تستقر أمامى بطياتها وثنياتنا .. أمر يعتبر فى الحقيقة
 مغامرة كبرى .

حقيقة أن حسن أفندى رجل بصباح .. وحقيقة أن مظهر الست زكية لا
 ينم على كثير وقار أو حشمة ، ولكن ذلك لا يمنع من اعتبار دخوله بيتنا
 مغامرة .. لأن قدرة حسن أفندى فى مسائل البصبة قدرة نظرية ، وأسلحته فى
 معارك الغزل لا تعدو الحواجب واللسان ، وهجماته فى ميادين الغرام لا تزيد
 على العدو فى الطرقات والتوصيل إلى الأبواب .

والست زكية ليست بالمركب السهل ، ودخول دارها قد يكون هينا
 لبصباح عملى « ابن حنت » .. أما السيد حسن أفندى ، الخائب إلا من بعيد ،
 الغريق فى شبر من الماء ، فقد كان دخوله للدار بمثابة إلقاء بنفسه إلى التهلكة .
 وأحسست بالعرق يتصبب من أسفلى ، وأخذت أنزلق هابطا رويدا رويدا
 على الأذنين ، وازداد الارتباك بصاحبى بعد أن انتهى سيل التحيات المتدفق من فم
 المرأة ، وران الصمت ، وأخذت المرأة تتطلع بيصرها إلى حسن أفندى ، منتظرة
 أن يفصح عن رغبته .. وكان على صاحبنا أن يقول شيئا ، ولكنه لم يفعل سوى

أن مديده ودفعنى إلى الوراء ثم إلى الأمام بحركة عصبية ، كأنما يريدنى أن أتحدث عنه .

وما لى أنا وهذا الشأن .. أنا لم أقل له اذهب إلى أم زكية وما كان لى أى علم بما ينوى أن يفعله .

قل ما شئت يا حسن أفندى .. تحدث .

وأخيرا تحسست يده علبة الحلوى التى بجواره .. حيث وجد فيها منفذا إلى حين ، فدفع بها إلى الست أم زكية قائلا :

— اتفضلى يا ست .. حاجة بسيطة .. على ما قسم .. شوية حلويات .

— من يد ما نعدمها ، وليه يا خوية التعب ده ؟

— تعبك راحة يا ست أم زكية ، إحنا خدامين .

— والنبي أمير وزى السكر ، ولا يجيب الحلو إلا الحلو .

واحمر وجه حسن أفندى ، حتى أصبح فى مثل لوني ، وبدأ سيل آخر من المديح المتبادل .. ساعد على إنقاذه من ورطة الصمت .

وأخيرا انتهى المديح كما انتهت التحيات .. وعادت المرأة تنطلع بيصرها إلى وجه حسن أفندى .

تكلم يا سى حسن الله لا يسيئك ، قل ماذا تريد ؟ وأرحنى وأرحها .

وأخيرا ، وبعد جهد مشكور ، أخذت شفتاه تنطبقان وتفتحان استعدادا للحديث ، ثم بدأت الكلمات تخرج من بين شفتيه مضطربة مترددة ، قال لافض فوه :

— والله يا ست أم زكية ، أنا أصلى طول عمرى .. من غير مؤاخذه ..

ثم كف الرجل فجأة عن الحديث ، وأخذ يحلق بعينه إلى الباب ..

معذور .. معه حق .. لقد حملقت أنا الآخر .. فقد بدت زكية تحمل بين

يديها صينية عليها شراب أحمر أغلب ظنى أنه شربات ورد .

إن هذه الزيارة لن تنتهى على خير ، هذا الأحق القابع أسفل لن يخرج من هـ

سليما .

لقد أقبلت زكية بعد أن أبدلت ثوبها .. لا بأكثر احتشاما ، بل أكثر عريا .
كان الثوب الجديد أحمر إنجليزى فى لون الشرابات الذى تحمله ، وكان
بلا أكمام ولا صدر ، ولا شيء أبدا .. لقد تدلت ذراعاها بيضاوين ناصعتين
ممتلئتين من فتحة كم متسعة أبدت كل ما حول منبت الذراعين من أعلى الكتف إلى
أسفل الإبط .

وتقدمت الفتاة نحونا وكأنها خطر داهم .. وأخذت تقترب من صاحبا
الواجم الشارد الفاغر الفم ، ثم انحنى مقدمة لم كوب الشرابات .
وفى انحنائها المقصودة انحسر صدر ثوبها وهبطت كرتا ثدييها مستندتين على
صدر الثوب المنحسر وخرج شعاع البصر من عيني حسن أفندى متجاوزا
الشرابات عابرا فتحة الصدر ، مستقرا على الكرتين البيضاوين .. المتدليتين فى
تثاقل كأنهما كرتا عجين .

وازدرد الرجل ريقه ، ومد يدا إلى الكوب ويذا إلى الذى يدفعنى بها إلى مؤخرة
رأسه ، وانطلقت منه تنهيدة طويلة .

وما لى أنا ، إنه وحده السبب ، ليتحمل نتائج مغامرته ، إنه ليس حمل زكية
ولا أم زكية .

وعندما تناول الكوب ، استدارت متجهة إلى الباب ، وحسب الخطئة
الموضوعة لم تكذب تسير بضع خطوات حتى انحنى لتلتقط شيئا من الأرض ..
لست أدرى ما هو .. على أية حال ، الشيء لم يكن بذى أهمية ، المهم هو الانحناء
نفسها .. فكما انحسر صدر الثوب فكشف الثديين ، انحسر ذيله ، فكشف عن
الساقين ، وما أدراك ما الساقين .

أما عن اللون فأبيض مخدوم ، أعنى أبيض يابضا ممسوحا كالرخام .. ليس به
أثر لمسام ولا شعيرات ، أما عن التركيب أو الكسم ، فامتلاء مسحوب إلى
أسفل مع غمازتين فى باطن الركبة ، واستدارة دقيقة فى الكعب ، وقد بدا جزء

من باطن الفخذين بادی الاكتناز ، ناصع البياض .. تتخلله شعيرات من عروق
دقيقة متشعبة من غمازتي ثنيتي الركبتين .

يا هوه !!

كان ذلك هو لسان حال صاحبنا ، وقد وضع شفتيه على كوب الشربات ،
وعينه على كيزان العسل .

واختفت زكية .. وحسن أفندى ما زال محمقا والكوب في يده لم يذق منه
قطرة .. وابتسمت « أم زكية » في خبث ورفعت أحد حاجبيها .. وقد ملأها
الثقة في نجاح خطتها الهجومية الرائعة بالثدين والساقين .. وقالت في لهجة
ملحنة :

— ما تشرب يا حسن أفندى يا خوية .. الشربات ده مش عاجبك والا إيه ؟

— عاجبنى ، عاجبنى أوى .. يا ست أم زكية .

ومرة أخرى ران الصمت وعادت أم زكية تنتظر .. كما ينتظر القط .. فأرا
على وشك الوقوع .

وطال الصمت بصاحبنا وهو غريق في وجهه واضطرابه وأخيرا قالت أم
زكية :

— خير يا سى حسن أفندى خير .

— خير يا ست أم زكية .. أنا أصلى جاى .. علشان .. أصلى كنت بقول

لو كان ممكن ...

— إيه هوا بس الى لو كان ممكن ؟

— أتجوز بنتك زكية .

نأنا نهارك أسود .. يا حسن أفندى !.. كده مرة واحدة .. جواز خبط
لرق !.

ويبدو أن المرأة لم تكن تتوقع قط أن يبلغ انتصارها هذا الحد ، فقد بدت عليها
دهشة سرعان ما أخفتها ثم قالت في لهجتها المنغمة :

— يا سلام يا حسن أفندى .. غالى والطلب رخيص .. زكية ، وأم زكية ، وأهل زكية كلهم فذاك .

ولم أدر ما قال حسن أفندى بعد ذاك .. فقد كان فى حالة ذهول وارتباك ، ولم أكن أقل منه ذهولا ولا عجبا .

وهكذا اتضح فى النهاية أن صاحبنا الغبى قد أتى ليطلب القرب من أم زكية . ودهشت وأصابنى حنق على الرجل ، فقد كنت أعلم أن القرب من أم زكية ، وزكية ، شىء غير مأمون العاقبة ، وأن البعد عنهم كما يقول المثل غيمة . لا أطيل عليكم .. لقد رحبت المرأة بحسن أفندى أيما ترحيب ، ولم تمض بضعة أيام حتى حدث القرب فعلا .. وانتقلت أنا وصاحبى وبقية الكراكيب إلى بيت أم زكية .

مرت الأيام ، وبدأنى أن حسن أفندى لم يعد كما عهدته من « العياقة » والانسراح ، فقد أضحى موضعى الدائم فى رأسه هو المؤخرة .. وهو الموضع الذى كنت أستقر فيه عندما يصبح فى حالة ضيق وتبرم .

وفى ذات يوم عدنا إلى البيت .. وقذف بى صاحبى فى ضيق ، فاستقر بى الحال على أحد المقاعد ، ودخل هو إلى حجرة النوم .. فاصطجع فى الفراش وعلا شخير .

ونظرت حولى فأدهشنى أن أجد هناك طربوشا آخر قد استقر على مقعد آخر ، وتملكنى الأسف ، فقد أدركت أن حسن أفندى قد مل صحبتى وابتاع لنفسه طربوشا جديدا ، وأنه ينوى أن يطردنى من خدمته .

ولكن أسفى قد تحول إلى حيرة شديدة عندما أبصرت برجل يخرج من داخل دولاب الملابس .. ويتسلل على أطراف أصابعه .. ويتقدم إلى فيضعى على رأسه ، ويترك طربوشه لحسن أفندى .

واستقر بى المقام على الرأس الجديد .. ومنذ ذلك اليوم وأن لا أرى حسن أفندى أو أسمع عنه .. حتى كان ذات يوم أرسلنى صاحبى الجديد إلى المكوجى ،

وجلست مع غيرى من الطرايش نقطع الوقت بالدرشة .. وقلت لجارى فى معرض القول :

— هذه أول مرة أحضر إلى هنا . إني لم أبصر المكوجى قط عندما كنت على رأس حسن أفندى !

ونظر إلى الطربوش فى دهشة وقال متسائلا :

— ماذا تقول ؟ أنت كنت على رأس حسن أفندى ؟

— وأى شئ فى ذلك يبعث على الدهشة ؟

— لأننى أنا أيضا مررت برأس حسن أفندى !

وهنا تدخل طربوش ثالث ، فأنبأنا بأنه قد جرب رأس حسن أفندى بضعة أيام ، ثم تدخل طربوش رابع وخامس وسادس ، حتى اتضح أنه ليس هناك طربوش فى المحل إلا ومر على رأس حسن أفندى .

وقلت لنفسى متسائلا :

« ماذا جرى لصاحبى المسكين « البصباص » لقد طالت صحبتي له دهرا

طويلا ؟! ماذا يجعل الطرايش لا تستقر على رأسه .. وتتبدل عليه الواحد تلو الآخر » .

زكِيَّة الحنش

هذا حديث شبشب .. عليم بما في الخدور ، وما في الصدور .. قد يتشابه حديثه مع ما تحبته بطون غيره من الشباسب .. وقد يظن أحدهما أننا نعيه بحديثنا .. ويتهم من أصحابه بأنه هتك سترها وأذاع ما خفى من أمرها .. ولكننا نؤكد أن شبشبنا هذا من نسج الخيال .. وأنه ليست له أية صلة — من قريب أو بعيد — بشباسبهم الموقرة ، وعلى ذلك فلسنا مسئولين عما قد يحدث من تشابه أو التباس .

وأخيرا خرجت من الظلمات إلى النور ، وتربعت على عرش أطل منه على هذا الحشد العجيب من المخلوقات الأدمية تمر بى رائحة غادية .

لقد تم خلقي منذ بضعة أيام .. وأصبحت مخلوقا أنيقا فاخرا .. بهذه البشرة الناعمة اللامعة من الستانيه الأزرق ، وتلك « القيونكة » التى تحتل مكانها فى صدرى ، وهذا البوز الرفيع الدقيق ، والباطن اللين الطرى ، والكعب العالى المرتفع الذى يرفع هامتى ويزيد قدرى ويملؤنى غرورا وكبرياء على غيرى من شباسب العباد التى لا كعب لها ولا بوز ولا فيونكة .

وجلست فى ركن من « الفاترينة » الزجاجية الأنيقة .. وسط خليط من الأحذية والشباسب ، التى اختارها صاحب المتجر لتعرض فى الفاترينة .. وأخذت أرقب المارة والمتسكعين فى شارع فؤاد الذين لا عمل لهم إلا التطلع إلى واجهات الحوانيت والتأمل فى معروضاتها .

.. وظلت الوجوه تتواتر علىّ .. ما بين محملقة وعابرة .. ومتمنية وزاهدة ..

ويائسة وحالمة .. حتى أطل علىّ وجهها أخيرا .. وقد بدت فيه نظرة إعجاب .. ولحتها تدفع صاحبها بمرقها في جانبه لتلفت نظره الذى شغل بتتبع ساقين تعبران الطريق .

والثفت إليها متسائلا عما تريد فأشارت إليّ قائلة :
— شهبشب لطيف .

وأحسست بالفخر والغرور .. فالشبابشب كالغواني .. يغرها الثناء .
وقلت لنفسي مجييا تحيتها : « ده من أصلك » .
وهز الرجل رأسه موافقا على أنى « لطيف » .. وهم بمعاودة السير .. ولكنها نظرت إليه نظرة تأنيب .. فهى لم تقصد بتقريظى أن يجاوبها بتقريظ مثله .. بل رمت إلى أكثر من ذلك .

وتوكل صاحبها على الله ، ودخل وإياها الدكان .. وبعد لحظة امتدت إلى يد من الداخل ، ثم أدخلت في قدمها لحظة على سبيل التجربة وسمعت التاجر يقول « مبروك » .. وبعد هنية ضمنتى ظلمة معتمة داخل صندوق من الورق تمددت فيه .

ولم أبصر شيئا مما حدث بعد ذلك .. حتى أحسست بنفسي أخرج من الصندوق .. وأترك ظلمته الدامسة .

وتلفت حولى فإذا بى فى غرفة نوم أنيقة فاخرة الرياش توسطها فراش مكسو بالستان الأزرق وأبصرت النوافذ مغطاة بستائر زرقاء ، وبدالى كل ما فى الغرفة قد غلبت عليه الزرقة فأدركت سر اختيار صاحبتى لى وأن لوى هو الذى أغراه بى .. لأنها لا شك امرأة فنانة .

وكانت تجلس وحيدة فى الغرفة على مقعد صغير منخفض أمام التريجة ، وقد نضت عنها ثيابها إلا من قميص داخل أزرق شفاف .. وأمسكت بى تتأملنى برهة ثم دستنى فى قدمها وشغلت عنى بعد ذلك بتأمل وجهها فى المرآة .
.. وضايقتنى رائحة القدم لأول مرة إذ لم تكن تتناسب كثيرا مع تلك العطور

التي تفوح من الزجاجات التي رصت على التسريحة .. ولا حتى مع رائحة
النفثالين التي كانت تفوح من الصندوق الذي كنت أرقد فيه .
وألقيت على القدم التي دسّت فيّ تحية مقتضبة .. إذ لم أحس لصحبها كثير
فرحة .. لقد كنت أتوقع أن أجدها خيرا مما هي .. لقد تصورتها طرية ناعمة
منتظمة كقالب الزبدة .. ولكنني فوجئت بأصابعها المعقلة وبالكلو ينخس
جانبي كالسكين .. وبياطنها الجاف وعروقها النافرة .
قلت لها متأذيا :

- سعيدة .
- سعيدة مبارك .
- إني أشم رائحة كريهة .
- ستعودها بمضى المدة .
- ولكن هذه العطور المخصوصة ما فائدتها ؟ .
- لا فائدة منها .. إنها لا تجدى معي نفعا .. الحمد لله .
- على ماذا ؟ .
- على ما صرنا إليه .
- لست أرى بك ما يستحق الحمد . اللهم إلا الحمد على المكروه .
- وهذا الطلاب الأحمر الذي يزين أظافري .. ما رأيك فيه ؟
- لا بأس .. ولكن الأظافر نفسها .
- ما لها ؟
- مش ولا بد .
- ماذا كنت تقول إذا لورأيتها فيما مضى .. وقد كستها الحنة ولوثها الطين
والأتربة ؟

— حنة وطن وأتربة في أظافرك أنت ! ومن أين لك هذا ؟ .
— وأكثر من هذا .. الحمد لله على المانيكير والبديكير ، الحمد لله على

وجودك .

— وجودى أنا ؟!

— أجل .. بعد طول الحفاء .. وبعد طول العدو على الأسفلت المحرق في هجير بؤرنة .. والوقوف على البلاط الرطب وسط مياه الغسيل في الرطوبة .. رحم الله القبقاب .. لقد كان أفخر ما ارتديت وقتذاك .. كنت أطرق به على سبيل التفاخر وانتزاع الإعجاب من خدام الحى وبوابيه .. أبعد كل هذا لا تريدنى أن أحمد الله على وجودك أنت وأمثالك من عليه الشباشب الأنيقة والأحذية الفاخرة والجوارب النايلون ؟!

— هذا أمر عجيب .. أنت قد عدوت على الأسفلت عارية حافية ؟. ونعنت في مياه الغسيل .. قولى شيئا غير هذا .. إنك لا شك تسخرين منى .
وهنا سمعت صوتا أجش ينادى من الخارج :
— زيزى هانم .

وكانت زيزى هانم ما زالت جالسة أمام التسمية تفحص وجهها في المرآة وتصلح التروش فأجابت بصوت ناعم ممدود :
— حاضر يا شيرى .

وعدت أوجه القول للقدم التى أخذت تحرك أصابعها فى باطنى :
— أجل .. أنا لا أستطيع أن أصدق شيئا من قولك هذا .. هل يعقل أن زيزى هانم التى لا يحتمل مزاجها إلا اللون الأزرق تجرى حافية على الأسفلت .. وتنتزع إعجاب الناس بطريقة القبقاب ؟ .. هذا منتهى التشنيع .
— أى تشنيع ؟ .. أنت شباشب غشيم مستجد .. أنا لم أقل غير الحقيقة .
— ولكن كيف يحدث هذا ؟ كيف ينقلب الحفاء .. إلى نايلون ؟
— ليس هذا وقته .. سأخبرك بعدين .

وكانت زيزى هانم قد أتمت إصلاح التروش ونهضت فارتدت روبا من الحرير الأزرق وغادرت الحجرة .. وسارت تطرق الأرض طرقا منتظمة

ذكرتنى بطارقة القبقاب التى قالت القدم إنها كانت تنتزع به إعجاب خدم الحى .

وتوقفت أمام باب أطلت منه قائلة :

— اتفضل يا شيرى .

ونظرت إلى « شيرى » فوجدته قد حجب عنى كل شىء عداه .. أو بوجه أدق .. عدا كرشه المتنفخة التى تدلى فوقها الصديرى ذو الكتينة الذهب . وجلس الاثنان على المائدة .. وحجب عنى المفرش الذى تدلى من فوق المنضدة كل شىء عدا ساقيا وساقيه .. ووجدت الفرصة سانحة لأن أعاود حديثى مع القدم على أستين منها بعض ما خفى على . قلت لها :

— خبرينى كيف كانت زيزى هانم تعدو حافية على الأسفلت ؟

— لم تكن وقتذاك قد أضحت زيزى هانم .. فقد كانت زكية الحنش .

— زكية إيه ؟

— الحنش .. بنت المعلم مئى مئى بياع الكسبة !!

— ما هذا الذى تقولينه ؟ حنش .. ومئى مئى .. وكسبة !!

— طبعا .. أنت شبشب ذوات .. لا تعرف الكسبة ولم تسمع عن مئى مئى

الحنش .. الله يمجحه .. لقد ذقت منه الأمرين .. طالما اكتويت بخيزرانتة ..

عندما كانت زكية تهرب من البيت الذى تخدم فيه .. أو كانت تتصرف فى بضعة

قروش من أجرها .. ألا تحس بذلك البروز فى عرقوبى ؟ .. إنه أثر التواء حدث لى

عندما قفزت زكية من النافذة بعد أن كاد أبوها يقتلها من الضرب ذات مرة ..

أنهت لم أحمد الله .

— مفهوم .. ولكن ..

— ولكن ماذا ؟!

— كيف حدث هذا الانقلاب ؟ كيف أضحت زكية الحنش زيزى هانم ؟

وهنا أحسست بقدم الرجل « شيرى » تقترب منى متسللة ثم وجدتها تضغط علىّ .. وأحسست أن القدم فى باطنى تتلوى من الألم .. وهمست بها فى خوف :

— ماذا يريد هذا الحيوان ؟.

— غزل .. هو دائما يبدأ غزله هكذا !.

وانسحبت القدم من تحت قدمه ولكنه عاد يقترب بساقه .. أو ساق الفيل كلها .

ووصل إلى صوته من فوق المنضدة يقول وفمه محشو بالطعام :

— عبد الحميد بك قال لى إن الفيلم مدهش .

— متى رآه ؟.

— رآه فى العرض الخاص الذى عرضناه له أمس .. لقد انتظرناك طويلا ولكنك لم تحضرى .. لقد قال إنك بلغت القمة .

— حقيقى !

وسمعت طرقعة قبلة .. أغلب الظن أنها منها هى لأن فمه كان فى حالة من الامتلاء لا تسمح له بالتقيل .

وعدت أسأل القدم :

— لم تخبرينى بعد .. كيف حدث الانقلاب العجيب ؟. ماذا حدث لزكية الحنش بنت المعلم مأ مأ ؟

— مئى مئى .

— مئى مئى .. مأ مأ .. كله يتساوى .. نحن لم نغلط فى البخارى .. قولى ماذا حدث ؟

— هذا حديث طويل .

— دعينا نقطع به الوقت .. دعينا نتسلى .

وأحسست بها تنسحب منى قليلا وأبصرت بأصابعها تتلوى فسألتها :

(أغنيات)

— ١٤٦ —

- ما بالك تتباعدين ، وما بال أصابعك تتلوى هكذا ؟
- لقد أطبقت على .. ما لك تضغط على أصابعي هكذا .. حتى جعلتني أضيق بك .
- معك حق .. بعد طول الحرية والانطلاق على الأسفلت .. لا بد أن تضيقى لى .
- أقصر لسانك .. ولا تكن قليل الأدب .
- أقلت شيئا من عندى ؟ .. ألم تعترفى أنت بذلك منذ لحظة ؟
- أجل . ولكن هذا شيء مضى .. يجب أن تناساه تماما .. وتنكره تمام الإنكار .. يجب ألا تذكر إلا أنى لم أعود السير إلا على السجاجيد العجمى فى بيت بابا .
- مئى مئى الحنش ؟
- لا .. لا .. بابا .. محمد باشا الحنكاش .. صاحب عقارات وأطيان .. وسليل أكبر عائلات الدقهلية .. وابن ..
- مفهوم .. مفهوم .. ابن زكى باشا الحنكاش .. الذى ينتمى إلى الدوحة الكريمة المفضلة .
- تستطيع أن تقول هذا .. ويجب أن تذكر أيضا أن هذا التواء فى العرقوب نتيجة للوقوع من على الحصان .. فى إحدى النزعات الخلوية فى العزبة .
- والكالو ..؟
- من ضيق الأحذية البالى .
- والعروق .. والقشف .. والزرقان ؟
- لا تذكر شيئا من هذا .
- والرائحة ؟
- تناساها .
- لا .. لا .. كله إلا هذا .. أرجوك أن تبقى بعيدة عني .. أجل ..

— ١٤٧ —

- هكذا .. دعيني أشم نفسي .. إن البعد عنك غنيمة .
 — غنيمة يا عرة الشباشب .. خذ .
 ثم عادت تندس فيّ بعنف وقلت مهدئا :
 — لا تريدن مزاحا ؟
 — أكنت تمزح ؟ .
 — بالطبع .. ما دام قد حكم عليّ بعشرتك المؤبدة .. أستطيع أن أضيع
 العمر معك في خصام ؟ . قولي ماذا حدث لصاحبك زكية الخنش ؟
 — قلت لك انس هذا الاسم .
 — زكية الخنكاش ؟
 — زيزى هاتم كفاية .
 — ماذا حدث لزيزى هاتم ؟
 — هربت من بيت أبيها .
 — بيت أبيها ؟!
 — أبيها ؟! أيها الغبي .. من قال لك إن لأبيها بيتا .
 — لم يكن له بيت !! .. الخنكاش باشا لم يكن له بيت ؟! أين إذا كان يضع
 السجاجيد العجمي .. أكان يفرشها على الرصيف ؟
 — أبيها الأبله .. لم يكن أصبح بعد الخنكاش باشا .. كان لم يزل مئ مئ
 الخنش .
 — ليكن مئ مئ الخنش .. أين كان يبيت ؟ .
 — في الإسطبل .
 — إسطبل ؟!! .
 — أجل في الإسطبل .. غريبة هذه ؟
 — أبدا .. أبدا .
 — إذاً علام الدهشة ؟

— لا شيء... لقد كنت أظن أنه من بنى آدم .. لم يخطر لي على بال أنها ابنة حمار .

— حمار ؟ .. من قال لك إن أباه حمار ؟

— ألم تقولى أنت الآن .

— أنا قلت هذا ؟ .

— ألم تقولى إنه ينام فى الاسطبل .

— وهل كل من ينام فى الإسطبل حمار .. يا ابن الحمار ؟

— أنا ابن حمار ؟ .

— لا .. ابن عجل .. ابن معزة .. أستكون شيئاً أكثر من هذا .

— عيب اختشى إن أبى ميت .. ولا أحب أن يذكر أحد سيرته بالسوء .

— ميت !!؟ .. أتريد أن يكون أبوك حيا .. لقد تعودت أن أعامل الشباشب

هكذا .. أتعجبك المعاملة .. إذا كان شبشب سيخبرنى أن أباه ميت فكيف أسبه وكيف ألعن أباه ؟

— على أية حال دعينا من هذا .. قولى لى كيف كان ينام المعلم مئ مئ فى

الإسطبل وهو ليس حماراً ولا بغلاً ولا حصاناً .. ماذا كان يدفعه إلى هذا ؟ عمله .

— أكان خادماً لإسطبل ؟

— قطع لسانك .. خادماً لإسطبل ؟! المعلم مئ مئ الخنش على سن ورمح ..

خادماً لإسطبل ؟

— ماذا كان عمله إذاً .. قولى وأريخينى ؟

— مدير شركة .

— شركة ؟

— أجل .. شركة نقل ؟ كان لديه حماران وعربتان كارو .

— مدير شركة كارو ؟! . يعنى عربجى كارو ! والله يرحمه كان يملك وسائل

— ١٤٩ —

- نقل أخرى .. يعنى ترميمات .. سكك حديد ؟
— الله يرحمه ؟ .. قال الله ولا فالك .. إنه ما زال على قيد الحياة .
— كان ؟! وما زال يقوم بإدارة شركاته ؟
— شخصيا بنفسه .. يسير وراء الحمار من مصر القديمة إلى مصر الجديدة .
— وماذا يقول عنه الناس ؟
— ومن أدراهم أنه أبوها !
— ألا يزورها ؟
— أبدا .
— ألا تزوره ؟
— أبدا .. أبدا إنها تسكت عنها ببضعة جنيهات من آن لآخر كلما هدها بإعلان أبوته .
— شيء جميل .. إعلان الأبوة قد أضحي جريمة في حق الأبناء !
— في مثل هذه الحالة .. نعم .
— كنت أقول إنها هربت من البيت .
— بيت من إذن ؟
— بيت أسياها التي كانت تعمل عندهم .. لقد هربت منه في إحدى الليالي ، وصممت ألا تعود إليه ..
— وماذا فعلت إذن ؟
— هامت على وجهها ، واشتغلت ببضعة أعمال مختلفة كجمع الأعقاب ، والشحاذة .. ثم انتهى بها الأمر أخيرا إلى الاشتغال بالأعمال الحرة .
— أجل .. اشتغلت حرة ؟
— حرة .. ماذا تعنين ؟
— أعنى حرة في جسدها ، تفعل به ما تشاء .. وكان جسدها قد أضحي في ذلك الوقت صالحا للبيع ، والإيجار ، وعرضته في السوق .. فدرّ عليها شيئا من

الريح .

— وماذا حدث بعد ذلك ؟

— استمرت في عرضه حتى حلت الحرب .. فارتفع سعره ضمن بقية
البضائع التي ارتفع سعرها .. واستطاعت بذلك أن تضع قدمها على أول
درجات الكادر .

— كادر ؟!

— أجل .. كادر الأرستات .

— ألهن كادر ؟

— بالطبع .. كادر ذو درجات وعلاوات .

— لست أفهم !. لم أسمع عن هذا الكادر من قبل !

— يبدأ الكادر بخادمة ، وهي تقابل عامل خارج الهيئة .

— وبعد ؟

— متشردة .. تقابل درجة ثامنة مخفضة .

— وبعد ؟

— تتدرج .. إلى فتاة شارع .. ومن فتاة شارع إلى أرتست حرب .

— ومن أرتست حرب ؟

— إلى أرتست صالة وهي تقابل تقريبا الدرجة الرابعة .

— وبعد ؟

— يحتاج الأمر لشيء من الكفاءة .

— كفاءة ؟

— أجل .. فبدلا من أن يكون عملها مجرد الجلوس مع الزبائن والفتح وتأدية

الواجب .. يصبح عملها راقصة أو منولوجست .. وهو أمر يحتاج إلى موهبة في

تلعب الوسط والأرداف .. أو في الصراخ بصوت مقبول .

— ما شاء الله .. وعندما تصبح راقصة ؟

— ١٥١ —

- يحتاج الأمر بعد ذلك إلى واسطة .. أجل لا بد من الواسطة لكي تنتقل إلى الدرجة التي تليها .. فالموهبة وحدها لا تكفى .
- وما هى هذه الدرجة التي تليها ؟
- تقابل مدير عام .. وقد يصادفها الحظ وتضحى فى درجة أرفع من ذلك .
- لست أفهم .
- ترتقى إلى درجة نجمة سينائية .. حرف ج ثم ب ثم أ .
- أهذا يحتاج إلى واسطة ؟
- أجل .. وهذا هو ما حدث لصاحبتنا .. لقد صادفت الواسطة .
- ومن كان واسطتها ؟
- هذا الخلف الكبير الجالس أمامك .. لقد كان الواسطة التي رفعتها من راقصة إلى نجمة .
- كيف ! أهو من كبار المخرجين ؟
- لا .
- من كبار الممثلين ؟
- لا .
- من كبار أصحاب الشركات السينائية ؟
- لا .. لا .. لا شيء من هذا مطلقا .
- ماذا يكون إذن ؟
- تاجر خردة .
- تاجر خردة ؟! ألم أقل لك إنك أكبر « مشنعية » ؟ كيف يستطيع تاجر خردة أن يرفعها من راقصة إلى نجمة ؟
- رآها ترقص ذات مرة فى كباريه .
- ثم ؟
- أعجبته .. دخلت مزاجه .. فتح لها زجاجة بيرة ..

— وبعدين ؟

— زجاجة شبنانيا .

— وبعد ذلك ؟

— فتح لها هذا البيت ، ثم فتح لها شركة سينمائية وعمل لها فيلما لتكون بطلته . مسألة طبيعية جدا لا تعدو سلسلة من الفتوحات .. أما زلت ترى في الأمر غرابة ؟
— كلا .

وأخيرا نهضت زيزى هانم و« شيرى بك » خردة إذ لا أعرف له اسما غير هذا .. فالهانم لا تدعوه إلا بـ « شيرى » ، والقدم لم تذكر لى عنه إلا أنه تاجر خردة .

وبعد فترة راحة فى حجرة الصالون دخلا معا إلى غرفة النوم .
ولم أبصر شيئا بعد ذلك ، فقد دفعت بى القدم إلى أسفل السرير .

* * *

مرت الأيام والحياة تسير على وتيرة واحدة حتى بدأ الفيلم بعرض .
وفى ذات ليلة حضر خرده بك وقد بدت على وجهه أبلغ علامات اليأس ..
وعلمت مما دار بينه وبين زيزى هانم أن الفيلم سقط سقوطا شنيعا وأنه قد خسر الجلد والسقط .

وفى الليلة التالية حضر إلى الدار شيرى جديد ولنسمه دوبارة بك ، فقد فهمت من حديثه أنه يملك أكبر مصانع الدوبارة والخيش ، وفهمت كذلك أنه ينوى أن يفتح لها هو الآخر شركة سينمائية ويخرج لها فيلما .

دخل الشيرى الجديد حجرة النوم .. كما دخل صاحب له من قبل ، واتخذت أنا مجلسى المعتاد تحت السرير .

وفجأة سمعت طرقات شديدة على الباب ونهضت زيزى فى فزع لترى من الطارق .

كان الطارق هو الشيرى القديم .. خرده بك .
 سألها من الذى عندها .. فأجابته : « مش شغلك » . وصرخ فيها فصرخت
 فيه .. لعن أباه فلعلت سنسفيل أجداد أبيه .. صفعها صفعته ، ثم دارت
 المعركة . حامية الوطيس .. مستعرة الأوار .
 ولم تخفى المعركة فى أول الأمر .. بل لقد وجدت فيها شيئا يبعث على
 التسلية .. ما دمت أقف فيها موقف المتفرج .. المحايد .. أو غير المحارب .
 ولكنى فجأة وبدون سابق إنذار وجدتنى أنتقل من القدم إلى اليد .. وإذا بى
 أستعمل استعمالا لم يخطر لى قط على بال .. فقد أصبحت سلاحا فتاكا للقتال ..
 ووجدت نفسى أخوض غمار المعركة فأهوى على أصداغ صاحبنا بالكعب .
 ولم أكن أظن فى نفسى تلك القدرة على القتال .. فقد كنت السبب فى تحول
 دفعة المعركة ، وتقهقر الخصم وانطلاقه لائذا بالفرار .
 وعادت زيزى هانم بعد أن أغلقت الباب بشدة ودخلت غرفة النوم ..
 وأبصرت دوباره بك قد تكوم واختبأ فى ركن الغرفة ، ولكنه لم يكد يراها حتى
 ظهر مبرزا شجاعته ونظرت إليه وإلى أصداغه وإلى قفاه .. وأحسست برغبة
 جارفة فى القتال .. فقد فتح منظرهما شهيتى .. ولكن زيزى هانم دفعت بى تحت
 السرير .. وهمست للقدم قبل أن أفارقها : قولى لدوبارة بك إن اللقاء بيننا آت
 لا ريب فيه .

عبد البر أفندى

لم يكن سخط عبد البر أفندى ناتجا عن تعلقه بوظيفته الحكومية ، فقد كان هو الآخر متبرما بها كارها لها . بل لأنه لا يرى في وظيفة الشركة خيرا من وظيفته الحكومية .. وأكثر من هذا .. كان سخطه لأنه يرى نفسه مخلوقا لا إرادة له ، وأنه يحرك هنا وهناك كأنه إحدى قطع الشطرنج .

لو تجسدت الخيبة فصارت رجلا لما كان سوى « محمود أفندى عبد البر » .. فقد كان مخلوقا غير مستقل ، مسلوب الإرادة فاقد الحرية ، مقيدا إلى إنسان آخر .. يحركه كما يريد ، وهو صاغر راض .. لا يريد التخلص لأنه لا يعرف كيف يعيش إذا ترك لنفسه .

وكان هذا المخلوق الذى شد إليه محمود أفندى هى أخته « بهية » .. وهى مفتشة فى وزارة المعارف ، وقد تولت أمره منذ الصغر بعد أن ماتت أمهما ، ولم يكن الفارق فى السن كبيرا إلى الحد الذى يجعلها تسيطر عليه وتهيمن على كل أموره ، ولكن الخيبة التى رزىء بها جعلته يبدو كطفل فى حاجة إلى من يدبر أمره .. حتى بعد أن أصبح رجلا صاحب عمل وصاحب وظيفة .. لا يكاد يتصرف فى أنفه أموره ، ولولا بقية من حياء لانتهى الأمر ببهية هائم لأن تذهب به كل صباح إلى عمله وتعود به فى الظهيرة إلى بيته ، وماذا يمنعها من ذلك ؟! وهى التى تطعمه ، وهى التى تكسوه ، وهى التى تذهب به إلى هذه الزيارة أو تلك .. أو هذا الموعد أو ذاك .

ولقد أصابته نوبة التذكر والسخط على حالته هذه وهو يغادر الدار

بمصر الجديدة قاصدا إلى المترو ليحمله إلى شارع فؤاد فقد طلبت منه أخته أن يسبقها إلى جروى حيث دعت « على بك رحى » مدير إحدى شركات الغزل الكبرى (الذى تعرفت عليه أخيرا فى إحدى الحفلات المدرسية) أملا منها فى أن يجد له وظيفة فى الشركة خيرا من وظيفته الحكومية التافهة .

ولم يكن سخط عبد البر أفندى ناتجا عن تعلقه بوظيفته الحكومية فقد كان هو الآخر متبرما بها كارها لها .. بل لأنه لا يرى فى وظيفة الشركة خيرا من وظيفته الحكومية . وأكثر من هذا .. كان سخطه لأنه يرى نفسه مخلوقا لا إرادة له ، وأنه يحرك هنا وهناك كأنه إحدى قطع الشطرنج ، وهو أجبن من أن يشور على حالته أو يعلن رغباته .. لقد كانت قصارى أمانيه حقاً أن يترك وظيفته الحكومية ليفتح حانوتا لبيع طوابع البريد القديمة ، وهو يعرف حانوتا فى شارع فؤاد كان صاحبه يرغب فى بيعه .. أى مستقبل ينتظره لو انتهر الفرصة وأقبل على شراء الحانوت ؟ ولكن هل يجسر على أن يقول ذلك لأخته ، وهى التى تعتبره مخبولا لمجرد غوايته جمع الطوابع ؟

وركب صاحبنا المترو وقد شرد ذهنه ، وبعد لحظة خيل إليه أن هناك من يخلق فيه بنظراته ، والتفت فجأة فوجد عينين ترمقانه فى استطلاع ودهشة كأنه حيوان غريب ، ولم يكن صاحب العينين المحملقتين سوى طفل قد تمدد فى حجر أمه .

وأحس محمود أفندى بشيء من الحياء .. فقد أخجله أن يكون منظره غريبا أو مضحكا بحيث يسترعى نظر الطفل دون سائر خلق الله الراكبين فى المترو ، وضحك الطفل فراد فجعل محمود أفندى ، ولكنه حاول إخفاءه بأن ضحك هو الآخر فى وجه الطفل .. ليوهم من حوله بأنه هو البادئ بإضحاك الطفل ، وأخذ يشير إليه بأصبعه .

ولم تمض لحظة حتى توثقت عرى الصداقة بين الطرفين : محمود أفندى طرف أول ، والطفل طرف ثان ، وقد شجع محمود أفندى على هذه الصداقة ما لمح

بطرف عينيه من ملاحظة الطرف الثالث .. وهى أم الطفل ، وأخيرا وقف المترو في محطته الأخيرة بشارع عماد الدين ، وأخذت الحسنة تحكم لف طفلها وحملته على ذراعها ثم مدت اليد الأخرى لتحمل الحقيبة القماش التى وضعت بها ملابس الطفل ، وبدا محمود أفندى أنه يجب أن يتقدم لمساعدتها فيحمل الحقيبة عنها .. فأجابته بابتسامة عذبة وتمت بوضع كلمات شكر ..

ووقف الرجل وسط الازدحام وقد حمل الحقيبة المنتفخة وأمامه المرأة وقد أخذت تلفت حولها في حيرة . وتنحنح عبد البر أفندى وتساءل في تردد :
— أستطيع أن أوصلك إلى أى مكان ؟

— أشكرك .. إني أبحث عن زوجى فقد أنبأنى أنه سينتظرني عند محطة المترو لكي يرافقنى إلى الطبيب .

ولم يدر عبد البر بم يجب .. إن الموقف يستدعى أن يقول شيئا على سبيل « جبر الخاطر » .. فالسيدة ذاهبة إلى الدكتور فلا بد أن تكون مريضة .
ماذا يقول الناس للمريض ؟ .. لا بأس عليك !!؟ الله يشفيك ؟ ربنا ياخذ بيدك ؟ تقوم بالسلامة !!؟

لا .. لا .. هذه كلها أقوال تبدو ركيكة مضحكة .. إن خير ما يفعل هو أن يهز رأسه بأسف ، وفي هذا الصمت الأسف خير معبر تمنياته الطيبة للسيدة .
وكانت السيدة ما زالت مستمرة في التلفت في حيرة ، وأخيرا سألتها في لهجة نافذة الصبر :

— كم الساعة معك من فضلك ؟

وكانت الساعة في جيب البنطلون الصغير .. ساعة جيب كبيرة ورثها عن أبيه ، ولما كان يحمل الحقيبة بيده اليمنى ، وإخراج الساعة من جيبه لا بد أن يحتاج إلى يده اليمنى .. فقد اضطر إلى أن ينقل حمله أولا إلى اليد اليسرى ثم يدفع أصابعه في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء . ويحه من غيب أحرق .. لقد نسي الساعة كعادته !

ماذا يقول للسيدة ؟: ستظنه بلا ساعة .. مع أنه يملك ساعة محترمة .. مشرفة . ولم يجد بدا من محاولة البحث في جيوبه الأخرى حتى تدرك السيدة أن معه ساعة ولكنه لا يجدها ، وأخيرا .. وبعد أن نقل الحمل بضع مرات من يده اليمنى إلى اليسرى ومن اليسرى إلى اليمنى .. صاح في أسف :

— الظاهر أنى قد نسيت الساعة .. خسارة .. إنها ساعة فاخرة متينة لا تقدم ثانية ولا تؤخر ثانية .

— على أية حال كان يجب أن يكون موجودا الآن ، لست أدري ما الذى أخره ؟

— الغائب عذره معه .. لا بد أن يكون قادما فى الطريق .

— يجب أن أحدثه فى التليفون .. فربما ما زال فى المكتب .. إنه دائما ينسى نفسه .

وأخذت السيدة تدير بصرها فيما حولها .. وتنقلت عينها بين الحوانيت على الرصيف الآخر وبين المارة المتزاحمين فى الطريق والعربات المتلاحقة ، وأخيرا استقر بصرها على الطفل ثم انتقل منه إلى عبد البر أفندى .
كان واضحا أنها فى حيرة من أمرها كيف تعبر الطريق المزدحم وتخوض وسط العربات بالطفل فى يدها ، ثم كيف تستطيع بعد ذلك أن تطلب الثمرة وتتحدث فى التليفون .

وهنا تحركت النخوة والشهامة فى نفس عبد البر .

يجب ألا يقف هكذا متمسرا فى مكانه « كاللوح » .. يجب أن يعرض المساعدة ، وينقذ السيدة من حيرتها .. ولم يطل به التفكير حتى قال فى كرم وأريحية :

— هاتى « المحروس » وتفضلى أنت للحديث فى التليفون وسأنتظرك هنا ..

إنك لا تستطيعين أن تعبرى الشارع وأن تتحدثى فى التليفون وهو معك . ونظرت إليه السيدة نظرة فاحصة .. لقد كان من المتعذر حقا أن تتحدث فى

التليفون والطفل معها ، ولكن هل يرر ذلك أن تترك الطفل مع رجل لا تعرفه ؟
ولكنه يبدو رجلا طيبا مأمونا .. لا تبدو عليه مخايل شر أو سيما احتيال ..
على النقيض إنه أقرب إلى البلاهة والعبط ، وليس هناك من بأس على الطفل إذا
ما تركته معه .

وأخيرا استقر رأيها ومدت يديها إليه بالطفل .
وفوجئ عبد البر بالطفل في يديه .

لقد عرض على السيدة من باب الكرم أن يحمل عنها الطفل ، ولكنه كان مجرد
عرض لم يخطر له ببال وهو يعرضه أنه يمكن أن يصبح موضع التنفيذ .. لقد كان
عرضه أشبه بعرض عابر سبيل يمر بحمال ينوء ظهره بحمل ثقيل فيقول له من باب
الجمالة « عنك » فإذا بالحمال يقذف إليه بالحمل .

لقد كان خيرا العبد البر أن يقذف بأى حمل ثقيل من أن يتولى حمل هذا المخلوق
اللين الهش .

كانت المرة الأولى التى يحمل فيها طفلا ، وحمل الطفل في نظره ليس بالأمر
السهل .. إنه يحتاج إلى صنعة وإلى مهارة ومران .. هذا العظم الطرى ، لا بد أن
يحمل بطريقة فنية وإلا تهشم وتفتت .. إنه يحتاج إلى مثل طريقة الحجاج بن
يوسف الثقفى « شدة في غير عنف ولين في غير ضعف » .

لعنة الله عليه .. أى حماقة دفعت به إلى هذا المأزق الحرج ؟ إنه يعرف أنهم
يحملون الأطفال برقة فوق الذراعين أو فوق الكتف ولقد كان يمكن أن يقدم على
مثل هذه المحاولة لو أن كلتا يديه خاليتين ، ولكن ما حيلته وإحداهما مشغولة
بالحقيية .. إنه لم يعد أمامه سوى وسيلة واحدة ، هى أن يحمل الطفل كما يحمل
الحقيية تحت إبطه .

وهكذا طوى الطفل تحت إبطه كما يطوى حزمة فجل ، وأدار الطفل عينيه
ونظر إليه فى دهش وتساؤل كأنما يقول له :

— ما هذا أيها الغبي .. إني لم أعود أن أحمل هكذا .. لا تكن حمارا ، ودعنى

أعتدل .

ولم يملك عبد البر إلا أن يهز رأسه ويتمتم معتذرا للطفل :
— لا بأس عليك .. احتمل .. أنت ترى أفى لا أستطيع حملك خيرا من
هذا .. إن يدي مشغولة بحقية ملابسك ، ولا أستطيع تهشيكك وتدليلك ..
اصبر .. إن أمك آتية بعد برهة قصيرة .. إنها تحدث أباك في التليفون .. فكن
رجلا واحتمل .

ولكن الطفل الأحق أخذ يتململ في موضعه ويضرب بقدميه ..
وعاد عبد البر يخاطبه بقوله ناصحا :

— عيب .. عيب .. اثبت ، وإلا أفلت من يدي ووقعت على الأرض ..
كن عاقلا .. ماذا تراني كنت فاعلا — لو أن أحدا حملني كما أحملك — لا شيء ..
أتوكل على الله ، وأستقر في مكاني .

وتصور نفسه محمولا بتلك الطريقة تحت إبط عملاق ، فأزعجته الفكرة
وسرعان ما طردها من رأسه .

وعاد الطفل يضرب بساقيه ، وخشى عبد البر أن يفلت منه ، وتصوره قد
سقط على الأرض وشجعت رأسه وقتل لساعته .. ثم تصور المرأة قد عادت لتجد
طفلها قتيلا ، وتصورها قد أنشبت أظافرها في عنقه ، وتصور الصحف وقد
ظهرت وبها عنوان بالخط العريض « سفاح عماد الدين » وبعناوين فرعية كتب
فيها « موظف يقتل طفلا فقتله أمه » .

ترى ماذا يمكن أن تفعل أخته بهية ؟! هل ستيكيه أم تتبرأ منه .. باعتبارها
سفاحا يجلب لها العار ؟

وروعته الأفكار فاشتد تمسكه بالطفل وضغط عليه تحت إبطه بشدة حتى
لا يفلت وتقع المأساة التي دارت برأسه .

وهنا فاض بالطفل .. فانفجر باكيا صارخا .

هذه هي الفضيحة الكبرى .. لم يكن ينقص الموقف إلا هذا الضجيج الذى

يحدثه هذا الحيوان الصغير .. فيجذب إليهما أنظار المارة .
 إنهم يرمقونه شزرا ، والبعض يضحك عليه .. كأنه « أراجوز » ، ولم يجد
 بدا من مخاطبة الطفل ونصحه بالسكوت ، فقال له في لهجة جادة منذرة مخدرة :
 — عيب يا جدع .. اختشى .

ولكن الطفل لم يخش ، بل ازداد صراخا وازداد ضربا بساقيه ، وازداد تبعا
 لذلك ضغط عبد البر عليه .

وعاد عبد البر يقول ناصحا :

— هذا لا يصح .. لقد فضحتنا بين الناس .. اختشى يا سيدنا .. لا ترفص
 هكذا برجليك .. هذا ليس شغل رجال ..

وفجأة سمع صوتا يناديه في دهشة ، والتفت خلفه فإذا بها أخته قد حضرت في
 المترو التالى وبدأت تحملق فيه ذاهلة متسائلة :

— ما هذا ؟.

— طفل .

— أنا أعلم أنه طفل ، ولكن ما دخلك به ؟

— إني أحمله عن أمه حتى تتحدث في التليفون .

— أيها الأحمق .. اذهب وأعطه لها .. لقد تأخرنا عن الموعد .. أين ذهبت ؟

وتلفت الرجل حوله ثم أجاب ببساطة :

— لست أدرى بالضبط .

— ما شكلها ؟ .. وماذا ترتدى ؟

— شكلها ؟ حلو . ولست أذكر بالضبط ماذا كانت ترتدى .

ونظرت إليه المرأة في يأس وقالت :

— رجل في مثل سنك يقف في شارع عماد الدين حاملا طفلا وحقيقية

سيدات ، وطفل من ؟ . لا يدرى .. ماذا شكل أمه وماذا ترتدى ؟ لا يدرى ..

ماذا أفعل بك حتى لا ترتكب أمثال هذه الحماقات .. أأربطك بسلسلة !؟

كم مضى عليك وأنت واقف هذه الوقفة ؟

— خمس أو عشر دقائق .

— عشر دقائق ؟ .. أوكد لك أن المرأة لن تعود .. إنها « تلقيحة » وأغلب ظنى أنها لم تجد حمارا يمكن أن تلقى إليه بالطفل غيرك وتفر هاربة .. لا شك أنها خادمة أو مربية .. وقد هربت وألقت إليك بالطفل . هيا بنا إلى القسم نسلم لهم الطفل فليس لدينا وقت لهذه « المسخرة » .

— القسم !؟ إن أمه لا بد ستعود بعد لحظة .. أمسكى الطفل حتى أبحث عنها في أحد تلك الحوانيت .. إني أذكر أنها كانت ترتدى فستانا أزرق .

وبدأ محمود أفندى يعدو من حانوت إلى حانوت يسأل كل من يصادفه عما إذا كان قد رأى امرأة مليحة ترتدى ثوبا أزرق ، وعلى حين غرة أبصر بتاكسى قد وقف على جانب الطريق وقد تدلى منه ذراع امرأة ذات ثوب أزرق فهجم على التاكسى صائحا وقد أمسك بذراع المرأة :

— سيدى .. لقد نسيت طفلك معى !

وأطلت من العربية امرأة عجوز ونظرت إليه شذرا وتمتمت في دهشة :

— مجنون ! .

وأخيرا عاد محمود أفندى إلى أخته يخفى حنقه ولم يجد هناك بدا من أن يتبعها صاعرا إلى أقرب قسم بوليس . ووصلا إلى ميدان العتبة ودخلا قسم الموسكى ، ووقفا أمام الباشجاويز الذى أخذ يسألهما أولا عن اسمهما وسكنهما ثم أخذت المرأة تشرح القصة ، وعندما انتهت من شرحها نظرت إليها الرجل ببلالة دون أن يفهم شيئا وسألها فى غيظ :

— ماذا تريدان إذا ؟

— أريد أن أترك الطفل هنا ...

ونظر إليهما الرجل صاعرا فاه من فرط الدهشة :

— تتركين الطفل هنا ؟ .. لكى نضعه فى الزنزانة ... أم نختمه ونجعله حرزا ؟

(أغنيات)

أم نحضر له سريرًا ونطلب من البية المأمور أن يحضر لإرضاعه ؟. إننا لا نستطيع أن نعمل أكثر من مذكرة .. هنا قسم بوليس ، وليس ملجأ أطفال !.
— أنا أعلم أنه قسم بوليس ، وأرجو أن تكون في حديثك أكثر أدبا .
ولم يجب الباشجاو يش بأكثر من أن يأمر جنديا بأن يطردهما خارج القسم ..
فخرجنا . ووقفنا برهة في حيرة ثم طلب منها محمود أفندى أن تذهب هي إلى الموعد حتى يعود هو مرة أخرى إلى محطة المترو لعل المرأة تكون قد عادت فيعطيا الطفل ويلحق بها في جروني .

وعاد محمود أفندى حاملا الطفل والحقيبة ، وعندما وصل إلى محطة المترو كانت صورة المرأة قد تبخرت من رأسه تماما فكان من العبث أن يحاول البحث عنها .. ولم يجد خيرا من أن يضع الحقيبة على الأرض ويجلس عليها ويضع الطفل في حجره ويتنظر .

وانتظر محمود أفندى ، وطال انتظاره .. حتى أحس بماء دافئ ساخن يسيل على ساقيه فأدرك أن الطفل قد (عملها ...) وأصابه ارتباك شديد . وأدرك أنه لا بد من تغيير ملابس الطفل وإلا أصابه برد ، وسحب الحقيبة من أسفله واقترش الرصيف وبدأ يبحث فيها عن غيار للطفل . فأخرج كل محتوياتها حتى عثر على ما يريد .. ثم بدأ يبدل ملابس الطفل ، وسط عاصفة من البكاء والصراخ ، وهو يزرجه آونة ويدلله أخرى ، وأخيرا انتهى من مهمته الشاقة ، وبقيت مهمة أشق منها وهي إعادة الملابس التي تناثرت على قارعة الطريق إلى داخل الحقيبة .. وبدأ محمود أفندى عملية « الحشر » فإذا بالحقيبة لا تسع الملابس .

وأصابه اليأس واشتدت به الحيرة .. وبدأ يشك هو الآخر في أن المرأة قد « استكرده » فتخلصت من الطفل بإلقائه إليه ، ومن غيره يمكن أن تجده المرأة .. أكثر خيبة وأشد حمقا !!؟

ولم يسؤه الخاطر .. بل على النقيض .. أحس منه بفرحة ملأت قلبه ، إنه سيصبح مالك الطفل .. طفل لطيف لم يتعب في الحصول عليه ، ويهيء له هذا

الطفل الضئيل فرصة طيبة للثورة على أخته والتخلص من قيودها ، فيسترد حريته المسلوقة .. أجل .. سيعلمنا أنه سيبتاع حانوت الطوايع ويستأجر الطابق الذى فوقه ليكون على مقربة من الطفل .

ونفض محمود أفندى من مكانه ، وقد عرته نشوة هزت جوانحه .. و« لفع » الطفل على كتفه ، وسار يهز الحقيبة فى يده من فرط الطرب .. إنه ما تخيل قط أن أمله يمكن أن يتحقق ، ولكن ها هو قد انتصر أخيرا .. مع هذا الطفل اللطيف .. ترى ما اسمه ؟ لا بد له من أن يطلق عليه اسما من الآن ، وليكن عتتر .. مثلا .. « إزيك يا سى عتتر .. مبسوط يا سى عتتر » !

ووصل إلى جروى .. ولا أظن من السير بحال من الأحوال على أى امرئ ... أن يصف حال أخته وقد جلست مع الرجل المحترم « على بك رحى » .. تحدته عن كفاءة أخيها ونبوغه ، وأنه مقبول فى وظيفته الحكومية .. ثم تبصر بأخيها المذكور وقد « هل » عليها من باب جروى يخوض بين العيون المحملقة والأفواه الفاغرة مبتل البنطلون حاملا الطفل على كتفه بطريقة لم يسبق لها مثيل فى عالم حمل الأطفال .. وأخذ يهز الحقيبة .. المتنفخة المنبعجة ، وقد افتر تغره عن أعرض ابتسامه يمكن أن يفتر عنها ثغر .

ومضت لحظة ذهول قبل أن تفيق المرأة لكى تعرف الرجل بأخيها ، ومضت لحظة ذهول أخرى قبل أن يفيق الرجل ليعرف أن هذا المخلوق هو أخوها العبقري النابغة ، وجلس محمود أفندى وهو فى حالة رضاء تام عن نفسه وكان أول ما فعل هو أن مد يده فأمسك بإناء اللبن ودفع به فى فم الطفل قائلا فى غبطة « اشرب يا عتتر » . وأخذ عتتر يجرع اللبن وقد بدت عليه هو الآخر أتم حالات الهدو والاعتباط .

وبعد فترة صمت استعادت « بهية هاتم » نفسها وبدأت تدخل فى الموضوع فأنبأت على بك أن محمود أفندى على أتم استعداد للتخلي عن عمله الحكومى فى سبيل خدمة الشركة ، ولكن محمود أفندى قاطعها على حين غرة بقوله ببساطة

— لا .. لا .. لقد قررت أن أبتاع حانوت الطوايع وأن أستأجر الطابق الذى فوقه لأكون دائما على مقربة من عنتر .
وكانت صدمة ثانية للمرأة .. لم تفق منها هذه المرة إلا بعد أن استأذن على بك وتحركت وأخاها قاصدين إلى المترو للعودة إلى الدار .
وفى المترو جلست أمامه ترمقه بأقصى نظرات الحنق وقد وضع عنترا فى حجره وأخذ فى تدليله ، وبدأت هى تهمس إليه مفرغة جام غضبها :
— أقسم أنك لست آدميا .. هل يمكن أن يفعل إنسان غيرك ما فعلت ؟! إلى أعجب كيف بقيت إلى الآن فى عملك دون أن تفصل .
ونظر محمود أفندى إلى عنتر يستلهمه شيئا من الشجاعة ، ثم أجابها :
— لا فائدة .. لقد قررت أن أستقيل وأبتاع الحانوت فأرى نفسك .
ووصلا إلى الدار وهو يحس بسعادة تغمره .. فقد شعر لأول مرة أنه أضحي سيد نفسه وأن فروض السيطرة قد زالت عنه . وصعد السلم حتى وصل إلى الباب .. فإذا به يبصر منظرا جعله يهبط من علياء أحلامه ، منظرا أصابه بفجعة ما بعدها فجعة .. لقد أبصر أم الطفل تنتظر أمام الباب ومعها جندى بوليس .
وهجمت الأم تحتضن طفلها ناحبة باكية ، وهجم الجندى بدوره يقبض على محمود أفندى ليسوقه إلى القسم متهما بسرقة الطفل .
وكان على الأخت أن تقضى ليلتها فى محاولة الإفراج عنه ، وإفهام المأمور بأن محمود أفندى لا يمكن أن يسرق .. وأنه ليس إلا رجل خيبة .
وعاد محمود أفندى إلى داره فى الصباح .. بعد أن بات ليلته على الأسفلت ، وبعد أن تخلى عنه عنتر فى اللحظة الأخيرة .

ميدو قلب الأسد

كان ميدو رغم صغر سنه فى الثانية الثانوية ، وكان نموذجاً للشقاوة الصيانية ، أو كما كانت تسميه أمه « معجون بمية العفارىت » . ولم يكن هناك ما ينقص عيشه سوى وجود أبيه مدرسا للغة العربية فى مدرسة شبرا الثانوية التى كان ملحقا بها .. فقد كان بعمامته وجبته وقفطانه .. مصدر متاعب له ومورد سخرية .

الساعة السابعة صباحا فى أحد أيام ديسمبر .. منذ ما يقرب من الخمسة عشر عاما .. وقد خيم فى الجو ضباب ثقيل ، وسار عبد الحميد على شحاته أو « ميدو قلب الأسد » كما كان يسمى نفسه ويسميه رفاقه وعصبته .. يطوح بحقيبتيه إلى الأمام وإلى الخلف « على طول ذراعه » وهو يجتاز دهليز طوسون ، الموصل بين شارع روض الفرج وشارع طوسون المؤدى إلى مدرسة شبرا الثانوية . وكان « دهليز طوسون » ممرا ضيقا لا يزيد اتساعه على مترين يخترق المزارع ، ويقوم على أحد جانبيه سور شائك من أشجار الفتنة وغيرها من الشجيرات الشائكة المتكاثفة المتربة المليئة بالزواحف والحشرات .. ويكون هذا السور الحد الشرقى لحدائق المانجو المحيطة بمدرسة شبرا والتى كانت فيما مضى سراى الأمير عمر طوسون ، أما الجانب الآخر من الدهليز فتتمدد بجواره مزارع القصب والخبيزة والسلق .

وكان أهم ما يشغل « ميدو » فى ذلك الصباح — غير مرجحة حقييته — ذلك الدخان المتصاعد من فمه كلما نفخ فى الهواء .. لقد كان شيئا مسليا حقا أن

يرى نفسه « مدخنا » كأنه وابلور حلوان ، وأن يخرج الدخان من فمه بغير حاجة إلى أن يسرق من أبيه سيجارة يتسلى بتدخينها .

ووصل ميدو إلى نهاية الدهليز ، وقبل أن يلف على يمينه في الطريق المؤدى إلى المدرسة عبر الشارع متجها إلى الساقية الكائنة في الجانب الآخر من الطريق ووقف برهة يتسلى بمشاهدتها ويقذف بعض الحجارة في البئر الذي ترفع منه الماء حتى نهره الفلاح من داخل الكوخ المجاور للساقية ونعته بآبن الحرام ، فعدا إلى البوابة الكبيرة المفضية إلى طريق المدرسة .

ولم يكد يحتويه الطريق العريض حتى توقف برهة ومد يده في جيب بنطلونه فأخرج زلطة مستديرة وانطلق يدفعها بقدمه حتى وصل بها إلى باب المدرسة عندما أفلتت من قدمه إحدى القذفات فأصابت ساق عم فضل البواب . وصرخ عم فضل وأمسك بالزلطة ، وأقسم أن يعطيها لحضرة الناظر ويبلغه كيف كان ميدو يوشك أن يخرق بها عينيه .

وكان ميدو رغم صغر سنه ، ورغم أنه لم يتجاوز السنة الثانية بعد ، من أبرز الشخصيات وأشهرها في مدرسة شبرا الثانوية ، وكانت سنه وقتذاك لا تزيد على الرابعة عشرة .. أبيض الوجه ، دقيق التقاطيع ، كبير الأذنين ، به شبه كبير من الأرناب ، غزير الشعر ناعمه ، أنعم الله عليه بشيء من الوسامة ، لو أحسن استغلالها ليدا من أبناء الذوات ، ولكنه لم يحاول ذلك قط ، فقد كان شديد البهدة دائم العراك ، وكان نموذجا للشقاوة الصيبانية ، أو كما كانت تصفه أمه « معجوناً بمية العفاريت » ولم يكن هناك ما ينغص عيشه سوى وجود أبيه الشيخ على شحاته مدرسا للغة العربية في مدرسة شبرا ، فقد كان بعمامته وجبته وقفطانه ، مصدر متاعب له ومورد سخرية .

واجتاز ميدو فناء المدرسة بعد أن انتهت معركته مع عم فضل بعقد صلح مؤقت استعاد به الزلطة ، وسار يطوح بحقيته وينفخ في الهواء ، وقد تدلى شرابه على خذائه الأجرب ، ذى النصف نعل ، والدوبارة بدل الرباط ، وبدت ركبتاه

مليتين بالجروح والكدمات .

وكان ميدو لا يرتدى قميصا قط ، بل يكتفى دائما بمحشر الجلباب داخل البطولون بعد أن يلفه جيدا حول وسطه ، وكان يرى في ذلك توفيراً للقمصان وللوقت .

ووصل ميدو إلى فناء الجمباز ، حيث تقوم الأجهزة من عقلة ومتوازين ، وحصان ، وحيث توجد في أحد أركان الفناء الحجرات الخشبية التي يستعملها فريق الكرة في خلع ملابسهم ، وحيث توجد حجرة علوى أفندى مراقب الألعاب الرياضية التي كانوا يدخلون إليها بسلم خشبي مركب على نافذة . واستقر ميدو على إحدى الدكك الخشبية في الفناء .. ووضع حقيبته بجواره وأخذ يرقب بعينه الباب الآخر المؤدى إلى فناء الكرة كأنه ينتظر مجيء شخص بين آونة وأخرى .

وكانت الوقت مبكرا ، والمدرسة قد خلت إلا من بضعة فراشين تناثروا في أرجاء المدرسة ، والضباب قد تكاثف في فناء الكرة وبين أشجار الجوافة المتناثرة في الفناء الخلفي .

وفجأة سمع صغيرا حادا فأجاب ميدو على الصغير بصغير مثله ، وبدأ شبح قصير يتسلل من باب ملعب الكرة إلى فناء الجمباز مقبلا في اتجاه ميدو . ونهض ميدو يصافح الصديق ، وأفسح له محلا بجواره وبدأ الاثنان الحديث همسا .

كان القادم هو زكى إبراهيم جاد الله ، أو « أبو الزيك » . وكان أبو الزيك — رغم أنف أبيه — وكيلا لجمعية التمثيل في المدرسة ، فقد كان ممثلا بارعا ، لا يعيبه إلا قصر قامته ، وإن كان طول لسانه وشدة مكروه قد عوضاه خيرا عن قصر قامته .

ولم يكن أبو الزيك في مثل شقاوة ميدو ، بل كان أكثر منه هدوءا وتؤدة واتزاناً ، وكان الاثنان يكونان شركة يعتبر أبو الزيك فيها العقل المدبر ، وميدو

القوة المنفذة .

وجلس أبو الزيك على الدكة بقامته القصيرة ، ورأسه الكبير ، وأنفه الضخم ، وعينيه المتفتحتين ، وساقاه مدلاتان لا تصل قدماه إلى الأرض ، وقد بدا حذاؤه لامعا وشرابه مثبتا على ساقه بأستك وبدت حلته نظيفة لا أثر فيها لتلك البهدة التي تكسو حلة صاحبه .

وبدا أبو الزيك الحديث بلهجة تمثيلية وقور :

— كل شيء قد بات على تمام الأهبة يا قلب الأسد .

— ماذا فعلت بالأمس ؟

— فعلت كل خير ، لم يعد ينقصنا شيء إلا الإقدام على الخطوة الأخيرة .

— وعم سعيد ؟

— لقد أضحي أطوع لنا من بنائنا .. إنه لم يعد يشغل رأسه سوى عمارة سيف الدين ، وقد جلست معه في حجرته بالأمس بعد انصراف الطلبة ، وأفهمته أن من الجنون أن يضيع عمره سدى ، وأن عمل بواب في مدرسة عمل لا يليق بعم سعيد ، وأن مكانه اللائق هو في عمارة سيف الدين ، وجلست أحسب له أجره ، وأجمع المبالغ التي سيدفعها له السكان ، عشرة جنيهات أجرا شهريا وبالقليل خمسين قرشا بقشيشا من كل ساكن ، خمسين قرشا في مائة ساكن بخمسين جنيها وبإضافة الجنيهات العشرة تصبح ماهيته ستين جنيها ، أى أكثر من ماهية حضرة الناظر .

— وصدقت ؟

— طبعاً ، وقلت له إن خالى سيف الدين صاحب العمارة سينتظرني غدا في الظهر لأجل الحديث معه في هذا الموضوع ، ولكنى لا أعرف كيف أخرج ، فأجابنى بأنه يستطيع أن يخرجنى في أى وقت أريد .

— وأنا ؟

— سيخرجك معى .

— هل أخبرته ؟

— لا ضرورة لإخباره .. سأقول له إنك معي وكفى .

— أنت تعلم أن العلاقة بيني وبينه ليست على ما يرام وأنتى بالأمس فقط

خطفت عمته .

— اطمئن .. دع أمر عم سعيد لي ، سأدعي أنك خارج معي لمقابلة عمك

بهر ، حتى إذا لم تنفع عمارة سيف الدين استبدلنا بها عمارة بهر .. ولكن ماذا

فعلت في المسألة الأخرى .. إنها أهم ما في الأمر ؟

— لقد أعددت كل شيء .. واتفقت مع أم سيدة الغسالة أن أحضر لها الطفل

لترعاه وترضعه حتى نأخذه منها ، وقلت لها إنه ابن فراش في المدرسة ، توفي أبوه

ومرضت أمه ، وإننا تطوعنا للعناية به .. حتى تبيل أمه .. فنعيده إليها .

— فكرة هائلة .. ولكن .. ألا تخشى أن تشي بنا أم سيدة ؟

— ومن أدراها ؟ وما فائدتها من الوشاية ؟

— ومتى سنبدأ الهجوم ؟

— اليوم ظهرا ، نخرج في الساعة الثانية عشرة من بوابة عم سعيد ، وننتسلل

إلى البيت من الباب الخلفي .. عليك أن تنتظر أمام باب الحديقة .. لتعطيني

إنذارا إذا ما رأيت أحدا ، أما أنا فسأظل أيضا في الحديقة حتى تحين الفرصة ..

هذه مسألة تحتاج إلى سرعة وجراحة .. وأنت إنسان بليد بطيء .. هذه المغامرة

الجريئة لا ينفع فيها غير قلب الأسد .

— سأنتظر في الخارج ، حتى أتسلم منك الطفل ، ماذا تنوى أن تفعل إذا

صرخت الخادمة ؟

— لا تتدخل فيما لا يعينك ، سأعرف كيف أتصرف ، إن مهمتك تبدأ عند

تسلم الطفل .

— ولكن ألا تخشى أن يكون البيه الناظر موجودا في البيت ؟

— غير معقول ، إنه لا يترك المدرسة للغداء قبل الواحدة ، وأنا أعرف

الخادمة قد اعتادت أن تضع الطفل في شرفة البيت المطلّة على الحديقة ، وأعرف أن المهمة لن تحتاج إلى كبير عناء وحذر ، لقد أحضرت شال العمة معى في الحقيقة .

— وماذا تنوى أن تفعل به ؟

— هذه أسرار المهنة ، إنك لا تدري شيئا عن فوائده ولا أى يدري ، إن كل ما يفعله هو أن يلفه على عمامته ، أما أنا فسأعرف كيف أستفيد منه .. هل تعرف جبل الكشفاة وفوائده ؟ .. إن هذا خير منه .. سأستعمله أولا كقناع أخفى به وجهى ، فإذا حاولت الخادمة أن تصيح فسأكتمها به ، وكذلك يمكننى أن ألفت فيه الطفل .. أشياء كثيرة يمكن فعلها به .. على أية حال أعتقد أن المسألة ستنتهى دون حاجة إلى استعمال العنف ، فقد راقبت الخادمة بضعة أيام فرأيتها كثيرا ما تترك الطفل فى الشمس وتدخل إلى البيت لمغازلة عبد ربه الطباخ .. سأحاول أن أنتهز إحدى هذه الفرص وأخطف الطفل بهدوء دون أن يحس بى أحد .

— لو تمت العملية لأصبحنا من الأثرياء .

— أثرياء فقط ! إننا سنذل الناظر ، ونكسر أنفه .. ونحصل على كل مطالبنا منه .. سننتقم لأنفسنا شر انتقام .. هل كتبت الخطاب الأول ؟

— أجل .

— أعطه لى .. إذ يجب أن أضعه مكان الطفل عندما آخذه ..

وأخرج أبو الزيك ظرفا من جيبه وسلمه إلى ميدو وبدأ ميدو القراءة :
« من الزعيم الخيف قلب الأسد رئيس عصابة الموت بالخانة السوداء إلى البائس المسكين على عبد المتعال ناظر مدرسة شبرا الثانوية » .

وقلب ميدو شفتيه وقال معترضا :

— ولكن هل تظن أن من العقل أن نذكر فى الخطاب صراحة اسم قلب الأسد ؟ إن الناظر قد يعرفنا بمجرد اطلاعه عليه .

— ليس هناك من يعرف اسمك هذا إلا أفراد العصابة ، على أية حال من باب
الحرص لنجعله مخلص القط ، أو عين العنكبوت .
— العنكبوت ليس له عين . لنجعله مخلص القط ، فهو أروع وما مسألة الحانة
السوداء ؟

— هذه هي مقر ملتون توب ، وابن جونسون .. لا تخف من الرسالة .. فقد
نقلتها بالضبط من الجزء الثاني من ابن جونسون .
ويعاود ميدو القراءة :

« لقد أخذنا طفلكم ، ولن يعاد إليكم حيا إلا إذا نفذتم الشروط التالية :
١ — إرسال مبلغ مائة جنيه .. وذلك بوضعها في صندوق .. ودفنها تحت
النخلة الموجودة في نهاية دهليز طوسون .

٢ — إعطاء المدرسة إجازة شهر .

٣ — حذف مادة التاريخ الطبيعي والجبر والهندسة .

٤ — رفت على أفندي كفته الضابط بالمدرسة .

٥ — جعل وكيل فرق التمثيل رئيسا لها .

وهنا نظر ميدو إلى أبو الزيك وهز رأسه مغتاظا :

— أيها الأناني ، إنك لم تذكر إلا نفسك ، أضف شرطا سادسا ، وهو أن
يجعلني كابتن فريق الكرة .

— ولكنك لا تلعب كرة .

— هذا لا يهم . لن يعاد الطفل إلا إذا أصبحت كابتن للكرة ، وأعطوني
جزمة كتج ، وجوز أناكل ، وجوز شناجير .

— أمرك .

وتناول أبو الزيك الخطاب وهم بإضافة الفقرة الجديدة ولكن ميدو صاح به
فجأة :

— أيها الغبي ، سيعرف الناظر من هذا أن لنا علاقة بالعصابة .. إننا يجب ألا

نذكر أى شىء يستدل به على أشخاصنا ، اشطب فقرة التمثيل والكرة ، واجعل المبلغ مائتى جنيه .

- لنجعله ثلاثمائة .. مائة جنيه للتعويض عن رئاسة فرقة التمثيل .
- أخف الخطاب الآن ، فإنى ألمح فرج أفندى قادما .
- اسمع .. لقد تذكرت .. أضف بندا بترقية فرج أفندى فهو رجل غلبان .
- أجل .. معك حق .
- وأضف أيضا ترقية الشيخ على شحاته ، فالأقربون أولى بالمعروف .
- وبدأ الطلبة يتوافدون على الفناء ، واقترق الصاحبان على أن يلتقيا فى الساعة الثانية عشرة أمام بوابة عم سعيد .

* * *

الساعة الآن الثانية عشرة والحصّة الرابعة لم تنته بعد .. وبدأ ميدو وأبو الزيك يحومان حول بوابة عم سعيد ، ثم دخلا إلى حجرته .
وجلس ميدو على دكة بجوار الرجل الأسود السمين ، وأخرج من جيبه علبة سجائر ، وأعطى سيجارة لعم سعيد وسيجارة لأبى الزيك ، ثم أخرج من الجيب الآخر فم سجائر ووضع به سيجارته وبدأ التدخين .
ونظر أبو الزيك إلى الفم فى إعجاب وسأل ميدو :
— من أين أتيت به ؟

— سرقة هو والعلبة من قفطان أبى ، إن اسمه منقوش عليه .. إنه فم ثمين أهدي إليه من الشيخ خميس .

ثم وجه القول إلى عم سعيد :

— سنخرج الآن يا عم سعيد لمقابلة خالى سيف الدين .

— ستخرج أنت وحدك .

— وميدو !! إنه لا بد أن يأتى معى .

ولكن الرجل نظر إلى ميدو فى غيظ ، وهز رأسه فى عناد وإصرار .

وغمز ميدو أبو الزيك أن يخرج هو ويدعه ينصرف مع الرجل حتى يقنعه .
 وخرج أبو الزيك من الباب .. وعاد ميدو إلى فناء المدرسة وقد بدا عليه
 الأسف والضيق ولم يتجه إلى الفصول ولكنه ذهب إلى دورة المياه وخرج منها
 وقد خلع الجاكتة والبنطلون وسار بالجلباب واضعاً بدلته على كتفه ، ولمح عربة
 العيش تهم بالخروج من بوابة عم سعيد فعدا إليها بجوار الحصان كأنه صبي بائع
 العيش ، وبعد لحظة كان يقف مع أبو الزيك خارج المدرسة ، وأبو الزيك ينظر
 إليه في دهشة شديدة .

* * *

لترك قلب الأسد وزميله ينفذان مؤامرتهما ، ولنذهب إلى الشيخ على شحاتة
 مدرس اللغة العربية بعد بضع ساعات وقد أخذ يجمع كراريس التحضير وهو يهم
 بمغادرة المدرسة ذاهباً إلى البيت ولا يكاد الرجل يفتح الباب ، حتى يبصر الناظر
 وقد اقتحم عليه الغرفة في هياج شديد ، ويصيح به :
 — أين الولد أيها المجنون ؟ أين هو قل لي ؟ إنك لا شك قد جنت ، ما هذا
 الهراء !؟

ثم يدفع إليه بالخطاب .

ويذهل الرجل ويقرأ الخطاب وهو لا يفهم منه شيئاً .. ويستمر الناظر في
 هياجه الشديد صائحاً :

— رجل في مثل سنك يلجأ إلى مثل هذا الجنون ؟ .. أتريد الترقية بمثل هذه
 الوسائل الصبائية ؟ أتخطف أولاد الناس من أجل درجة ؟ إنك لا شك قد
 جنت ! أين الولد ؟ أين الولد .. ؟
 — أى ولد يا سيدى الناظر ؟ أرجوك أن تهدأ ، إنها لا شك وشاية أو نسيمة ..
 إلى لم أغادر المدرسة قط .

— لا فائدة من الإنكار .. انظر ، أليس هذا الفم لك ؟ أليس هذا شال
 عمك ؟ لقد وجدنا الفم ملقى بجوار عربة الولد في الشرفة ، ووجدنا شال العمه

قد ربط به الباب حتى لا تستطيع الخادمة فتحه لتعدو وراءك وتستعيد الطفل ..
إن الخادمة تقسم أنها رأت طرف جبتك وأنت تعدو بالطفل .

— حرام عليك يا سيدي الناظر ، أقسم لك أني لم أفعل شيئا من هذا .
— إذن فلا بد أن أُلجأ إلى البوليس .

— أرجوك أن تهدأ وتفهمنى ما حدث .. اجلس قليلا لتفاهم .

— أجلس ؟! ابني مفقود يا أستاذ ، وتقولى اجلس لتفاهم ؟! ابني ضايع ..

مسروق .. مخطوف !

— كان الله في عونك .. إنى أقدر مشاعرك .. ولكن أرجوك أن تهدأ .. حتى
نستطيع التفكير قليلا .. نبتنى كيف حدث الحادث ؟ .. وأين كان الطفل ؟ ..
وكيف وجد الشال والفم ؟

— لست أدرى شيئا عن التفاصيل .. لقد كنت جالسا في مكتبي عقب
فسحة الغداء حوالى الساعة الثانية تقريبا .. عندما فتح باب الغرفة ووجدت عبد
ربه الطباخ يندفع إلى زائغ البصر ، أصفر الوجه .. ويطلب منى الذهاب إلى
البيت لأن بهاء ابني قد سرق والسيدة تكاد تجن .

— معذورة .. كان الله في عونها ، وماذا فعلت أنت ؟

— انطلقت بلا وعى وراء الطباخ .. وعبرت فناء الكرة وأنا أهرول ، وفي
لمح البصر كنت في حديقة البيت .. فإذا بزوجتى تندفع إلى صارخة وهى أشبه
بالمجنونة .. وحاولت عبثا تهدئة روعها .. فقد كنت أنا نفسى فى حاجة إلى من
يهدى روعى ، ولكنى تمالكت جهدى وسألتها عما حدث فأنبأتنى أن سنية
الخادمة كانت تجلس بالطفل فى الحديقة .. وكانت هى فى الدور العلوى ،
فلم تشعر إلا والخادمة تصيح بأعلى صوتها « الحقونى . الحقونى . الحرامية سرقوا
الولد » .

— كيف سرقوه .. هكذا فى رابعة النهار وأمام عينيها ؟ هذا شيء لا يصدق !

— لقد قلت لك إنهم هجموا عليها من باب الحديقة ثلاثة رجال بجلايب

وشيوخ معمم .

— ولماذا لم تصرخ وتستنجد ؟

تقول إنها ذهلت ، وأن الدهشة والخوف عقدا لسانها ، وأنهم هددوها بالقتل إن هي صرخت .

— وهكذا سرقوا الطفل أمام عينيها وهي ساكنة دون أن تبدى أية استغاثة ؟

— لقد صرخت .

— بعد أن فروا ؟

— هكذا تقول .. وهي تقول أيضا إن الشيخ المعمم قد ربط الباب بشال عمامته حتى لا يفتح .. وأنه قد ترك هذا الخطاب في سرير الطفل ، وقد سقط منه هذا الفم وهو يهرول به إلى الخارج .

— وهذا الشيخ مفروض فيه أن أكون أنا ؟ ما شاء الله وهكذا قد انقلبت على آخر الزمن لأكون سارق أطفال ، المجرمة بنت المجرم .

— من هي ؟

— ومن تكون سوى الخادمة ، أؤكد لك أنها شريكة في الجريمة .. وسأثبت لك سوء نيتها وكذبها .. بما لا يقبل أدنى شك .

— كيف ؟

— سأدلك بواسطة الشهود .. على أنى لم أعادر المكتب طوال فسحة الظهر وأنى كنت منهمكا في تصحيح الكراريس وسأذهب معك إليها .. فإذا قالت لك إنى لم أكن ذلك الشيخ .. فماذا يكون رأيك ؟

وبدت الحيرة على وجه الناظر .. ولكن الشيخ شحاته جذبه من يده قائلا :
— هيا بنا أولا نرى الخادمة ، ونناقشها .

وسار الاثنان يستحثان الخطى إلى بيت الناظر ، ووقفا في الحديقة يستجوبان الخادمة ، ومن وراء الباب كانت تصلهما نبهة الأم .

وأخذت الخادمة تشرح الحادثة وهي وجلة خائفة ، وأخيرا سأها الناظر :

— ١٧٦ —

. — هل تستطيعين تمييز الرجال إذا عرضوا عليك .

وأجابت الخادمة في قلق وتردد :

— أظن ذلك .

وسألها الناظر وهو يشير إلى الشيخ شحاتة :

— هل هذا هو الشيخ المعمم الذى كان يصحب الرجال والذى رأيت طرف

جبته ؟

وزاد القلق على وجه الخادمة واشتدت حيرتها وأخذت تتفرس في وجهه ،

ولكنها ما لبثت حتى تشجعت وقالت في تردد :

— أجل .. إنه هو .

ثم ما لبثت حتى عادت تؤكد :

— أجل .. أجل .. إنه هو بعينه .

— أرايت يا سيدى الناظر .. ألم أقل لك .

ووقف الناظر يقلب البصر فيما بينهما ، وقد ازدادت حيرته وشكوكه ..

وأخيرا قال في لهجة حازمة :

— على أية حال .. وأيا كان السارق ، سأعطى لها مهلة ربع ساعة ، وإذا

لم يعد الطفل فسأبلغ النيابة .

وهنا تدخل عبد ربه الطباخ صائحا :

— لا داعى للكذب يا سنية .. قولى الحق . إنك لم تكونى مع بهاء ساعة أن

خطفوه .. لقد كانت تسألنى عن الساعة في المطبخ وتركت الطفل في الحديقة ،

فلما عادت إليه لم تجده في عربته ، وهى لم تر أحدا من اللصوص .. بل كل ما رآته

هو القم والخطاب والشال .

وصاح الناظر :

— هكذا !؟

وصاح الشيخ شحاتة :

— ولم لم تقولى الحق يا بنت الصرمة .. لم تدعين على الناس كذبا وتتهمين الأبرياء ؟

وقاطعه الناظر قائلا :

— على كل حال .. الشال .. والفم والخطاب .

— أرجوك يا سيدى الناظر .. أنا لم أجن بعد حتى أفعل هذا .. ولكن دعنى أفكر قليلا : أين كان الفم .. فى الدرج .. وأين كان الشال .. فى الدولاب .. والخطاب .. ما سره .

ثم صمت لحظة وهو ينظر إليه وأخيرا قال :

— اللعين .. ابن اللعينة .. لا بد أن يكون هو الذى قد فعلها .

— من هو ؟

— عبد الحميد .. ابنى .. فلنبحث عنه ، ولنسأل عليه فى الفصل ، فإذا لم نجده فلا شك أنه هو الذى خطفه وسأعرف كيف أحصل عليه وأريه .
واندفع الاثنان إلى فصل عبد الحميد ، فإذا بميدو جالس فى الحصة وقد بدا عليه منتهى الهدوء والبراءة والطيبة .

وجذبه أبوه من قفاه خارج الفصل ووقف هو والناظر يسألانه :

— أين الطفل ؟

— طفل ؟ أى طفل ؟

— الطفل الذى سرقته .. ابن البيه الناظر .

— أنا سرت ابن الناظر ؟ وماذا أفعل به ؟ آكله ؟

ورأى أبوه أن يأخذه بالحسنى فقال متوسلا :

— يا بنى يا عبد الحميد .. أعد الطفل .. ولن يفعل بك أحد منا شيئا .

— قلت لك إني لم أغادر المدرسة .

— وما رأيك فى هذا الخطاب ؟

وأمسك بالخطاب يقرؤه وهو يتصنع الدهشة وأخيرا هز رأسه وقال بأسف :

(أغنيات)

— وما لى أنا ومخلب القط .. كل هذا ليس لى به شأن .
وقال الناظر يائسا :

— ليس أمامى إلا تبليغ النيابة .

ولكن الشيخ شحاتة قال وهو يضرب سهمه الأخير :
— ليسمح لى حضرة الناظر بالذهاب إلى البيت فقد يكون المجنون ذهب به
إلى هناك ؟

وقال الناظر فى لهفة :

— أجل ! أجل ! ربما قد فعل ذلك .

وذهب شحاتة إلى البيت ووقف يطرق الباب ولم تكد امرأته تفتح له حتى
فوجيء بصراخها فى وجهه :

— يا ضلالى ، يا فلاقى .. هذا الولد ، إيه حكايته ؟ هل تزوجت وأنجبته
دون أن أدرى ؟

— ولد ! الحمد لله ، هاتيه بسرعة .

— متلهف عليه ؟ وحشك ؟

— هاتيه أولا .

— لقد أعدته معها .

— مع من ؟

— مع أم سيدة الغسالة ، لقد قالت لى إنها ذهبت إلى بيتها فوجدته هناك
وأنبأها الجيران أن ابنك عبد الحميد تركه لها لكى تربيته .

— عبد الحميد .. ابن الكلب . لقد كنت أعرف أنه هو الذى فعلها .

— طبعا ، هو الذى فضحك .

وأطبقت على زمارة رقبته ، ولكنه تخلص منها صائحا :

— اتركينى الله يستر عرضك ، إنه ابن الناظر وسيبلغ النيابة إذا لم أعده له بعد

ربع ساعة .

— ١٧٩ —

وانطلق يعبو إلى أم سيدة .
وأخيرا أعاد الولد إلى أبيه ، وبقيت عليه مهمة أخيرة هي البحث عن ميدو ..
قلب الأسد .
الذى كان يجلس تحت النخلة في انتظار الفدية .

أم نجية

حقيقة أنها تعصب رأسها بمنديل بأوية ..
وحقيقة أننا نلمح فوق ركبتيها — أو ما انحسر عنهما
الجلباب — كورنيشا لسروال ملون .
ولكن أيكفى هذا لجعلها من الجنس اللطيف ؟ ولكي
نقول عنها « أم نجية » ؟

تعال معي نشاهد « أم نجية » في أول فم (بضم الفاء) . تبدأ الممعة
بالتحضيرات الأولية .. حيث تنحني أم نجية على وابور الغاز فتدفع في جوفه
بضعة أنفاس سريعة قوية متلاحقة ثم تمد يدها بالإبرة فتحشرها في الثقب .. وتمر
فترة قصيرة يبدو الوابور خلالها وقد كتمت أنفاسه وخبا أواراه وانطفأ لهيه .. ثم
ترفع الإبرة .. فينطلق الدخان في فحيح شديد ويبدو الوابور وكأنه قد نفس عن
كربتته بعد طول خنق وكبت .. وتسرع المرأة فتشعل عود ثقاب وتدفع به في
عجلة إلى ثقب الوابور الزافر الصافر ، فتنطلق النيران متأججة مستعرة ، ويدوى
صوتها في زئير وهدير .

وتريح أم نجية الوابور جانبا ثم تجذب الصفيحة الفارغة فتدفع بها تحت الحنفية
وتفتح الصنبور فتدفع المياه من فوهته وتندفق هابطة إلى قرار الصفيحة محدثة
مزيدا من رنين وصخب ومزيدا من ضجيج وقعقة لو كان هناك — بعد صوت
الوابور — من مزيد .

وتترك المرأة الصفيحة لتمتلئ بالمياه وتلتفت إلى سبت الغسيل ، وقد كدست
فيه الملابس وتعال فوقه مكونة منه كوما هرمي الشكل ينافس في ضخامته أهرام

الفراغة وتناثرت حوله بضعة مناديل وجوارب وخرق .
وزفرت أم نجية زفرة حارة وهى تقلب السلة بما فيها .. وأخذت تعبت في
الملابس بيدها باحثة فاحصة .. وكانت الصفيحة قد قاربت الامتلاء فنهضت من
مكانها ورفعتها بين يديها ووضعتها على الوابور وبدأت تنتقى من الملابس
ما يستحق الغلى فتكومه على حدة . ثم سحبت الطشت لترص فيه الفم الأول
« ع البارد » واتخذت مجلسها أمامه مشمرة عن ساعديها حاسرة قميصها عن
ساقها .. وقد أحاطت بهما الطشت .

وتبدأ المرأة المعمة .. ويمينا سلاحها الماضى البتار قطعة من صابون الغسيل
« أبو ميزان » .. تحك بها الملابس لتفنى ما علاها من أوساخ وبقع وعرق
وأثرية .. وتثير بها من الرغبة البيضاء ما يملأ رحاب الطشت .. فتبدو كأنها زيد
الموج في بحر هائج مائج .

وتبدو أم نجية وقد انحنى ظهرها وأخذ ساعداها يتحركان في الطشت حركة
مستمرة منتظمة كأنها آلة لا تكل ولا تمل .

ولست أشك في أن أول ما يطرأ على ذهن الإنسان حين يقع عليها بصره ..
هو : لم كانت المرأة « أم نجية » ولم تكن « أبو نجية » ؟
كيف أمكن حشرها في زمرة النساء ؟ .. وبأى حق نطلق عليها اسم الجنس
اللطيف ؟

ومن يكون الجنس الخشن إذا لم تكن أم نجية ؟
هذه الوجه « القرودى » .. ذو العينين الضيقتين والأذنين الكبيرتين والأنف
المفرطح والشفة العليا العريضة والسفلى المدلاة والأسنان المتناثرة والعنق الغليظ
القوى المعروق المركب على جسد صلب متحجر « مقلحف » كأنه قد من
صوان .. أو كأن العصاراة التى به قد جفت فأضحى أشبه بمجدوع الشجر التى
لا تنفذ فيها البلط أو المناشير التى لا تصلح إلا لكى تكون حطبا لنيران آكلة .
وهاتان الذراعان المفتولتان والساقان العجفاوان اللتان تستطيع أن تميز

تركيههما عضلة عضلة ، وعرقا عرقا ، وهى تتحرك وراء طبقة الجلد السمراء الرقيقة .

أبعد كل هذا .. نقول إنها امرأة .. وجنس لطيف ؟
حقيقة أنها تعصب رأسها بمنديل بأوية .. وحقيقة أننا نلمح فوق ركبتيها — أو ما انحسر عنهما الجلباب — كورنيشا لسروال ملون .
ولكن أيكفى هذا لجعلها من الجنس اللطيف ؟ .. ولكى نقول عنها « أم نجية » ؟!

وما قيمة منديل الرأس والسروال الملون فى أن يجعلها « أم » نجية .. إذا كان « أبو » نجية .. يشاركها فيها .
إلى والله .. إن « أبو نجية » نفسه .. كثيرا ما ضبط متلبسا بالسروال الملون .. ومتعصبا بمنديل الرأس .

أفستطيع المنديل والسروال بعد هذا أن يكونا علامة مميزة للجنس اللطيف ؟
لترك « أم نجية » منهمكة فى الغسيل .. محنية الظهر .. متحركة الساعدين مفتوحة الساقين بين والوابور والصفحة والطشت وأكوام الغسيل ، ولننطلق فى ربوع الدار لنبحث عن الفرقة الثانية .. أو « أبو نجية » .

كان الزوجان .. « أم وأبو نجية » مثلا لنقيضين .. فالمرأة عبوس متجهمة لا تعرف الابتسامة طريقها إلى وجهها ، والرجل مهزار خفيف الدم « ابن نكتة » لا يكف عن الضحك قط .. ولم يكن هناك ما يخيف الرجل وينغص عليه حياته كامرأته .. وكان الاثنان يعملان كخادمين فى بيتنا الكبير بحارة الروم بالدرب الأحمر ، وفى أعنى بالبيت الكبير .. أنه كان كبيرا فقط .. لا فخما ولا وجها ولا عظيما .. وهل هناك أكبر من بيت يحوى فى داخله مسجدا وضريحا .. يرقب تحت قبة ولى من أولياء الله الصالحين يدعى « الشيخ ريحان » .. يزوره الناس للتبرك ولوضع النذور فى صندوقه .

ولقد كان صندوق النذور هذا مبعث « تشنيع » بين الأصدقاء .. فلقد كانوا

يدعون أننا نعيش من نذور الجامع وأتأنا بنينا الضريح لكسب الرزق .
ألا يعتبر كبيرا ذلك البيت الذى يحوى بين رحابه مجاهل خرية .. لم نحاول
استكشافها قط .. بدعوى أنها مسكونة !

هيا بنا نطلق فى البيت الكبير .. ذى المشريات والسراديب والدهاليز والدور
المسروقة والمناذر والأقبية المظلمة ذات الجن والشياطين .. لنبحث فى كل ذلك
عن أبو نجية .. وهى مهمة لو تعلمون عسيرة .. فالرجل لا يكاد يستقر له قرار
فهو أشبه « بفرقع لوز » .. متوائب قفاز .

ها قد وجدناه أخيرا ، وقد تسلق التكهية ، وبدأ فى قطف « ورق
العنب » .

وأى عجب فى ذلك ، والرجل يعيش فى الصيف على ورق العنب ، وفى
الشتاء على إبر الوابور ، ومشابك الغسيل والشحاذة .

مفهوم ١٩. أم تريدون بعض الشرح والتفصيل ؟

كان الرجل يعيش فى الصيف على ورق العنب ، فهو لا يكاد يستيقظ من
النوم ويطمئن إلى أن أم نجية ، أو « أم قويق » كما كان يسميها قد غادرت المندرة
الملحقة بالبيت التى كانا يسكنانها معا ، وصعدت إلى أعلى لترعى شئوننا وتقضى
حوائجنا ، حتى يتسلل على أطراف أصابعه ويخرج إلى الحديقة المترامية الأطراف
المشعبة المتكاثفة المهملية المتربة فيتسلق التكهية ويبدأ فى جمع الورق ، حتى يملأ
حجره ، ثم يذهب إلى « الفسقية » الواسعة المهدمة ، فيغطس فيها الورق لفسله
ويبدأ فى رصه ثم لفه فيما يتيسر من مناديل الرأس ، وينطلق فى الطرقات لبيعه ،
مناديا « صباحى يا ورق العنب » .

ولا تستغرق عملية البيع سوى دقائق معدودات ، فهو لا يدقق فى السعر ،
لأنه لا يريد أكثر من ثمن « القرعة » ، فلا يكاد يحصل عليه حتى يرمى ببقية
الورق على قارعة الطريق أو يهبه لأى إنسان ، ثم ينطلق إلى أقرب « بوطة » .
ويعب « أبو نجية » من البوطة كفايته ، حتى « يستمخ » أو — على حد قوله —

« يوزن راسه » ثم يعود إلى البيت مبسوطاً أربعة وعشرين قيراطاً ، مترنماً مترنماً ، يضيء بياض أسنانه سواد وجهه ، ويهتز جسده الضئيل الأعجف من فرط الطرب ، وتلتف ساقاه المعوجتان النحيلتان إحداهما حول الأخرى ، وينثر النكات ذات اليمين وذات اليسار .

هذا في الصيف ، أما في الشتاء فالمسألة أعوص من هذا وأكثر تعقداً ، فالتكعبة قد تجردت من أوراقها ، فحرمت « أبو نجية » من مورد رزقه السهل ، وأضحى الحصول على القرعة يحتاج منه إلى كثير جهد ومشقة .

ويفكر أبو نجية ، حتى يرضيه الفكر ، ثم ينتهي به دائماً إلى أمر واحد ، هو أن أم نجية سترفض رفضاً باتاً أن تعطيه مليماً واحداً ، وهو لا يستطيع أن يسأل أحداً من أهل الدار ، لأنها قد حرمت عليهم أن يعطوه شيئاً ، وهم لا يجسرون أن يعصواها أمراً ، وهو كذلك لن يستطيع الوصول إلى كيس نقودها ، فهي تربطه في تكة سروالها .

إذن لم يبق أمامه سوى أمر واحد ، وهو سرقة إبر الوابور ومشابك الغسيل . أجل هذه أشياء يستطيع أن يسرقها منها دون أن تحس . وهكذا يبدأ أبو نجية في جمع الإبر والمشابك ، والتسول على باب الضريح حتى يخرج من كل هذا بضمن القرعة .

لترك الرجل يتوائب على التكعبة كالقرد ليجمع في حجره ورق العنب اللازم لبيعه ثم نصعد مرة أخرى إلى أم نجية .

المعمعة دائرة على أشدها ، نحن الآن في « القم » الثاني ، وأم نجية كزبانية جهنم تقلب الغسيل بالنشابة في الماء المغلي وقد تصاعد حولها الدخان وسالت من وجهها قطرات العرق .

لم يكن أبو نجية وحده هو الذي يخشى المرأة ، بل كان أهل الدار كلهم يخافونها ، ورغم أنها كانت تقوم في البيت بكل أعمال الخدم من غسل وطبخ وكنس ومسح وتنفيض فإنها لم تكن قط خادمة بل كانت مهيبة أكثر من أسياد

البيت ، وأذكر أنى لم أكن أخشى أبوى كما أخشاها .
 كيف لا ، وجدى وجدتى وأبواى وأعمامى وعماتى يخشونها ويعملون لها
 ألف حساب ، لقد كانت خادمة جدى منذ الصغر وهى التى قامت بتربية أولاده
 جميعا ، ولها على أهل الدار حق التربية .

* * *

وعاودت أم نجية « الفم الثانى » وتبعته بالثالث ثم رصت الملابس
 « المعصورة » فى السبت .. وحملتها على كتفها .. وصعدت إلى السطح لتبدأ
 عملية النشر .

وشدت الحبال ومسحتها .. وبدأت فى النشر ، ومدت يدها لتأخذ كيس
 المشابك حيث تعودت أن تضعه ولكنها لم تجده ، وهنا عضت على نواجذها ،
 وانطلقت من فمها زفرة تهديد ونفاد صبر ، وصاحت بأعلى صوت تسأل عن
 المشابك ، فلم يجيبها أحد .

ونظرت من أعلى السطح فوق بصرها على أبو نجية ، وقد أقبل يترنخ فى
 الحديقة بوجهه الأسود وجسده النحيل الضئيل وهو يصيح بأعلى صوته مترنما :
 كيد العواذل كايدينى .

وصرخت المرأة بأعلى صوتها ، منادية الرجل بصوت يشبه الزئير :
 — أبو نجية .

ونظر الرجل إلى أعلى ثم هز رأسه ببساطة فى تساؤل عن سر هذه الضجة .
 وعادت المرأة تهدر صائحة :

— هات المشابك قوام لحسن انزل لك ، أخلى يومك زى وشك .
 وعاد الرجل ينظر إليها فى بلاهة ، وصاح ضاحكا :

— يا ام قويق .. يحموا ابوكى فى كنة .. أبوكى نشره على الحبل من
 غير مشابك طار .. هع .. هع .. يا ام قويق قولى اشمنى .
 وهنا فاض بالمرأة غضبها ، وغلى رجلها ، واندفعت الصرخات من فمها

كطلقات المدافع وصاحت به :

— والنبي والى نبأ النبى .. لافرج عليك الى ما يتفرج ، يا حرامى المشابك ، يا اسود الوش .

وتركت الغسيل واندفعت على السلم هابطة كالقذيفة .. وقد أمسكت يمينها نشابة الغسيل .

وبعد لحظة كانت تمسك الرجل من عنقه ، وتهزه فى عنف صائحة :

— فىن المشابك ؟

— مشابك إيه يا ولىة ؟

— مشابك الغسيل الى سرقتم .. عشان السم الهارى الى بتحطه فى جوفك .. والنبي لاطفحولك .. انطق .. فىن المشابك ؟

— سيبينى يا ولىة .. ماشفتش مشابك .. المشابك بتسوعك دول ما يلزمونيش فى الصيف .. العنة مخضرة .. والورق كثير ، والأشياء رضا . ولكن أم نجية لم تقتنع .. فالمشابك لا يمكن أن تضع إلا إذا كان أبو نجية قد سرقها .

ورفعت يدها بالنشابة وبدأت الضرب ، وعلا الصياح . وهبط أهل الدار جميعا على صوت الصياح ، وحاولوا تخليص الرجل من براثن المرأة عبثا فقد أقسمت ألا تتركه إلا إذا أعاد المشابك .

وبدأت المحاولات لإقناع « أبو نجية » بأن يعيد المشابك بالتى هى أحسن ، ولكنّه جلس يكيى وأقسم أنه لم يرها .

واستمر الضرب .. واستمر الصياح .. حتى تمكن الأهالى فى النهاية من أن يخلصوا الرجل من يدها بعد أن كلت من فرط الضرب .

واقنع أهل أن أبو نجية مظلوم وأن المرأة قد افترت عليه بالضرب .. وحاولوا أن يقنوعها بأنه لم يسرق المشابك وأنه ليس فى حاجة إلى السرقة ما دام ورق العنب موجودا ومع ذلك فقد أصرت على أنه لم يسرقها سواه ، واستمرت

تضربه كل صباح حتى يعترف .
وهكذا أصبح ضمن أعمال أم نجية ، التى تواظب على أدائها يوميا .. علة
لأبو نجية « على الريق » تصبحه بها ، بغية استعادة المشابك .
وعندما أفكر الآن أجزم بأن الزوجين كانا على نوع من العته ، فالمرأة قد
استمرت عملية الضرب الصباحى ، والرجل قد تعود حتى بات يستسيغه
ولا يعترض عليه ، ولا يشكو منه كما يتعود المؤمن المصاب قضاء الله فيه .
إن المسألة قطعا لم تعد على مر الأيام مسألة مشابك مسروقة ، بل أضحت
عادة ، وإن ظلت محتفظة من ناحية الشكل بمسبباتها الأصلية ، فلا يكاد يرتفع
صياح « أبو نجية » فى الصباح ويتساءل أحدنا عن السبب ، حتى يجيبه الآخر
ببساطة :

— المشابك .

ولقد ضقنا نحن ذرعا بالضرب والصياح حتى قال جدى ذات يوم للمرأة
زاجرا ، وكان أقدر أهل الدار عليها :
— أنت يا ولية مش تبطل بقى الزينة اللى بتعملها على الصبح .. كل يوم لازم
تقلقى منامنا وتصحيننا على صوت الصرير والصوات .
ونظرت المرأة إلى الجد ، ولوت رقبتها مشيحة برأسها إلى الناحية الأخرى
كأنها تتقزز من منظره وحديثه .. ولم تجب عليه بكلمة . ولكنها « زامت »
كالحيوانات .. علامة على أن الحديث لا يعجبها .
وعاد جدى ينهرها بقوله :

— انت يا ولية .. أنت سامعة الكلام الى أنا بقوله ده والا لأ .
— بتقول إيه ؟ .

— بقول لك كفاية ضرب بقى فى الراجل الغليان المسكين .
— مسكين ؟ .. يا خى جه سكينه تخرط مصارينه ؟ .. والمشابك الى سارقها
علشان السم الهارى الى بيحرق جوفه برضه مسكين ؟

— ما قال لك انه ماسرقهاش .

— ضلالى ابن ضلالى .. وكذاب ابن كذاب .

— ليه بس يام نجية .. وهو يسرقهم ليه .. وقدامه ورق العنب مالى
التكعية .. الراجل يا دوبك ما بيعوزش غير القرش الأبيض ثمن قرعة البوطة ..
واحنا فى الصيف والتكعية مكفياها وأشيته رضا ، فلزومه إيه بقى يسرق
المشابك .. يعنى حايعمل إيه بتمنها ؟

— مين يعرف ؟ دا أصله غويط .. ما حدش يعرف له نيه .. يمكن راح
يتجوز ؟.

— بتمن المشابك ؟!!

— يعنى هوا حايتجوز إيه ؟ مش شحاته زيه . هو دا يستبعد عليه حاجة ..
أنا مش فى الشتا الى فات قافشاه رابط وابور الجاز فى دكة اللباس وخارج بيه .
— على العموم .. إذا كان على المشابك .. أنا جيت لك مشابك بداهم ..
ومستعد أجيب لك كل يوم دسته مشابك .

— أبدا .. لازم يرجع هوا المشابك الى خدها .. حاتنى وراه بالنشابة لغاية
ما ادوبها على جتته .. أو يرجع المشابك بالتى هى أحسن .. يا نانا يا هوا .
ويس جدى من ردعها عن غيها .. واستمر الضرب واستمر الصراخ .. فلم
يجد بدا من أن يحاول أن ينهى المسألة بواسطة الطرف الآخر المعتدى عليه .
وأذكر أنه هبط ذات مرة إلى المنذرة .. وهبطت فى أعقابه .. وكانت ساعة
ظهر وأم نجية منهمكة فى الطبخ فى أعلى الدار . وأبو نجية راقد فى ركن مظلم على
قفص من الحديد والقرب من قدميه وعاء أشبه بقلعة صغيرة من الفخار وضع فى
أحد جوانبه قطعة من الغاب .

وأيقظه جدى فانتفض فزعا وبدأ الصراخ .

وصاح به جدى ضاحكا مهدئا :

— بس .. بس .. بتصرخ ليه ؟

وقال الرجل وهو يدعك أجفانه بيده ويتنفض مرتجفا :

— هي لسة مبتدئتش الضرب ؟ .

— لأ لسة .. ماتخافش .

— أنا مش خايف .. خليها تضرب وتخلص .

— طيب يا أخى ما توفر على نفسك الضرب ، وترجع لها المشابك .

— ما خدتش حاجة .

— على العموم ، خدت والا ماخدتش أنا حاجيلك دسمة مشابك ترجعها لها

وتستريح .

— مش مرجع لها حاجة أبدا .. وأنا وهى والزمن طويل .. أما اشوف مين

الى حايغلب .

— هي بتضربك مش عشان المشابك .. هي خايفة لتكون بعثهم وحانتجوز

بتمنهم .

— أنا حالتجوز ؟ ليه اتجننت ؟ بعد الى شفته من ام قويق .. اتجوز تانى !!

يا أخى دول بيقلوا .. لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .. وأنا مش مؤمن .. الا

فى الحكاية دى بالذات .

— يعنى أنت مبسوط من العلقه اللي بتاخدها كل يوم ؟

— لا مبسوط ولا زعلان .. أهى زى كل حاجة بنعملها فى عيشتنا .. أنا

مادام عندى القرعة والجوزة .. أهى كل حاجة محتملة .

ولما لم يجد الجدة من الحديث معه ، فوض أمره إلى الله .. ولم يجد هناك

حلا .. خيرا من أن نعود نحن أنفسنا على علقه المشابك الصباحى ، كما كنا

نسميها .

وظل الصباح يعلو من المنذرة كل صباح .. حتى كان ذات يوم انقطع فيه

الصباح ، فاعتقد أهل الدار أن الرجل لا بد قد اعترف ، وأعاد المشابك ..

وانظروا أن تصعد أم نجية حاملة المشابك .. ولكن أم نجية لم تصعد .. لسبب

بسيط .. هو أنها قد ماتت .
 وفوجئ الأهل بموتها وتملكتهم الدهشة والحزن .
 ولم يشكوا في أنها راحت نتيجة ظلمها للرجل المسكين ، الذى اتهمته كذبا
 بسرقة المشابك وظلت تضربه كل يوم .
 وخرج أبو نجية متسللا كعادته إلى التكية فجمع منها ما تيسر من الورق ،
 وانطلق من الدار .
 وبعد برهة رثى وهو يعود مترنحا كعادته ، ثم اختفى فى الحديقة ليظهر بعد
 لحظات .. وقد حمل كيس المشابك المسروق .
 وبهت الأهل وسألوه فى دهشة :
 — ولما المشابك كانت معاك المدة دى كلها .. مادتهاش ليه لام نجية ووفرت
 على نفسك الضرب ؟
 — أصلها كانت ندر للشيخ ريحان .
 — عشان إيه ؟
 — عشان ربنا ياخذ أجلها ويريحنى .
 ثم رفع يديه إلى السماء وتتم قائلا « الحمد لله » .
 وتحرك أبو نجية مترنحا إلى الضريح ، وفى صندوق النذور ألقى بكيس
 المشابك .. وقرأ الفاتحة على روح « أم قويق » وعندما التقى بجدى بعد ذلك سأله
 ضاحكا :
 — شفت بقى يا عم !! مين فينا اللى غلب ؟!

الواد عطوه

عطوه ١؟ ولكن أين عطوه ؟

يا للحمق !! ويا للغباء !!

إن عطوة الآن .. لابد أن يكون غارقا في أية
« غرزة » أو على أحسن الفروض يغط في نومه في بيت
خالته « أم نفيسة » بائعة الفول النبات في سیدی زینهم فهو
شديد التقرب منها في هذه الأيام من أجل ابنتها
« نفيسة » .

استيقظ « بيومى أفندى » على ضجيج الحمالين والركاب عندما وصل
القطار في النهاية إلى محطة مصر .

ومضت فترة وجيزة نفص عن نفسه خلالها غبار القطار ودعك وجهه وعينه
وتشاءب بضع مرات .. ثم خلع المعطف الأبيض الشبيه بمعطف الحلاقين ..
والذى يلازمه في كل سفره ليقى بذلته شر السفر .. وليصد عنها عوادى الغبار
والهباب .. ويجعلها في غير حاجة إلى كى أو تنظيف .

وبدا الركاب ينزلون من الديوان ، ووقف هو على أطراف أصابعه ومد يده
فجذب الحقيبة المنتفخة الموضوعة على الرف ثم طوى المعطف بعناية وفتح الحقيبة
فوضعه فوق المنشفة والجلباب والملفات المليئة بالأوراق ، ثم حمل الحقيبة ،
وهبط من القطار مندفعاً بين أفواج الركاب المتحركين على الرصيف .
كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة مساءً وميدان المحطة قد خفت فيه
الحركة وبدت فيه بضعة تاكسيات متناثرة تصاحب أصحابها بين آونة وأخرى :

« تاكسى يا بيه ؟ » .

وذابت جماهير الركاب فى الميدان وتشعبوا فى الطرقات والمركبات وعربات الترام . واتخذ بيومى أفندى طريقه إلى الأتوبيس الأزرق المتجه إلى الزيتون ، واستحث الخطى حتى يحجز لنفسه مقعدا قبل أن تشغل العربى بالركاب . واستقر به المقام على المقعد ، ودس الحقيبة فى أسفله ، وأسدل زجاج النافذة حتى يتقى شر ريح صرصر كان يحس بها تنفذ إلى عظامه .

اطمأن بيومى فى مقعده ، وأعد النقود فى يده انتظارا للكمسارى ، وأحس بالدفء والراحة .. فعاد النوم يهاجمه بلا هوادة .

لم يكن الرجل قد تعود السهر إلى تلك الساعة المتأخرة ولا سيما فى ليالى الشتاء .. لقد كان الليل يوشك أن يتصف وهو يحس بجسد منهك وذهن مكدود بعد أن أمضى اليوم كله فى عجل مستمر ، وكان المفروض أن يكون الآن راقدا فى الفراش ينعم بالدفء والراحة .. ولكن ما حيلته وقد خذله حسين ابن عمه الذى كان ينوى أن يقضى الليلة عنده فى طنطا وسافر فجأة إلى دمنهور . لقد أحس بخيبة شديدة عندما طرق الباب دون أن يجيبه أحد ، وعندما أنبأه البواب أن حسين أفندى رحل إلى دمنهور وأنه لن يعود الليلة .

كانت الساعة تربو على السابعة .. ولم يكن أمامه سوى أحد أمرين : إما أن ينزل فى أحد الفنادق وإما أن يعود إلى القاهرة . ولم يطل به التفكير حتى استقر رأيه على العودة إذ لم يجد هناك مبررا لأن يغرم أجر الفندق بعد أن انتهى من قضاء حاجته .. ولم يعد به من حاجة إلى البقاء .

أجل .. لقد حصل على معظم ما يبغي الحصول عليه من أوراق لازمة للقضية ، ولم يبق إلا بضعة أوراق تافهة يمكن المطالبة بها بالبريد .. فهم ليسوا فى حاجة ملحة إليها فى الوقت الحاضر .

وأحس بيومى أفندى وهو يتنهد فى مقعده فى الأتوبيس بشيء من راحة الضمير .. فقد استطاع أن ينهى عمله فى يوم واحد .. ولا شك أن عبد الرحيم بك

سيقدر مجهوده خير تقدير ، وسيشكره على سرعة الحصول على الأوراق المطلوبة .. لأنه سيجيء له وقتا كافيا لدراسة تلك القضية المزعجة المعقدة .
وهنا شرد ذهنه في القضية ، وأخذ يستعرض ما يعرفه من تفاصيلها ، وأحس بقشعريرة تسرى في بدنه .

لقد كانت جريمة مروعة .. قتل فيها المجنى عليه بسكين حزت رقبتة من الأذن إلى الأذن ، وتركت الرأس يتدلى من الجسد معلقا على بضعة عروق .
لقد شاهد بنفسه منظر الجثة ، وقد تجمدت الدماء من حولها ، وبدأ المجنى عليه أشبه بخروف الضحية ، وقد وجد بجواره السكين التي ذبح بها .. سكين مطبخ مشحودة السلاح ، مديبة الأطراف .
أى وحشية هذه التي دفعت القاتل إلى أن يرتكب تلك الفعل المنكرة ؟
ولم ؟! وما هى الدوافع ؟

إن الرجل لم يكن شديد الثراء حتى يطمع قاتله فيه .. ولا كان بالرجل المشاكس حتى يقال إنه قتل لثأر قديم .
إن المسألة تخفى وراءها كثيرا من الأحاجي والألغاز ، أو من يدري ؟
ربما كان الرجل قد ذهب ضحية ظن خاطيء وقد يكون القاتل لصا توهم بالرجل ثراء فسطا على داره .. فلما قاومه الرجل ذبحه ذبح النعاج .
على أية حال .. لقد حامت الشبهات حول البواب ، وألقى القبض عليه فعلا ، ولكن الرجل يبدو بريئا ويقسم أنه مظلوم .

وأحس بيومى بالأتوبيس قد توقف .. وفتح عينيه وحملق فيما حول فاستطاع أن يميز أنه قد وصل إلى العباسية وأبصر بالساعة التى تتوسط الميدان .. فإذا بها تشير إلى الثانية عشرة إلا ربعا .. بعد ربع ساعة سيصل إلى الدار ويربع ساعة أخرى سيكون راقدا تحت اللحاف فى فراشه الدافئ ، وهو يستطيع أن يتأخر فى الاستيقاظ كما يشاء .. فيعوض سهر الليلة .

وأحس بيومى بانقباض فى معدته وحركة فى أمعائه ، وتلك أولى دلائل

الجوع عنده .

إنه لا شك جوعان .. بل جوعان جدا .. فهو لم يتناول لقمة واحدة منذ أن تناول غدائه في أحد مطاعم طنطا في الساعة الواحدة ظهرا .

عشر ساعات لم يتناول فيها لقمة واحدة ؟ هذا كثير !
لا بأس عليه .. إنه سيعوض معدته خيرا بعد طول الصبر والانتظار .. إن خادمه عطوة يستطيع أن يرضيها بطبق من البيض المقلى ، وشيء من الجبن والزيتون .

أجل .. أجل .. إنه يذكر أن في التلمية ما لا يقل عن عشر بيضات ، ونصف أقة جبن ، ونصف أقة زيتون ، وهو لا يعتقد أن الخنزير عطوة قد سطا عليها .. أو على الأقل لا بد أن يكون قد ترك له بعضها — خمس بيضات مثلا ، وبعض الجبن والزيتون — ولكن ترى هل سيجد هناك خبزا ؟ لقد سبق أن نبه عليه مئات المرات ألا يترك البيت بلا خبز ، وأنه لا بد أن يكون هناك رغيفان للطوارئ . وهل يمكن أن يكون هناك طوارئ أكثر من هذا ؟

حمدا لله ، إن الرغيف الأبيض ينفع في الليلة السوداء هذا إذا كان عطوة الحمار قد تذكر الأمر وقام بتنفيذه .

عطوة !! ولكن أين عطوة ؟!

وفجأة ضرب بيومى أفندى جبينه بيده .. كمن تذكر أمرا خطيرا .
يا للحمق .. ويا للغباء .. إنه لن يجد عطوة في البيت . لعنة الله عليه من غبي ضعيف الذاكرة .. أو قد نسي أنه قد أعطى لعطوة إجازة اعتقادا منه أنه سيبيت ليلته في طنطا .

إن عطوة الآن لا بد أن يكون غارقا في أية « غرزة » أو على أحسن الفروض يغط في نومه في بيت خالته أم نفيسة بائعة الفول النابت في سيدى زينهم .. فهو شديد التقرب منها في هذه الأيام من أجل ابتها « نفيسة » .

كيف يستطيع العثور عليه الآن .. أو كان لا بد له أن يحب في سيدى زينهم ؟

هذا من فرط غبائه ، ومن غضب الله عليه .
إذا كان يعمل في الزيتون فلم لا يحب في الزيتون ، أو على الأقل في كوبرى
القبة .. أو في منشية البكرى .
وفجأة مد بيومى أفندى يده وتحسس مفتاح الشقة في جيبه حتى يتأكد من
وجوده ، وإلا كان المصائب أخطر شأنًا ، واضطر إلى كسر الباب ، أو قضاء
ليته في هذا البرد بلا مأوى .
وأطلق من صدره تنهيدة ارتياح عندما اطمأن إلى المفتاح ، وحمد الله الذى
يلهمه دائما فعل الصواب .

ماذا يمكن أن يحدث لو لم يكن يحمل في جيبه مفتاح الشقة ؟
وهنا توقف الأوتوبيس .. وحلق بيومى خلال الزجاج فتبين أنه قد وصل إلى
المحطة التى يجب عليه النزول فيها .. فوثب من مكانه ، ودفع جاره بمنكبه حتى
يخلى له الطريق قائلًا فى عجلة : « عن إذتك » ، ثم مد يده فجذب الحقيقة من
أسفل المقعد ، وهول هابطًا من الأوتوبيس وهو يصيح بالسائق محذرا بين آونة
وأخرى « حاسب .. حاسب من فضلك » .
وأخيرا .. أنال بيومى أفندى قدميه ظهر الأرض .. وأحس بالاستقرار
عليها .. وانتظر حتى تحرك الأوتوبيس ثم عبر شارع سليم إلى الرصيف الآخر ..
ودلف فى أحد الشوارع المتفرعة التى تؤدى إلى السكة الحديد حتى وصل إلى
مزلقان الزيتون ثم عبره إلى الناحية الأخرى .
وكان أمامه ما يقرب من خمس دقائق ، فقد كان البيت كائنا فى طرف
الضاحية .. لا يفصله عن المزارع الممتدة شىء .

لقد كان البيت مثاليا من الناحية الصحية والناحية المالية فهو خلوى إلى أبعد
حدود الخلاء . رخيص إلى أبعد حدود الرخص .. ولكنه مع ذلك لا يعدم
السيئات .. فهذا الإفراط فى الخلاء يسبب لبيومى أفندى كثيرا من المخاوف
والتعاب .. وهو لا يجسر إلا فى القليل النادر ، وتحت الظروف الطارئة أن يعود

إليه في ساعة متأخرة من الليل . لأنه يخشى عواء الذئاب والظلمة والوحشة وفراط
السكون ويتوهم في حلكة الليل أشباحا ولصوصا تجوس في المزارع وفي الطرق
المعتمة .. ولا يجسر أيضا مهما اشتد الحر في ليالى الصيف أن ينام والنوافذ
مفتوحة .. فهو يخاف أن يهبط إليه اللصوص .

وأخذ بيومى يقترب من الدار وقد شملته ظلمة حالكة وهبت عليه من المزارع
ريح رطبة باردة أصابته بقشعريرة في جسده ، وأسرع الخطى تجاه البيت ، وقد
أصابه وهم بأن هناك من يطارده .

وأخيرا وصل إلى البيت ، ودلف من الباب الخارجى ووقف برهة في
« بير السلم » وقد تكاثفت فيه الظلمة حتى لم يعد يرى أبعد من أنفه .
وبدأ يتحسس طريقه صاعدا الدرج بالتوجيه وبحكم العادة ومر بالطابق
الأسفل فلم يلمح من بابه بصيص ضوء .

ويحه .. إن البيت قد خلا الليلة إلا منه .. فقد تذكر في تلك اللحظة أن جاره
الذى يقطن في الطابق الأسفل مسافر هو الآخر في مأمورية منذ بضعة أيام ..
وسرى الخوف في نفسه .. فقد كانت المرة الأولى التى يبيت فيها وحيدا في
البيت .. لقد كان عطوة — لعنة الله عليه — يؤنس وحشته ، ويعت في نفسه
كثيرا من الطمأنينة .

وانتهى من صعود الدرج .. وأخرج المفتاح من جيبه ووقف أمام باب شقته
ليتحسس فتحة المفتاح ، ودفعه فيها وأداره دورتين .. ثم دلف إلى الداخل ..
ومد يده في الظلمة حتى استقرت على مفتاح الكهرباء ثم ضغط عليه .
ولكن الكهرباء لم تضيء .. لقد كان بها خلل .

يالللحس ! وبالله الليلة السوداء ! حتى النور !

ودفع بيومى يده في جيبه فأخرج علبة الثقاب .. إنه يذكر أن في أحد أدراج
البوفيه شمعة صغيرة يستطيع أن يشعلها ويستعين بها على تبديد تلك الظلمة
المروعة ، وأشعل الثقاب فأحدث حوله دائرة من الضوء كشفت عن الأشياء

المحيطة .. وكان أول ما وقع عليه بصر ييومي أفندى هو سكين كبيرة .. مشحوزة الحد .. مدببة الطرف .. وتذكر الرجل القليل .. وتذكر عنقه المعلق على بضعة عروق .. ودماء المتجمدة حوله .. وندت عنه صرخة مكتومة .. وأحس كأنه يوشك أن يخر مغشيا عليه .

يا للجان الرعدي !! ماذا أصابه ! هذه سكين المطبخ قد نسيها عطوة على المنضدة ! ماذا روعه منها ؟!

الكلب عطوة !! والله ليرينه عاقبة إهماله عندما يعود ، لقد أمره بالألا يترك الملاعق والسكاكين مبعثرة على المنضدة بل يضعها في دولاب « المطبخ » ومع ذلك لا فائدة من نصحه فهو لا يلتفت إلا « للمسخرة » .

وسار ييومي متمهلا على ضوء الثقاب ، ولكنه توقف في مكانه مرة أخرى .. لقد وجد الدولاب القديم الموضوع في ركن الصالة مفتوحا .. وبداله كأن هناك شبحا يكمن داخل الدولاب .

وأحس بخوف شديد .. ما الذى فتح الدولاب ؟ من يكون هذا الذى يتحفر داخله ؟! لص ولا شك !

ولكنه تذكر أن الدولاب دائما يفتح من تلقاء نفسه لأنه ليس به قفل ، ولأن ضلفته يميل ثقلها إلى الخارج فهي لا تستقر إلا مفتوحة .. أما الشبح الأسود فليس سوى صرة الملابس القديمة البالية يحفظها عطوة لكي يمزقها ويصنع منها سجادة .

وتمالك الرجل نفسه حتى وصل إلى البوفيه .. وفتح الدرج وهو يرتجف وقد تلاحقت أنفاسه حتى لم يعد يسمع في السكون الشامل سواها وانطفأ الثقاب ، وسادت الظلمة برهة ولكن سرعان ما بددها ضوء الشمعة .

ووقف ييومي ممسكا بالشمعة ، وأحس بأمعائه تنقبض وتتلوى .. إنه الجوع !

لا .. لا .. ليس هذا وقت أكل .. إنه لا يجسر على الذهاب إلى المطبخ ..

خير له أن يسرع فينكمش في فراشه وإلا مات رعبا .
ولمح الدولاب القديم على ضوء الشمعة .. فسرت في جسده القشعريرة مرة
أخرى ، وأسرع فدفع الضلفة بيده وأغلقها جيدا ، ثم سحب مقعدا فأسنده إلى
جوارها حتى لا تفتح مرة أخرى فهو لا يطيق النظر إلى الشبح الأسود الذى
تظهره صرة الملابس .
كل هذا من عطوة ؟! أية سجادة تلك التى يريد الغبى صنعها من الملابس
القديمة ؟ والله ليقدفنها من النافذة بمجرد شروق الشمس .
واطمان بيومى إلى غلق الدولاب الخفيف ثم اتجه إلى غرفة نومه ممسكا بالشمعة
في يد وبالحقيبة في اليد الأخرى .
ووضع الشمعة على منضدة صغيرة فى حجرة النوم ، ثم أسرع يخلع ملابسه
بسرعة البرق ولم تمض بضعة ثوان حتى كان قد أطفأ الشمعة وانطوى فى فراشه
مخفيا رأسه تحت الوسادة وقد أخذت أسنانه تصطك وأطرافه ترتعش .
وبدأ يطمئن نفسه بعد أن استقر فى الفراش قائلا لنفسه إنه ليس هناك
ما يستدعى منه كل ذلك الخوف والرعب ، وأن الدار هى التى يبيت فيها كل
ليلة .
وبدأت أعصابه تهدأ ، وجفونه تتأقل عندما سمع فجأة صوتا جعله يرهف
السمع ، وجعل أعصابه تتوتر من جديد .
أيمكن أن يكون هذا صحيحا ؟
لقد سمع صوت الدولاب يفتح ، ولم تكن الضلفة فى هذه المرة تفتح من تلقاء
نفسها بل بفعل فاعل .. لأنه سمع صوت المقعد الذى يسندها وهو يدفع عنها .
إذن لم تكن هى الصرة بل كان شبحا رابضا .
لا .. لا .. إن ما سمعه ليس سوى من فعل الأوهام .
على أية حال خير له أن يغلق باب الحجرة عليه بالمفتاح زيادة فى الحرص
والاطمئنان .

ونفض الرجل متسللا فى الظلمة المعتمة على أطراف أصابعه وأغلق الباب وأدار المفتاح فيه دورتين ، وهم بالعودة إلى الفراش .. عندما أحس بوقع خطوات تقترب من خارج الباب .. ثم أبصر بأكرة الباب تتحرك ببطء . وأحس كأنه يوشك أن يتهاوى على الأرض . هذه المرة لم يعد هناك شك لأن الأكرة تتحرك أمام ناظره والباب يهتز . ووضع له الأمر فى سرعة البرق .. وأدرك لم كانت السكين موضوعة على المنضدة !

وتذكر القتل .. والسكين التى حزت عنقه .
 يمكن أن تتكرر المأساة .. وتختتم حياته بمثل هذه الخاتمة التعسة ؟
 لا .. لا .. يجب أن يتألك وينفض عنه ذلك الرعب ، يجب أن ينجو بنفسه .

ونظر حوله كفأر حبس .. وتخيل اللص وهو يدفع الباب وقد أمسك السكين فى يده وهجم عليه فحز رقبتة من الأذن إلى الأذن . ولم يكن أمامه وسيلة للنجاة سوى النافذة . وأحس بالباب يهتز .. وخشى لو طال الانتظار أن يتهاوى الباب أمام قوة الرجل ، فأسرع فى لمح البصر وفتح النافذة فهبت منها ريح صرصرة عاتية .. ولكنه لم يشعر بأية برودة لأنه فقد فى ذلك الوقت كل إحساس إلا بالخوف المميت .

ووقف بيومى على حرف النافذة كريحة فى مهب الريح وتذكر أن هناك كورنيشا يحلى واجهة الدار ويمر من أعلا النوافذ وأسفلها وتبين أن هذا الكورنيش يمكن أن يهبط له وسيلة للنجاة لو استطاع أن يسير على الحافة السفلى ممسكا بيده الحافة العليا .

ولم يستغرق منه التفكير فى ذلك سوى ثوان معدودات وبدأ ينفذ مشروع النجاة .. وأخذ يتحرك بخطوات جانبية بطيئة على حافة الكورنيش السفلى ..

وقد تعلق بيديه فى الكورنيش العلوى .. وأخذت الريح الباردة تضرب ظهره
وبدا كأنما هو عنكبوت معلق فى حائط الدار .

على أية حال .. إن هذا خير من أن ينتظر حتى يحز الرجل رقبته بالسكين .
وفجأة أحس أن الكورنيش قد انتهى ، وأنه لم يعد هناك ما يستطيع أن يستند
إليه فيما لو حاول السير ، وأيقن أنه قد وصل إلى النافذة المجاورة لنافذته ، وأن كل
ما ساره لا يعدو أن يكون بضع خطوات .. ثم تذكر أن النافذة لا بد أن تكون
النافذة المطلة على بحر السلم .. ووجد أن خير طريقة للنجاة هى أن يهبط من
النافذة إلى الداخل ، ثم يتخذ طريقه على السلم إلى خارج الدار .

وهبط بيومى فى سكون من النافذة فاستقر على بسطة السلم .. وهم
بالاندفاع إلى أسفل عندما وجد باب شقته يفتح من الداخل .. وأبصر بضوء
خافت كضوء الثقباب يشع من خلال الباب ، ثم وقع بصره على السكين .
وتسمر بيومى فى مكانه ، والتصق بالحائط .

ماذا يفعل ؟ أيعود إلى النافذة ؟ أم يندفع إلى أسفل ؟

إن الرجل سيتبعه فى كلتا الحالتين وسيحاول اللحاق به ، وهو لا شك أخف
منه حركة ، ويستطيع أن يمسك به .

ومضت فترة وهو لا يقوى على الحراك ، وأحس أن أعصابه توشك أن
تخونه .. وأنه على وشك أن يخر مغشيا عليه .

وبدا اللص من الباب وقد شهر يده سكين المطبخ .. وباليد الأخرى أمسك
عود ثقاب .

ونظر إليه بيومى أفندى وصرخ بكل قواه :

— عطوة !!

أجل لقد كان عطوة بعينه ودمه ولحمه .. لقد طردته أم نفيسة ، فاضطر إلى
أن يقضى إجازته فى الدار ، واستيقظ على صوت حركة فى الشقة وأحس بإنسان
فى حجرة بيومى أفندى يحاول أن يغلق الباب من الداخل ، فتأكد أنه لص وأنه

— ٢٠١ —

يوشك أن يفر من النافذة ، فهبط ليتلقاه في الحديقة .
ونظر عطوة في دھول إلى بيومي أفندی وهو يقف على البسطة مرتديا الجلباب
وصاح به :

— بيومي أفندی !؟
وأجابه بيومي أفندی في ذلة ومسكنة :
— الحقني يا عطوه .. دمي نشف .
ولأول مرة .. سمح بيومي أفندی لنفسه أن يخر مغشيا عليه .

عبد الجادر عبد الدليل

وبدأت الفتاة تغدق على خدماتها وعطفها ، وتنظف
الحجرة وترتيبها وتتسكع بها ما شاء لها التسكع .
وأحسست من أفعالها هذه ، ومن تصرفاتها وتسكعها
أنى يجب أن أفعل شيئا ، وألا أضمن فى جودى وحيائى وأدبى
فأكون عند قولها « حمار من الشرق » .

هو صديق صبا وزميل طفولة .. وقد كان — أعنى هذا الحمار من الشرق —
حمارا منذ عرفته ... ولكنه كان وقتذاك حمارا من « قبلى » .. أى حمار محلى ،
ولم يكن قد اتخذ بعد هذه الصفة العامة العالمية .

اسمه محمد .. بكسر الحاء والميم .. ولقبه عبد الجادر عبد الدليل .. أى
عبد القادر عبد الجليل .. (بقلب القاف الأولى جيما والجم الثانية دالا .. للثقل
والتعذر .. أعنى ثقلها على لسانه وتعذر نطقها عليه) وشهرته ، محمد
الفوتبول ، وبلده فاو الرئيسية مركز نجع حمادى .

أما عن شهرته بالفوتبول .. فمرجعها إلى أنه كان التلميذ الوحيد فى سنة
رابعة ثان بمدرسة محمد على الابتدائية الذى كان يملك جزمة فوتبول .

ولم يكن محمد الفوتبول .. بلاعب ماهر للفوتبول .. حتى تملأ شهرته بهذا
الاسم الآفاق .. بل إنه كان يرتدى هذا الحذاء فى كل وقت .. عدا أوقات لعب
الفوتبول .

أما عن ارتدائه إياه فى كل وقت .. فقد كان أمرا طبيعيا ، لأنه لم يكن يملك
غيره .

ولست أشك في أن ستة الأزواج من « الاستدز » .. التى يرتفع عليها نعل هذا الحذاء كانت سبب ابتلاء صاحبنا به فقد كانت هى التى أغرت أباه الشيخ عبد القادر بشرائه له .

ولكن العجيب .. هو خلعه ساعة اللعب .. أى فى عز المعمة .
ذلك كان أمرا عجيبا ، ولكن — كما يقول المثل — إذا عرف السبب بطل العجب ، ولم يكن للأمر العجب سبب واحد بل كان هناك مائة سبب .
السبب الأول : هو أن أباه قد أوصاه بالحذاء خيرا .

والسبب الثانى : هو أن محمدا نفسه .. كان يخشى على نفسه من الكعبلة والزحقة ، إذا هو غامر باللعب به .
والسبب الثالث : هو أنه كان يعتقد — وهو على حق — أن قدمه كانت أشد صلاحية من الحذاء .

والسبب الرابع : وهو أهمها جميعا .. هو أن الحذاء لا يكون موجودا معه خلال اللعب .. بل يكون مؤجرا لأحد اللاعبين .

وقد يبدو إيجار صاحبنا لحذائه أمرا غريبا ، وقد يظنه القراء من باب المبالغة والتشنيع ، ولكنى أؤكد لهم أنه كان وقتذاك أمرا طبيعيا جدا .

كان حذاء محمد من نوع الكنج الأبيض ، حذاء فاخرا معتبرا ، وكان يجعل صاحبه محسودا منا .. فقد كان الحذاء الفوتبول أقصى أمانينا وقتذاك .. فقد كنا من غواة اللعبة ولكننا لم نكن نجيدها إلى الحد الذى يحشرنا فى زمرة تيم المدرسة المتمتع بلبس أحذية الكرة ، والذى كنا ننظر إليهم نظرة المحسودين أنصاف الآلهة .

وكان محمد هو الوحيد من بين العبيد الذى يمتلك الحذاء السحرى .. حقيقة أنه لم يكن يمتلك غيره ، ولكن ذلك لم يكن يحط من قيمته لدينا .. بل كنا نتمنى كلنا أن نكون مثله ، وأن يستبدل آباؤنا تلك الأحذية الرقيقة بأحذية فوتبول ضخمة ، وما حاجتنا إلى الأحذية الرقيقة ، وقد كانت لا تستغل إلا فى لعب

الكرة وشوط الزلط والطوب .

ولقد بدأت عملية الإيجار بأن سأل أحدنا محمدا المحسود أن يعيره الخذاء ذات مرة ، فرفض وأنبأه بأن أباه حذره من أن يخدشه أو يتلفه ، وهكذا قطع علينا محمد كل أمل في استعارة الخذاء ، وبقينا ننظر إليه في حسرة ولهفة حتى احتاج محمد ذات مرة إلى اقتراض قرش من أحدنا ، وهنا بدت الفرصة سانحة ، وصمم صاحبنا على استغلالها فقال :

— اسمع يا محمد .. أنا مستعد أديك القرش ، ومش حاخده منك .. بس بشرط .

— إيه ؟

— تسلفنى جزمتك اللعب بيها شوية .

— لا يا عم حد الله بينى وبينك .

— يا اخى متبقاش حمار .

— جلت لج .. يفتح الله .

— يعنى مش احسن ما انت قالعها وراكنها وبتلعب حافى .. أنا مستعد كان

اديك جزمتى تلعب بيها .. مبسوط يا عم ؟

وأخذ محمد يشاور عقله ، وبعد برهة قبل العرض .

وهكذا بدأ الإيجار ، وراج سوق الجزمة راجا شديدا إلى الحد الذى أصبحنا معه مضطرين إلى حجزها قبل موعد الإيجار ببضعة أيام .. من فرط لإقبال اللاعبين عليها .

وكانت نصيحة محمد التقليدية التى يسوقها إلينا قبل تسليم الخذاء :

— حاسب عليها ... ما تشوطش جوى .. اوعى تجربى بيها .

وهكذا كان محمد يفترض دائما فى مستأجر الخذاء .. استعجاره لمجرد التنزه وهذا هو ما كان يهون عليه الأمر .

ولقد استفد محمد وقتذاك بحذائه معظم مصروفاتنا حتى اضطررنا فى نهاية

الأمر إلى التشارك في استئجاره .. فكنا نستأجره إثنين اثنين .. كل واحد يستعمل فردة .. على أن تتبادلا في الهاف تيم .. فيتاح لكل منا فرصة لبس الفردة اليمين — وهى الأهم — في نصف الوقت .

وهكذا كان محمد عبد الجادر عبد الدليل تلميذا .. وصاحب ملك .. يؤجره وقتما شاء ، وحيثما شاء .

تلك كانت أولى مزايا محمد ، وهى الحذاء الفوتبول .. أما الميزة الثانية ، فهى أنه كان .. حمارا ، إن صح أن هذه يمكن أن تسمى ميزة .

كان حمارا غشима .. طيبا .. خفيف الدم ، ولقد ظل هكذا في كل سننى دراسته ، وفي كل أطوار حياته ، وظللنا ننتقل سويا من سنة إلى سنة ومن طور إلى آخر وهو نفس الحمار .

ولقد عدا بنا الزمن ، حتى انتهت دراستنا .. فضربت بيننا الفرقة ، وبقيت في عمل بالقاهرة ، وقذف به حظه السعيد إلى بعثة دراسية طويلة في إنجلترا . ووقفت أودعه وأوصيه بنفسه خيرا من بنات التاميز فإذا هو يضحك ضحكته العالية المجلجلة ويقول :

— ما تخافش (بكسر الفاء) .. دانا محمد ولد عبد الجادر من فاو جبلى ! . وافترقنا يومذاك ، وطالت به الغربة وامتدت الفرقة . حتى التقينا أخيرا بعد فراق خمس سنوات .

ووقفت أفحصه من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل فوجدته هو هو .. لم يعد عليه الزمن ، ولا بدل به شيئا .

محمد ولد الشيخ عبد الجادر عبد الدليل ، من فاو الرئيسية مركز نجع حمادى .. نفس الحمار اللطيف خفيف الدم .

وإن كان الجو والمكان الذى التقينا به يجزم لى بأنه لم يعد حمارا غشима . كان لقاؤنا فى مكان ما .. فى ليلة حمراء ، ولم يخطر لى ببال أن صاحبنا محمد يمكن أن يرتاد مثل هذا « المكان ما » فقد كان دائما مخلوقا خاما .. نججولا ،

هيا با .

قصدت « المكان ما » وصاحب لى ، وكانت قد مضت علينا مدة لم نرتده ولم نقض سهرتنا به وطرقتنا الباب فمضت برهة قبل أن يفتح لنا ، وأخيرا فتح الخادم لنا وسألنا التفضل .

وترددت برهة إذ لم نجد فى الدار أثرا لصوت أو حركة .. بل بدت خالية تماما ، وسألت الخادمة فى دهشة :

— أين .. الجماعة ؟

— تفضلا .. إنهم بالداخل .. مشغولين مع أحد الأصدقاء .

ودخلنا إلى خجرة الجلوس ، ففوجئنا بمنظر أذهلنا إذ وجدنا صاحبنا محمد عبد الجادر .. الغشيم ، التقى المصلى ، قد تربيع على الأرض ومن حوله التفت. الثلة بأكملها وقد انهمكوا جميعا فى الضحك والمزاح .

ولم أكد أراه حتى صحت به :

— محمد .. يخرب بيتك .. إيه اللى جابك هنا ؟! دانا فاكر كلسه فى المنجترا !

ونفض محمد وأخذنى بالحضن وهو يقهقه قهقهته العالية .

وعدت أقول له :

— إيه اللى جابك هنا .. دانا ماعنديش أى فكرة أنك فى مصر .

— لازم مابتجراش الاجتماعيات فى الأهرام .. اللى فيها أخبار الناس الأكابر .

— وانت بقيت من الأكابر ؟

— أمال .

— جيت ميتا .

— أدبلى شهر .

— شهر وانت فى مصر وأنا ماعرفش ، وبعد كده اقبالك فىن .. فى آخر حنة

يخطر على بالى انى أشوفك فيها .

— ليه بجا ؟

— انت مش فاكـر لما كنـا نتحايل عليك تيجى معنا هنا . فكنت تطاطى من الكسوف وتقول « أستغفر الله العظيم » .

— كان زمان ودبر .. حد واخذ منها حادة .

— والله زمان يا محمد يا ولد عبد الجادر ، ويتيجى هنا دائما ؟

وأجابنى بكلمته الشهيرة :

— كبير .. (بفتح الكاف) .

— يعنى بقيت صاحب بيت .

— وابوها .

— يعنى مالناش هنا عيش معاك .

— ما خلاص بجى راحت عليكم .

— والله خسروك بنات التاميز .. بعدما كنت خام ، بس فالح تقوللى ،

ما تخافش .. دانا محمد ولد عبد الجادر من فاو جبلى .. فاكـر .

— فاكـر .. فاكـر جوى .. ما هى دى اللى جابت لى الكافية .

— إزاي ؟

وبداً محمد ولد عبد الجادر من فاو جبلى يقص على « إزاي » ويروى مغامراته

مع بنات التاميز ، قال :

— وصلت مانشيسـتر بعد رحلة طويلة بالبحر وبالقطار قضيت معظمها

راقدا فى الفراش أشبه بالقتيل ، وحدث عن اللحمـة واللـبـخة التى أصابتنى

ولا حرج .. لقد ظلمت ما يقرب من شهر وأنا أشبه بالفأر الحائر فى مصيدة

أو باليهودى التائه الضال .. حتى استقر فى المقام أخيراً بين عائلة إنجليزية مكونة

من أرملة وابنتها .

وكانت السيدة فى مقتبل العمر لا تكاد تتجاوز الأربعين على قسط كبير من

ملاحة غير حائلة بل ظاهرة واضحة فى تقاطيع وجهها وفى استواء جسدها ،

أما الابنة فكانت فتاة لا تتجاوز العشرين بها شبه كبير من أمها مع فارق فى

النضارة والصبا .

وكانت العائلة خلوا من الرجال .. أى أننى كنت الرجل الوحيد المقيم بينهما ، وأقول لك الحق أننى كنت شديد التهيّب مفرط الخجل فما تعودت — أنا الحام الغشيم الصعيدي المحافظ — أن أقيم وسط نساء غريبات ، ولذا فقد كنت أتسلل إلى البيت كالفأر .. لا يكاد واحد يشعر بوجودى .. أو يجيئ وترحالى ، وما أذكر مرة أنى ، حاولت أن أرفع بصرى إلى إحدهما ... بل كانت تكاد تسبقنى إليهما كلمة « يا ساتر » التى تعودنا فى مصر أن نسبق بها مقدمنا على النساء . كنت شديد الانطواء .. فقد كنت أجده فى انطوائى خير مهرب لى مما يمكن أن أقع فيه من زلل مقصود أو غير مقصود . وكنت أشبه فى الدار بعابر سبيل لا آوى إليها إلا فى بهمة الليل .. حيث أدق الجرس فى هيبة وخشية فإذا ما فتحت لى إحدهما أطرق بى برأسى وتمتمت بضع كلمات على سبيل الاعتذار .. ثم أتسلل إلى حجرتى بلا حس ولا حركة .

فإذا ما ضمتنى الغرفة أغلقت الباب شاعرا من وحدتى بشئ من الأمان ، وكانت الحجرة بسيطة لا تحتوى إلا على فراش ودولاب للملابس ومنضدة عليها مرآة ، ومقعدين قديمين ...

وكان أكثر ما أفاسيه فى حجرتى المنعزلة .. هو البرد والحنين إلى الوطن .. كان البرد قاسيا إلى حد لم تجد معه أغطية ولا بطاطين حتى اضطررت إلى رفع سجادة قديمة من الأرض ووضعها فوق الأغطية التى أغطي بها فلما لم تجد نفعا لجأت إلى كل ما أملك من ملابس فنقلتها من الدولاب ورصبتها فوق الواحد بعد الآخر حتى انتهى بى الأمر إلى أنى لا أنام إلا وفوق كوم هرمى من الملابس يكاد يصل إلى عنان السقف .

ولست أشك أنى كنت مستمرا فى النوم على هذه الطريقة طوال مدة البعثة ، ويعلم الله ماذا كان يمكن أن يصبح عليه جسدى بعد مر السنين عليه وهو تحت هذه الأثقال ، ولكن أغلب ظنى أنه كان سيطرق ويرق ويصبح جسدا رفيعا

منبسطا .

أقول إني كنت سأستمر على هذا النوم حتى حدث ما كشف أمرى فجأة ..
فقد تأخرت في النوم ذات ليلة عقب سهرة مع أحد الأصدقاء في يوم عطلة ،
وبينا أنا ملقى في فراشى تحت كوم الملابس وأنا أفتح عيني في كسل وتراخ إذ
سمعت طرقا على الباب ، وقبل أن أتمكن من النهوض وإخفاء معالم المنظر العجيب
فتح الباب ورأيت الابنة واقفة به وقد استقر بصرها على كوم الأغذية والسجادة
والملابس طبقات فوق طبقات .. ثم دارت بصرها في أنحاء الحجرة محاولة
البحث عنى إذ لا شك أنه لم يخطر لها ببال أنى أرقد تحت هذا الكوم المرتفع .
ولم أحرك أنا ساكنا فقد خجلت من أن تكشف وجودى على هذا الحال
وتمنيت أن تغلق الباب وتنصرف ، ولكن الشقية لم تذهب بل خطت إلى الأمام
خطوة جعلتها في داخل الحجرة وأخذت تعيد البحث في مزيد من التأنى والدقة ،
وأخيرا صاحت منادية :

— هاى .. مستر محمد .

وهنا لم يكن بد من الإجابة فصحت من أسفل الكوم :

— هالو .. مس مارى .

وتهللت الفتاة ، وعادت تنادينى بأعلى صوت :

— هالو .. أين أنت ؟

— أنا هنا .. فوق الفراش ، وتحت الأغذية .

وانحنى الفتاة نازرة إلى فى ذهول صائحة :

— وماذا وضعك هنا ؟

— أنا .

— لماذا ؟

— لأنام .

— ومن الذى وضع هذا فوقك ؟

(أغنيات)

— أنا أيضا .

— لماذا ؟

— لأقاوم البرد .

واندفعت الفتاة تقهقه .. ثم قالت أخيرا :

— إذا كنت ستداوم على هذا .. فقد تموت يوما مختنقا ...

— وإذا لم أداوم عليه .. فسأموت قطعا من البرد .

— ولكن لماذا لا تستعمل المدفأة ؟

— أية مدفأة ؟

— هذه المدفأة الغازية الموجودة أسفل المنضدة .

— عجبا !! أيوجد مدفأة أسفل المنضدة ؟

— بالطبع .

— لعنة الله على .. إلى لم أكتشف وجودها ..

ولو اكتشفت وجودها لما عرفت كيف تستعمل .

— ولماذا لم تسأل مستر محمد ؟

— خشيت أن أزعجكم !

— إن هذا لا يزعجنا .. إننا مفروض علينا أن نهبط لك الراحة .

وكانت هذه المناقشة تدور بيننا بسرعة وأنا ما زلت في مضجعي تحت هرم

الملابس وأخيرا قالت الفتاة :

— أتستطيع النهوض ؟

— بالطبع ، ولكن أرجوك أن تبتعدى حتى لا تقع عليك الملابس .

وكان الأمر يحتاج إلى بعض الجهد فانكمشت ضاما ركبتي إلى صدري ثم

فردتهما بشدة فارتفع الكوم ثم مال على جانبه منهارا إلى الأرض .

وصاحت الفتاة معجبة :

— برافو !

وأردفت وهى تتجه إلى الباب :
— سأذهب لكى أحضر لك فنجانا من الشاى وأعلمك استعمال المدفأة .
وبعد لحظات عادت الفتاة إلى الشاى وجلست تعلمنى استعمال المدفأة
التي لم يخطر لى على بال أنها موجودة .
وهكذا بدأ أول حديث لى مع الفتاة .. لقد اندفعت هى تعرض خدماتها ،
ولكنى كنت ما زلت مغرقا فى أدبى وتحفظى .. أحدثها دون أن أجسر على النظر
إليها بل أخفض بصرى ، كما تعودت أن أفعل دائما عندما أكون فى حضرة حريم
غريبات ...

وكننت أفضل أن أستمع على شهادتى الصعيدية وألا أستغل رقة الفتاة
ولطفها ، وأن أريها أنى رجل رزين وقور .
لقد زادت ساعات وجودى فى الدار بناء على دعوتها من آن لآخر للشاى أو
للطعام ، ولكن كنت طوال تلك الساعات محتشما .
وكننت إذا ما جمعنى وإياهما مجلس أسبلت عيني وطأطأت رأسى فى حياء
وخشية وأدب .

واستمع هذا شأنى ، حتى فوجئت بالفتاة تسألنى :

— ماذا بك يا مستر محمد ؟

ودهشت وهزئت رأسى متسائلا :

— من حيث ؟

— عينيك .. هل بهما شىء ؟

— لا .. أبدا .

— إذا لم لا تنظر إلى بهما ؟ هل لى شىء لا يعجبك ؟

— حاشا لله .. وأستغفر الله ، إن بك كل شىء حسن .

— إذا فما السبب فى أنك لا تنظر إلى ؟

— أدب .. لا أقل ولا أكثر .

— أدب ؟ !

واندفعت مقهقهة ثم أردفت :

— إنها قلة أدب .. من قال لك إن من الأدب ألا تنتظر إلى فتاة أمامك ؟ أأنت

جميلة ؟ ألا أستحق النظر ؟

— بل تستحقين كل النظر .. إني جد آسف .. لقد تعودنا أن نفعل هذا مع

النساء في بلادنا .. اعذريني ، فأنا مؤدب من الشرق .

— إنك حمار من الشرق ، أرجوك أن تكف عن هذا الأدب .

ومن يومها بدأت أكف عن أدب النظر .. بالنسبة إلى الفتاة .

وبدأت الفتاة تغدق على خدماتها وعطفها ، وتنظف الحجرة وترتبها وتتسكع

بها ما شاء لها التسكع .

وأحسست من أفعالها هذه ، ومن تصرفها وتسكعها أني يجب أن أفعل شيئا ،

وآلا أمعن في جمودي وحيائي وأدبي فأكون عند قولها « حمار من الشرق » .

أجل ! كان يجب أن أفعل « شيئا » ، ولكن ما هو هذا الشيء الذي يستطيع

مثلي أن يفعله ؟

ماذا أقول لها ؟ إن المسألة تحتاج أولا إلى أن أكتب ما سوف أقول باللغة

العربية ، ثم أترجمه إلى الإنجليزية .. ثم أحفظه عن ظهر قلب ، وألقيه عليها

كالحفوظات .

وبعد كل هذا التعب ، أكون مضحكا ، وحمارا أيضا ؟

إذن فيجب أن أفعل شيئا .

أقبلها مثلا ؟

لم لا ؟ لأجرب معها .. وأرى ما سوف يكون .

وفعلا ، ظللت أترقب الفرصة حتى سنحت ، وفي خلوة لنا في حجرتي ،

وجدتها تنحني لترتب الفراش .. فممدت بوزي ، ولهفت قبلة ، ووقفت أنتظر

النتيجة .

ووجدتها تهز رأسها في أسف ، وتقول ببساطة :
 — إن الرجل الإنجليزي لا يفعل هذا .
 وأحسست من قولها بلطمة شديدة .. وإهانة بالغة ، وتأنينا مرا .
 ولم يكن أمامي سوى الانسحاب ، والندم والتباعد ، فانسحبت وندمت
 وتباعدت .
 ومرت الأيام والليالي ، وأنا منطو على نفسي عائد إلى سابق حياتي .
 حتى كان ذات مساء وأنا عائد إلى حجرتي ، عابرا الممر ذى الضوء الخافت
 مارا بحجرتها في صمت وسكون أن أحسست بيدها تمتد من باب حجرتها ثم
 تمسك بي من قفائ وتجرني إلى داخل حجرتها .
 ووقفت أمامها وجها لوجه ، وهى بقميص النوم .. ورأيتها تحملق في وجهي
 غضبي ثائرة ، وتهمس ناهرة :
 — ما بالك أيها الحمار العنيد ؟
 وعادت تسأل بانفعال :
 — ماذا فعلت لك حتى تمنعني في إعراضك الغبي ؟
 — ألم تقولي لي عندما قبلتك .. إن الرجل الإنجليزي لا يفعل هذا ؟
 — أجل ! إنه حقا لا يفعل هذا .. ولكنني لم أقل لك إنني أحب ما يفعل الرجل
 الإنجليزي .
 وتصالحنا .. وفعلت بها ما لا يفعل الرجل الإنجليزي ، وما لا تكرهه هي .
 ومرت الأيام ، والعلاقات تزداد وثوقا وتوطدا حتى أصبحت الفتاة تفرض
 لنفسها عليّ حقوقا ، وتغار عليّ من الهواء ، ولا تكاد تتركني أخرج وحدي .
 وفي كل هذه المعمة ، كانت أمها تقف على الحياد .
 وبدأت أحس من الأمر بخطورة ، فقد باتت الفتاة تعتبرني خطيئها .
 وتصورت ما يمكن أن يحدث لفأو جبلي .. وللشيخ عبد الجادر عبد الدليل
 أني ، وللمست عيوشة أمي ، لو حدث — لا قدر الله — أن تخرج الأمر ولم أستطع

منه فكاكا ، وعدت إليهم وفي يدي « سنيورة » من بلاد برّه .
ولم يكن هناك علاج للمسألة أحسم من أن أسافر إلى مصر في إحدى
العطلات الصيفية ثم أعود لابسا خاتم خطبة زاعما أني قد خطبت حتى أقطع
عليها كل تفكير في خطبة أو زواج .

وفعلا ذهبت وعدت وفي أصبعي خاتم الأمان .
ولم يخطر ببالي أن الخاتم سيكون له هذا الوقع المروع فقد ثارت الفتاة ،
وتشنجت ، وبكت .. وظلت بضعة ليال ساهرة لا تهدأ ولا تنام .

كل هذا وأمها على الحياء لم تنبس بكلمة تأنيب ولا لوم .
حتى دخلت على ذات ليلة ، وأنا أوشك أن آوى إلى الفراش .
وبدأت أجمع في ذهني مستندات الدفاع .. ردا على ما توشك أن تنزله بي من
لوم وتأنيب ، وما توشك أن تصفني به من سفالة ، ولؤم ، وانحطاط ..
لتغريري بابنتها وخداعى لها .

ووقفت أمام الفراش أرتجف خجلا واضطرابا .
وأخذت الأم تقترب مني في صمت ، وكلما زاد اقترابها وضمتها زادت
خشيتي .

حتى وقفت بجوارى أمام الفراش ورفعت يديها .. لا لتضربني ، بل
لتمطى ، وتستلقى على الفراش ، وتهمس إليّ في استدعاء واسترخاء :
— أطفئ النور .. وتعال ، هيا ، أيها الحمار من الشرق .

ومنذ تلك الليلة .. أصبحت الأم تشاركني الفراش .. وهى قريرة راضية ،
مقتنعة بأن ليس في عملها أية خيانة لابنتها ، بعد أن أصبحت خاطبا وفقدت كل
أمل في ..

ولقد عرفت في النهاية أني كنت حقا حمارا من الشرق ، لأنه كان على أن أبدأ
بالأم ، المجربة ، من أول الأمر .

عبدربه الصُرماتى

يا عبدربه يا صرماتى .. يا من لم تنجب الحياة أغبى
ولا أحق منك .. يا من تفرق في شبر ماء .. قاتلك الله من
حمار أبله .. فيم كل هذا التفكير وهذا الحزن ؟. إن النقود
لا قيمة لها إلا إذا كانت وسيلة لجلب السعادة وطرد
الشقاء .. أما إذا جلبت لنا الهم فلتذهب مع الشيطان !.

لم يكن عبدربه مجرد صرماتى !؟ بل كان موسيقيا فنانا .. وكانت له في بلده
شهرة واسعة .. فما خلا منه مجمع أنس أو حفل طرب .. وما مرت به ليلة
إلا وقد تكاثرت حوله القوم في مقهى البلدة يرجونه أن ينشدهم بعض الماويل على
ربابته .

ولم يكن الرجل في حاجة إلى رجاء .. فقد كان لا يستطيع أن يجلس صامتا ..
أو يسير وحيدا لا تصاحبه الربابة .

وكان بين ربابته وامرأته عداوة شديدة وخصام مستحكم .. فقد كانت
أم أحمد (المرأة) تكره أم على (الربابة) كرها شديدا .. ولا ترى فيها
إلا مضيعة للوقت ، وما زال القوم يذكرون تلك الزوبعة العاصفة التي لاقته بها
المرأة يوم عاد إلى الدار أول مرة يحمل الربابة وينبئها أنه ابتاعها لقطة .. من أحد
الحوانيت في البندر .. عند ذهابه لزيارة خالته نفيسة .

كانت أم أحمد امرأة جد .. ترى أن « صرماتى » يعنى « صرماتى
لامغناوى ولا مزيكاتى .. وكانت ترى في تعلق زوجها بالغناء والطرب
والموسيقى .. سببا في انشغاله عن عمله الأصلي .. وفي صرفه عما يجب أن

ينهمك فيه من ترقيع «البراطيش» وإصلاح «الصرم» .. وسببا في «وكسته»
أو خييته .. وبقائه طول عمره «عتقى» تعس في هذه البلدة الخربة الخاوية.
وكانت أم أحمد — وهى قاهرية من بولاق — تتوق إلى العودة إلى مقرها
الأصلى ولا تفتأ تنغص على زوجها عيشه .. ملحة عليه في الرحيل إلى القاهرة ،
وهو يستمهلها حتى يفتح الله عليه وحتى يتجمع لديهما من المال ما يعينهما على
السفر وعلى الاستقرار فى القاهرة .

وهكذا وجدت المرأة أن أملها فى الرحيل عن هذه البلدة الكريهة معلق بأن
يفتح الله على زوجها فيجمع لها قدرا من المال .

ولكن كيف يفتح الله عليه .. ومن أين يأتيه قدر من المال .. وهو يضيع
نصف وقته فى الغناء والسمر والطرب ؟ وزاد الطين بلة .. تلك الربابة التى
اشترأها والتى صرف فيها مبلغا لا شك فى أنه كان يمكن أن يجعل منه نواة لتغيير
مجرى حياتها والرحيل عن هذه البلدة والاستقرار فى مصر .

ومن هنا كان كره المرأة للربابة والغناء . وأخذت المشاحنات تتزايد يوما بعد
يوم حتى بدأ صبر المرأة ينفد وانتهى بها الأمر إلى أن تخرج من دارها ذات ليلة وقد
تأخر عبد ربه عن موعد عودته متجهة إلى المقهى ثائرة هائجة .. وتهجم على
زوجها فتخرجه من بين الجمع الذى أحاط به .. وتنشب أطافرها فى عنقه
وتمسك بالربابة فتحطمها .. ثم تسوقه أمامها عائدة إلى الدار .

ومنذ ذلك الوقت انطوى عبد ربه على نفسه لا يكاد يغادر مقعده .. وبدت
عليه علامة الهم والبؤس .. كأنما حرم من عزيز لديه .. يتناول «الصرم» من
الزبائن كسير القلب حزين النفس .. والزبائن يقبلون عليه .. واجمين
مطرقين .. كأنهم فى مأثم ..

وسرى الحزن من عبد ربه إلى أهل البلد جميعا .. وأضحت مجامعهم صامتة ،
بعد أن خلت من عبد ربه وربابته .

ومضت بضعة أسابيع والبلدة صامته واجمة كأنما قد نزلت بها نازلة وأصابها كارثة .. حتى كان ذات يوم حدثت معجزة اهتزت لها البلدة .
لقد هبط عليها محسن كريم .. أغدق عليها حسناته فأنقذها مما بها .. وترك أهلها حيارى مشدوهين ، يتساءلون من يكون هذا المحسن المجهول .. فلا يجدون جوابا .

استيقظ أهل البلدة ذات صباح فإذا بالبريد يحمل إليهم سिला من الحسنات كان أولها بضعة عشر جنبها لإصلاح الجامع .. وبضعة أخرى لشراء أقمشة للأطفال .. وهكذا لم يترك المحسن ناحية إلا أغدق عليها من أفضاله .. حتى المقهى .. لم يحرم من مبلغ وفير لإصلاح حاله ولشراء بعض الكراسى .. والدكك .

وكان آخر هذه الأفضال المنهالة على أهل البلدة من المحسن المجهول أو أكثرها غرابة .. طردا كبيرا مرسلا باسم « الصرماني » .
وتكأ كأك القوم حول الطرد ليعلموا ما يحويه .. ووقفت أم أحمد لاهثة الأنفاس .. مشدوهة .. حيرى .. تحملق في الصندوق وقد أخذ زوجها في فتحه لرؤية ما جاء به .

ونزع عبد ربه الصندوق برفق وأخذ يزيل طبقة القش التي علت سطحه ثم مد يده وأخرج ما به .

وندت عن القوم صيحة دهش .. وفغرت أم أحمد فاها وهي تحملق في محتويات الطرد .. فقد كان لا يزيد عن « ربابه » .

ربابة ١٩ هذه أمنية للبلدة كلها قد تحققت ولا شك .
وأمسك عبد ربه الربابة يفحصها في إعجاب ولهفة .. وقد علت وجهه أبلغ علامات الرضا .

وهزت أم أحمد رأسها في خيبة شديدة .. وأصابها الحيرة فلم تعرف كيف تتصرف لإزاء هذا الخصم الجديد الذي أرسله لها المحسن الأحق المجهول .

وأخذ القوم يتساءلون عمن يكون هذا المحسن العجيب الذى غمرهم بفيض من إحسانه وعطفه...!! وفجأة صاح الشيخ على .. خادماً الجامع وإمام البلدة :
— لقد وجدته .

وبهت القوم وتساءلوا :

— من ؟!!.. من هو ؟..

وعاد الشيخ على يصيح :

— عبد ربه .. ولا أحد غيره .. إنه لا شك السبب فى هذه النعم التى أغدقت علينا .

وهز القوم رءوسهم فى دهش وحلق عبد ربه بعينيه وأشار إلى صدره متسائلاً فى عجب :

— أنا ؟!!

— نعم أنت .. فلا شك أن أحد الأثرياء من أصحاب الأراضى المجاورة قد سمع نبأ رباتك وكيف حل بنا الحزن بعد أن حطمتها امرأتك .. وربما سمعت تغنى ذات مرة فأطربته .. وساءه أن يخفت صوتك وتصمت رباتك ورغب فى أن يعوضنا عما أصابنا من غم .. فوهبنا ما وهب وأغدق علينا من نعمه .. وليس أدل على صحة قولى من أنه خصك أنت بالذات بهذه الرابة .

ولم يكذب الشيخ على ينتهى من قوله حتى أمن القوم عليه وأقبلوا على عبد ربه يشدون على يديه ويوسعون عناقاً وتقيلاً .. وأبدى الشيخ على اقتراحاً ، أنه يجب عليهم اعترافاً بفضل عبد ربه أن يجعلوا له أجراً شهرياً نظير غناؤه وعزفه على الرابة .

ووافق القوم بالإجماع .. قائلين إن عبد ربه يستحق كل خير .. وإن البلد قد خيم عليه الشقاء والتعاسة منذ أن خفت صوته وصمتت ربابته .
وانفرجت أسارير أم أحمد .. وأحست لأول مرة فى حياتها .. باحترام لزوجها ولربابته .. فقد أصبح الغناء والعزف عملاً رسمياً .. وأضحت الرابة

مورد رزق بعد أن كانت مضیعة للوقت .. ومدت يدها فتناولت الربابة برفق
قائلة له :

— حاسب عليها لتتكسر .

وهكذا عاود عبد ربه غناءه وعزفه على الربابة .. وعادت إليه بشاشته ..
وانقشعت عن البلدة سحب الغم التي خيمت عليها ، وعاد القوم إلى سابق
فرحهم ومرحهم .. وفكاهتهم ومجونهم .
ومرت الأيام .. وسر المحسن المجهول ما زال في طي الخفاء لم يستطع مخلوق أن
يتوصل إلى كشفه .

وفي ذات يوم ذهب الشيخ على إلى دكان عبد ربه الصرماقي .. وتربع على
مقعد أمامه وناولوه حذاءه ليجرى له فيه بعض الترقيع والترميم ، وجرى بينهما
الحديث . فسأل الشيخ على صاحبه عن امرأته وكيف أصبحت . وأجاب عبد
ربه بلهجة راضية :

— الحمد لله ..

— أظنها كفت عن تنغيص عيشك .. ومنعك عن الغناء والعزف ؟
— أجل لقد تبدل حالها وركت مشاعرها وأصبحت هي نفسها تطلب مني
الغناء والعزف .

— هذا شيء واضح .. حتى ليخيل لي أنها قد تغيرت تماما .. لقد أصبحت
امراة كاملة .. لولا ..

ثم هز الشيخ على رأسه في أسف ، فسأله عبد ربه في دهش :
— لولا ماذا ؟ ..

ولم يجب الشيخ على ، بل استمر يهز رأسه ، فعاد عبد ربه يستحثه :
— تكلم يا شيخ على .. لولا ماذا ؟
— لولا أمر يبعث في نفسي التساؤل والحيرة .. وهو نظراتها إليّ .
ودهش عبد ربه ورفع حاجبيه متسائلا :

— ما لها نظراتها إليك ؟

— إنها تنظر إليّ نظرات غريبة مريبة .. نظرات مليئة بالحذر والشك .. كأنها تكاد تجزم بأنى أبله أو مجنون ؟

واندفع عبد ربه فى قهقهة عالية .. وأخذ يهتز من فرط الضحك . وبدأ الشيخ يتملكه الغضب وصاح فى صاحبه :

— ما يضحكك من قولى ؟

وكف عبد ربه عن الضحك واستطاع أن يتالك نفسه وقال فى شبه اعتذار :

— الواقع أنها معذورة يا شيخ على .

وازداد غضب الشيخ على وعاد يهدير صائحا :

— معذورة !! .. يا ابن الحرام .. يعنى أنا راجل مجنون ؟

— العفو يا شيخ على .. لا أقصد هذا .. لو عرفت السبب لأدركت أنها حقا معذورة .

وصمت عبد ربه برهة ، ثم أخذ يروى لصاحبه السبب قائلا :

— هذا بينى وبينك أرجو ألا تبوح به لإنسان ، مفهوم ؟

— مفهوم .

— أنت تعرف أننى فى كل عام أذهب إلى البندر لزيارة خالتى نفيسة ..

والواقع أنى كنت أودى هذه الزيارات مكرها لأنى لا أكره شيئا كمغادرتى

للبيت .. ولكنى كنت أرى فى الزيارة واجبا علىّ لا بد من تأديته .. فقد كانت

خالتى هذه امرأة وحيدة ليس لها من الأقارب سوى . وكانت زيارتى تسبب لها

سعادة كبيرة وتشعرها بأنها ما زالت لها صلة بهذا العالم وأن هناك من يسأل عنها .

وذهبت آخر مرة لزيارتها منذ بضعة أشهر — وأذكر أنه كان يوم الجمعة — وقد

استيقظت قبيل الفجر فتوضأت وصليت الصبح حاضرا .. ثم توكلت على الله

وسرت إلى البندر .

و كنت طوال الطريق أفكر فى حلم رأيته .. وأنت تعرف أن أحلامي لا تخيب

أبدا .. ولذا كنت شديد الوجوم ، منقبض الصدر .
 رأيت في الحلم أنى سائر على شاطئ بحر في ليلة معتمة ، وفيما أنا سائر خيل إلى
 أنى أسمع أصواتا جميلة وأنغاما حلوة كأنها آتية من وراء البحر ، وتوقفت أنصت
 مرهفا أذنى محاولا تجميع النغمات .. ولكن مصدرها كان بعيدا ، وكان معظمها
 يتبدد مع النسيم فلا يصل إلّى منها إلا أجزاء متقطعة كأنها رائحة الشواء .. تحرك
 الشهية ولا تغنى من جوع .

واشتد بى الحنين إلى النغم وأنا واقف مرهف الأذنين حتى وجدتني أجرى في
 المياه متجها على غير إرادة إلى مصدر النغم .

وظللت أسبح وأسبح ، والنغم يزداد اقترابا ، وتزداد معاملته وضوحا ..
 ولم أشك وأنا أقترب منه أن مصدره ربابة تجرى عليها يد عازف ساحر .. وبعد
 طول جهد لاحت لى ربوة مشرقة سابحة في ضوء القمر .. فأسرعت في السباحة
 كى أبلغها ، موقنا أن النغم لا بد وأن يكون صادرا منها .. وأخيرا أو بعد أن
 كدت أبلغها سمعت صرخة مفاجئة وصوت استغاثة يشق الفضاء ، وتلفت إلى
 مصدر الصرخة فإذا بمركب مقلوب وغريق يحاول التشبث به .. وترددت برهة
 فقد كان جهدى بالغأ نهايته ، وكان طول السير فى الماء قد استنفذ كل قواى ..
 وكان ما تبقى لى من قوى لا يكاد يوصلنى إلا إلى الربوة المشرقة .. حتى لقد
 ساورنى شك فى أنى مشرف على الهلاك إن لم أسرع إلى الربوة .

ولم يطل بى التردد حتى عزمتم على الاتجاه إلى الغريق ، فإما أنا أنقذه أو نهلك
 معا .. وأخذت أضرب الماء بياأس حتى كلت قواى وأنا أقترب منه .. ولدهشى
 الشديد تبينت أنه خالتي نفيسة .

وصحت بها مطمئنا أنى عبد ربه ، وسألتها أن تتمالك حتى أصل إليها ..
 وظللت أجاهد فى السير حتى بلغت وأمسكت بيدها وحاولت العودة بها ولكنها
 أنبأتنى أنها ستبقى ، وأنه لا فائدة من عودتها معى لأنها ذاهبة ذاهبة .. ثم بدأت
 تغوص فى الماء .. وصحت بها أن تتمالك وأنى سأنقذها وأعود بها ، ولكنها مدت

يدها وخلعت منديلا على رأسها وأعطته لى قائلة :

— خذ هذا المنديل فإنه سيساعدك فى بلوغ الربوة .

واختفت فى جوف الماء ، ولم أجد بدا من العودة وحيدا ، ولكنى كنت أشك كثيرا فى إمكان العودة فقد كانت قواى قد خارت تماما .. وأمسكت بطرف المنديل فإذا بالريح تنشره ، وإذا به يكبر ويتسع حتى أضحي كأنه قلع مركب ، وتشبثت به .. فأخذت الريح تدفعنى وتدفعه .. وفى غمضة عين بلغت الربوة المنشودة .. وجلست أنعم بالنعم العجيب .

كان حلما عجيبا .. كان لا شك يعنى شيئا .. وكنت أخشى كثيرا من هذا الشيء الذى يعنيه .. ألا وهو ذهاب خالتى وفشلى فى إنقاذها من الغرق . وكان الوهم يحملنى هما ثقيلًا .. فقد خيل لى أنى لن أصل إلى الخالة إلا وقد ذهبت إلى جوار ربها .

ولكنى استعنت بالله على طرد هذا الوهم ، ونفضت عن نفسى آثار ذلك الهم ، وقلت : إن كل ما أظنه ليس سوى أضغاث أحلام .. واتجهت قبل أن أذهب إلى المحطة إلى دكان سيد العطار لأبتاع لخالتى كيس الدقة المصنوعة من السمسم الذى تعودت أن أحمله لها فى كل زيارة .

وتذكرت بعد أن ابتعت الدقة أنها قد أوصتنى بشراء رطل من الخناء وبعض اللبان الذكر .. ولم يكن معى من النقود إلا ما كنت أحاول ادخاره خفية من زوجتى لشراء ربابة جديدة .. ولكنى مع ذلك لم أتردد فى أن أبتاع للخالة العزيزة ما طلبت بالنقود المتوفرة قائلًا لنفسى : لى أستطيع أن أدخر مبلغًا آخر وأن أوجل شراء الربابة بعض الوقت .. ولم يكن فى إقدامى على هذا العمل أى إحساس بتضحية .. بل كان مجرد استبدال متعة بمتعة .. فأنا دائما أوازن فى حياتى بين المتع وأختار المتعة الأبقى والأفضل .. وفى هذه الحالة اخترت المتعة المستمدة من إسعاد شخص قد حرم إلا من السعادة التى أستطيع أن أهبه إياها .. وهى متعة لو تعلم تفوق كل متعة .

وهكذا سرت إلى المحطة حاملا في يدي السبب الملىء بمطالب الخالة من دقة إلى حناء إلى لبنان .. إلخ . أو على الأصح هديتى السنوية .
ولا أكذبك القول أنى كنت أحمل الهدايا .. وبنفسى كثير من الشك أنى لن أجد المهدى إليها ، ولذا لا تسل عن فرحتى عندما وصلت فوجدتها سليمة .
معافاة .

ولقيتني بالترحاب .. وضمتنى إلى صدرها فى حنان ورفق ، وقالت :
— طول عمرك .. وأنت ولد طيب .. إن الله لن يخذلك قط .
كانت تعتبرنى ولدا حتى ذلك الوقت .
وجهازت لى الغداء .. وجلست تطعمنى .. كأننى كما تعتبرنى مجرد ولد .
وبعد الطعام .. ماتت .

أجل .. ماتت فجأة .. هكذا كما أروى .. بدون أى سابق إنذار .
ومع ذلك لا أظن الموت يحتاج إلى إنذار ، لقد كانت تجلس على شلته ، ويدها فنجان القهوة ، فوجدت رأسها يميل ، وجفניה يتأقلان ، ويدها تهبط
بنفجان القهوة على حجرها .

وأصابنى من مرآها رجفة شديدة .. ولكنى وثبت تجاهها وحملت فنجان
القهوة المسكوب على ساقها ثم أرقدتها على الشلته كى تستريح ، وقلت فى
جزع :

— ما بك ؟

فلم تجب ، وأخذ رأسها يتأيل متحركا يمنة ويسرة ، ثم فتحت عينيها بعد
لحظة ، وتمتمت بصوت متقطع :

— ورقة اليانصيب .. إنها فى درج الدولاب تحت العلبة الصفيح .. لقد
ابتعتها بكل ما كنت أملك .. لقد كان مبلغا ضئيلا لا يستحق أن أهبه لك ..
ولكن فكرت أنى أستطيع أن أبتاع لك هذه الورقة .. وأن أهب لك معها بعض
دعوات خالصة بالربح .. فإذا استجاب الله دعواتى .. وهياً لها الربح .. فأنى قد

وهبتك بذلك مبلغا طيبا .. إنك ولد طيب .. والله لن يخذلك .
ولم تمض بضعة دقائق حتى أسلمت الروح .. ولم تمض بضعة ساعات أخرى
حتى ووريت التراب وانتهى كل ما كان من أمرها إلا أمرا واحدا وهو ورقة
يانصيب عثرت عليها تحت العلبة الصفيح مكتوبة باسمي .
أتعرف ورقة يانصيب المؤاساة .. إنها ورقة كاملة لا نصف ولا ربع
ولا عشر .. إذا ربحتم نمرتها فمعناها أني ربحتم بضعة عشرات الآلاف من
الجنهيات .

وأحسست بالدموع تنهمر من عيني .. لا لأنني أتوقع ربها — فأنت تعرف أني
لا أمل كثيرا في مثل هذه الأشياء — ولكن فرحي كان إحساسا مني بجميل تلك
الراحلة التي ودت أن تعوضني عن اهتمامي بها وزيارتي لها .. فابتاعت ورقة
اليانصيب بكل ما تملك ، راجية أن يكون لي بعض الحظ ، فتربح الثمرة .
ووضعت الورقة في جيبي في سكون ، ومضيت أتجول في الطرقات حتى
استقر لي الأمر على إحدى المقاهي . وبعد برهة مر لي صبي يحمل في يده بضعة
أوراق يانصيب .. وكشوها بها نتائج السحب .
وتملكني شيء من الارتباك .. ثم ناديت الصبي بصوت خافت وأخرجت
الورقة من جيبي وبدأت أفحص الكشف .

وبالطبع لم تكن نمرتها تطابق البريمو .. فتجاوزت عنها .. وبدأت أهبط بعيني
إلى بقية النمر الراجعة التي في الكشف .

وفجأة رأيت الأرقام تتراقص أمام عيني .. ثم تشابك وتنقلب رأسا على
عقب .. فشددت من الشيشة التي أمامي نفسا طويلا استعنت به على تهدئة
نفسي .. وعدت أحملق في الكشف مرة أخرى .

لقد وجدتها .. هي بعينها .. نفس الأرقام بلا جدال ولا نقاش .
لقد ربحتم الورقة .. ولكن الثمرة .. ليست الأولى ، ولا الثانية ،
ولا الثالثة .. ولكنها مع ذلك ربحتم مبلغا محترما بالنسبة لأي إنسان محترم ..

أما بالنسبة لى .. فقد كان محترما جدا .
وبدا لى أن أقوم فأرقص عشرة بلدى فى وسط المقهى .. وأن أطلب من
الحاضرين أن يطلبوا ما يشاءون على حسابى وأعلنهم أن عبد ربه صرماق
سندويس قد أصبح ذا مال ، وأنى رغم مظهرى رجل غنى .
وهمت فعلا .. بالنهوض والصياح .. ولكنى فجأة تذكرت أمرا بدد فى
نفسى كل ما بها من فرح وغبطة ، وهبط على كحمل أثقل كاهلى .. وأنقض
ظهري .. ووجدت أنى قد استرخيت على مقعدى منهكا لا أستطيع نهوضا
ولا صياحا .

تذكرت ما سيحدث عندما أذهب بالنقود إلى البلدة ، وأنبئ بها أم أحمد ..
ماذا يمكن أن تقول لى ؟!

ستتف بى صائحة : « ربنا تاب علينا من بلد السوء .. يالله على مصر ..
تفتح دكان جزماتى فى بولاق .. وتبقى بنى آدم » .
أنا لا أكره بولاق ، ولا أكره مصر .. ولكنى فقط لا أعرف أحدا هناك ،
ولا يعرفنى أحد .. إنى فى بلدتنا كل شىء .. أما هناك فسأكون لا شىء ..
سأكون قشة فى عباب متلاطم الأمواج .. إنى هنا صرماق البلدة .. بلا شريك
ولا منازع .. وإنى مغنيا ، ومطربها .. ومحدثها ، ومضحكها .. إنى البلدة ،
والبلدة أنا .

ترى كيف أكون فى بولاق ؟!

وأجسست بقشعريرة تسرى فى جسدى ، ونهضت من مكانى متاثلا ،
وأخذت أجوب الطرقات على غير هدى مطرق الرأس ، مهموم القلب .. وقد
أخذت الذكريات تتزاحم فى رأسى وتغلى فيه كأنه مرجل ، ذكرت بلدة
العزيزة ، وأهلها الكرام .. تذكرت غناءنا ومرحنا وضحكنا وطربنا .

تذكرت شاطئ الترعة صباحا وقد أقبلت عليه أم السعد والسيدة وفرح
يحملن الباليلص على رعوسهن ، ويتهادين فى خطاهن ، وقد افترت ثغورهن ،

(أغنيات)

وشاعت في أسارىهن السعادة والهناء .

تذكرت صندوق وشاكوشى ومقعدى و« براطيشى » و« صرمى »
و« جردلى » . تذكرت الجامع على شاطئ النيل وصلاتنا جماعة ، تذكرت كل
شئ ووجدت الدمع يهيم من عيني مدرارا ، إني أحب بلدى بكل ما فيه
ولا أرضى به بديلا و« لو شغلت بالخلد عنه ، نازعتنى إليه في الخلد نفسى »
وفجأة توقفت في مكافى ودون أن أشعر وجدتنى أحاطب نفسى قائلا :

« يا عبد ربه يا صرماى ، يا من لم تنجب الحياة أغيبى ولا أحقق منك ، يا من
تغرق في شبر ماء ، قاتلك الله من حمار أبله ، فيم كل هذا التفكير وهذا الحزن ؟
هل نسيت أن المرحومة خالتك لم تهب ما وهبت إلا لغرض واحد هو إسعادك ؟
إنها لم تترك لك ورقة اليانصيب إلا لأملها في أن تربح ، ولم تأمل في أن تربح
إلا لرغبتها في أن تجلب لك الهناء والسعادة ، فهل حققت غرضها ؟ كلا والله ،
لقد أغرقت نفسك في الهوم . إن النقود لا قيمة لها إلا إذا كانت وسيلة لجلب
السعادة وطرد الشقاء .. أما إذا جلبت لنا الهم فلتذهب مع الشيطان ، أنا بغيرها
أنعم بالا ، هيا أيها الأحق ، أسعد نفسك بحقق غرض خالتك ونفذ
وصيتها » .

وانطلقت أقهقه .. وأخذت أعدو في الطريق راقصا والناس ينظرون إلى
نظرتهم إلى ذى جنة .. ثم أمضيت يومين في البندر وأنا منهمك في جلائل
الأعمال .. وفعلت ما يمكن أن يسعدنى .. ثم عدت إلى البلدة .. خاوى
الوفاض .. وبعد بضعة أيام .. وصلت البلدة عطايا المحسن المجهول ، وأقسم لك
أنى ما كنت أستطيع أن أكون أكثر هناء أو أنعم بالا .

ثم توقف عن الحديث .. كأنه أتم القصة .

وصاح الشيخ على فاغرافاه في دهشة شديدة :

— إذن فهو أنت ؟

— ٢٣٧ —

والله ليرينه عاقبة خداعه وسفاله .. صبرا يا عفريت الكلب !
ومرة رابعة .. انبعث الصوت مندفعاً بسلسلة السباب المعتادة :
— وله يا عويس .. يا تور .. يا ابن التور .
لا .. لقد زادها .. لا بد من ردعه وإلا ساق فيها .
وجلس عويس القرفصاء وصاح بأعلى صوته حانقا :
— عايز إيه من عويس ؟
— مالك بتزعى كده يا واد ، انت اتجننت .
— أنا الى اتجننت ؟ والله عال يا ولاد .. أنا برضك اتجننت ؟
— يا واد وطى صوتك ، وماتزعقش كده .. وفوق لنفسك ، وقوم اعمل
الشأى .

— شأى ؟! كان عايز شأى ؟! أهو ده الى ناقص !
— أنت يا واد جرا لعقلك إيه النهارده ؟
— طيب اتحمد أحسن لك ، وخلينى انام .. إحنا ما صدقنا ربنا تاب علينا .
— يعنى مش حا تعمل الشأى ؟
— شأى لما يهرى جوفك .. مش كفاية مجمعز على السبرير ، وسايينى انام
على الحصيرة .. قوم فز .. قامت قيامتك وانتصب ميزانك ، قليل الحيا
ما تختشيش .

— عويس .. فوق لنفسك يا عويس .
— فوق انت ، كل واحد لازم يلزم حده هنا ويعرف مركزه .. من هنا ورايح
تيجى ترمى مطر حى هنا ، وتعمل الشأى وتحضر لى المية أتوضا .. أنا ما بقتش
حاجة قليلة ، أنا الشيخ عويس على سن ورمح .. واعمل حسابك تقف ورايا فى
الدرس ، وتلمينى كلمة كلمة ، واوعى تغلط لحسن أوريك شغلك .. فاهم
والالأ

— لا .. الواد لازم جرى لعقله حاجة أكيد .. لازم عايز له قلمين علو

الحاج قطة

الحاج قطة .. هذا الذى يقيم صاحبنا فى ضريحه ..
والذى تجرى حوادث قصتنا تحت قبة .. هو أحد أولياء
الله الوهميين من ذوى البركات والكرامات الذى يزعم
أهل القرية أنه كان يتقمص فى حياته جسد قطة ، فيمر على
أهل القرية ليسدى إليهم النصيح ويمد لهم يد المعونة ، وأنه
كان يتحدث وهو فى جسد القطة كما نتحدث نحن
الآدميين .

الساعة الرابعة صباحا .. وقد تمدد الشيخ مبارك فى فراشه ، وانطلقت
أنفاسه فى شخير خافت ، وانحسر جلبابه الدمور المخطط عن ساقين كالأقلام
البسط ، سمراء عجفاء ملساء جرداء ، وقدمين معروقتين مشققتين وركبتين
نفرت منهما العظام حتى كادت تشق الجلد الواهن الرقيق .
ويبدو الجسد بعد ذلك . وقد أخذ الصدر فيه يعلو ويهبط ، ومع كل حركة
منه يسمع « تزيق » كأنه نعل حذاء جديد يهبط إلى الأرض لأول مرة ، وتندلى
يداه طويلتين مسترخيتين من فتحتى كم الجلباب الواسع ثم يبرز العنق من فتحة
الصدر .. وقد وصلته بعظام الترقوة والكتفين عدة عروق بارزة نافرة أشبه بحزمة
من الأنابيب .

أما الوجه فلا يمكن تمييز سيماه إلا من بعد .. أما إذا حققنا فيه من قريب
فنجده أشبه بقطعة أرض مستوية .. مليحة بالهضاب والوهاد والأحاديث
والجروف ، وقد تناثرت فوق تجاعيد ذقنه الشعيرات البيضاء ، وتهدل الشارب

على فجوة الفم ، وبدت من فوقه هضاب الأنف مفرطحة منبعجة قد أطلت الشعيرات من فتحيتها وتناثرت المسام على سطحها .

وتبدأ أولى بشائر اليقظة باهتزاز في الجفنين وارتعاش في الحاجبين .. ثم يمد أصابعه الطويلة فيحك فجوى عينيه ، ويفتر فاه على أشده في تناوب حاد تنقلص معه عضلات بطنه ويمد ذراعيه مشدودتين متمطيا بكل ما يملك من قوة ، ثم يعود جسده إلى الاسترخاء ، وتمضي برهة يبدو فيها الرجل كأنه قد عاد إلى نومه مرة أخرى .. حتى نراه فجأة قد نهض بنصفه الأعلى .. ثم أدلى ساقيه من الفراش ، وتحنح وسعل وبصق .. ثم صاح بصوت متحشرج :

— عويس .

وتذهب « عويس » الأولى مع الريح .. فيكرر الرجل النداء مرة أخرى بصوت أشد :

— يا واد يا عويس .

وتذهب الثانية كما ذهبت الأولى ، ويتكرر النداء مرة ثالثة ورابعة ، وفي الخامسة يبدأ عويس في التقلب والتلمل ويצר زفرة شديدة .. ثم يعود إلى سباته .

ويطلق الشيخ مبارك السادسة .. مصحوبة ببعض ألفاظ السباب والنهر والزجر فيظهر مفعولها الحاسم في إيقاظ عويس .. فيجلس القرفصاء على فراشه المكون من قطعة من الحصير فرشت على الأرض في الطريقة الضيقة الكائنة أمام حجرة الشيخ مبارك .

ويبدو عويس وقد تكور في جلسته مرتديا فائلة سمراء وسروالا من الدمور واسعا فضفاضا .. تدلت تكته الطويلة ذات الشراية على الأرض ، وتأمل « الواد عويس » فتجد أن خير ما يوصف به أنه « جته » أو « شحط » أو « فحل » عريض المنكبين .. متين البنيان قوى العضل .. فارع الطول .. أسرفت الطبيعة في خلقه .. فوضعت فيه من مواد البناء آدمي ما يكفي لعمل

اثنين .. بالراحة !

ويرفع عويس رأسه من بين ركبتيه .. فيبدو لنا وجهه على ضوء مصباح الغاز الذى تضطرب ذباته على الرف . وجه فلاح نموذجى عريض الصدغين .. كبير التقاطيع ، خشن المنظر .. بادى الطيبة .

وينطلق النداء العاشر من حنجرة الشيخ مبارك .. فيأخذ عويس فى هرش جسده وحك رأسه .. ثم ينهض متثاقلا ، ويتحرك حركة لا إرادية .. فإنه لم يستيقظ بعد ، وتمتد يده إلى صفيحة مياه فى ركن الطرقة فيصب منها فى إبريق من الصاج ثم يتناول قصعة متسعة فارغة ويتحرك ببطء متجها إلى حيث يجلس الشيخ مبارك ، ويقف أمامه .

ويبهط الشيخ مبارك من فوق فراشه الخشبي فيجلس القرفصاء على الأرض ، ويبدأ الرضوء ، وبعد دقائق نراه قد اتخذ مكانه .. فى زاوية الحاج « قطة » يوم المصلين فى صلاة الفجر .

هذا هو أول أعمال الشيخ مبارك .. أو سيدنا . كما تعود أهل قرية « سلنت » أن ينادوه ، وكان الرجل يحس فى قرارة نفسه أنه سيدهم فعلا .. فقد كان ذا شخصية مسيطرة . وكان يتمتع بقدر من الخبث يهين له التحكم فىمن حوله من السذج البسطاء ، والسيطرة على عقولهم .

وكان الشيخ مبارك يمثل فى القرية السلطة الدينية والروحية والعلمية والأدبية . فقد كان — بمسبحته وتمتته وتعاويذه وصلواته — إمام القرية ومقرئها وملجأ أهلها فى الكوارث والنوازل . وكان — بعصاه ومنظاره وكتبه الصفراء — معلم القرية ومرشدها وواعظها وناظر كتابها .

وكان الرجل يياشر كل أعماله تلك ، من صلاة وتدریس ووعظ وإرشاد ونوم وأكل واستقبال ضيوف وشتمة عويس .. فى مكان واحد ، هو مقره المختار .. زاوية الحاج قطة .

والحاج قطة هذا الذى يقيم صاحبنا فى ضريحه ، والذى تجرى حوادث قصتنا

تحت قبته .. هو أحد أولياء الله الوهميين من ذوى البركات والكرامات الذى يزعم أهل القرية أنه كان يتقمص فى حياته جسد قطه ، فيمر على أهل القرية ليسدى إليهم النصيح ويمد لهم يد المعونة وأنه كان يتحدث وهو فى جسد القطه كما يتحدث نحن الآدميين . وأنه كان إذا مرض أحد القرية يتولى علاجه ، ويقوم عنه بحرث أرضه وربها وبكل ما يؤديه فى صحته .

هذا هو بعض ما يتحدث به أهل القرية ، وهناك غير ذلك الكثير من الكرمات الخرافية التى ينسبونها إلى ولى الله الشيخ قطه المبجل . ويعتبر الشيخ مبارك خليفة ولى الله بين أهل القرية ويزعمون فيما بينهم أن الشيخ قطه لا يفتأ يهبط إليه بين آونة وأخرى .. ليزوده بالبركات والنفحات الطيبات .

ولا يكاد الشيخ مبارك ينتهى من تأدية أول أعماله ، وهى صلاة الفجر . بما يتبعها من تسبيح وتمتمة وقراءة أوراد ، حتى ينطلق من حنجرته النداء المعتاد : — عويس .

ويصل النداء إلى أذن عويس العريضتين كأذن حمار ويكون الرجل منهما فى تنظيف « التعريشة » الكائنة خارج الزاوية ورش أرضها بالمياه ورى العنبة التى تتسلق قوائمها وتمتد على سقفها ، وتمثل التعريشة جناح العلم فى منشأة الشيخ قطه .. أى كتاب الأرض ودكة خشبية وضع بجوارها مقرعة وزير اتخذ مكانه فى أحد أركان التعريشة .

ويتحرك عويس فى صمت متجها إلى الطريقة الفاصلة بين ضريح الشيخ وفراش الشيخ مبارك الذى يتخذ هو مرقد له .. فيجلس القرفصاء أمام وابور غاز ويأخذ فى إعطائه بضعة أنفاس ثم يتناول المصباح الغازى فيشعل ذبالته . ويتنظر برهة حتى يسخن ثم يضع فوقه برادا أسود بقاعه بقايا شأى يصب عليه الماء من الكوز الكائن بجوار الزير ، ثم يحمله وكوبا صغير إلى الشيخ مبارك .

وأخذ الشيخ مبارك في احتساء الشاي الأسود في صمت وإطراق وجلس عويس على مقربة منه يحتمس نصيبه من كوب آخر .
 وفجأة قال الشيخ مبارك في صوت عميق :
 — يا عويس .. يبدو لي أن أجلى قد قرب .
 ونظر إليه عويس في فزع وقال مأخوذاً :
 — لا تقل هذا الكلام يا سيدنا الشيخ .. ربنا يعطيك طول العمر .
 وهز الشيخ مبارك رأسه ببطء وقال في إصرار :
 — أنا أعرف ما أقول .. إن أحلامي لا تخطئ قط . لقد زارني في المنام الحاج قطعة وكان يرتدي جلباباً أبيض ، ويشع من عينيه بريق خاطف وقال لي يا شيخ مبارك إني في حاجة إليك .. فقلت إني خادملك وطوع أمرك ، فقال إني أريدك أن تصعد معي .. فسألته :

— متى ؟

— الآن .. هل لديك مانع ؟

وهممت أن أجيبه « كلا » ولكنني تذكرتك ، وقلت لنفسى إنه لا يجب أن أتركك هكذا فجأة ، وإن أقل واجبات اللياقة والذوق تقتضي أن أنبئك عند الرحيل بأننى راحل ، ولا يجب أن أتركك بعد هذه العشرة الطويلة دون أن أودعك . ودون أن أزودك بالنصائح والوصايا ، ثم إن هناك أمراً أجلى من هذا وأخطر شأنًا ، وهو أننى يجب ألا أرحل قبل أن أترك خليفة من بعدى .. كما تركنى الشيخ قطعة خليفة من بعده ، وعلى ذلك فقد قررت أن أطلب من الشيخ قطعة أن يمهلى قليلاً وقلت له :

— أعطني مهلة يا شيخ قطعة .. حتى أبحث لي عن خليفة ، قبل أن أرحل معك .

— ومن تظنه يصلح لخلافتك ؟

وبحثت في ذهني عن إنسان في القرية يصلح لخلافتى ، وأخذت أستعرض

أهل القرية واحدا واحدا .

الشيخ زينهم ؟ منافق .. كذاب أشر .. الشيخ عتريس ؟ شر منه .. الشيخ فضل ؟ أحمق مأفون .. على أبو المعاطي ؟ زير نساء .

وهكذا أخذت أعجم عودهم فلم أجد منهم واحدا يصلح لخلافتي .
وأخذ الشيخ يستحثني بقوله :

— ما بالك لا تجيب ؟

وفجأة وجدتك تقفز إلى ذهني ، وشعرت باسمك يتخذ مكانه على طرف لساني وقلت له :

— عويس .

— عويس .. يصلح لخلافتك ؟!

— أجل .. عويس .

— عويس ، الحمار الأبله الأبكم ، يصبح خليفة الشيخ قطة ؟! ما هذا بحديث عقلاء .. قل شيئا آخر .

ولكني مع ذلك أصررت عليك وصممت على ألا أتخذ لي خليفة سواك ،
وقلت للشيخ قطة إنني مسئول عنك .. ولكنه قاطعني في سخرية :

— عويس يصبح خليفة الشيخ قطة ؟! والله لقد هزلت . الواد عويس الغبي ، يصبح سيدنا الشيخ عويس ؟! على أي حال أنت وشأنك .

وانطلق الشيخ قطة يقهقه ضاحكا .

وصمت الشيخ مبارك وأطرق برأسه برهة ، ثم رفع بصره إلى عويس وقال في صوت عميق :

— وهكذا يا شيخ عويس ، لا بد أن تعد نفسك لأن تتخذ موضعى بعد الرحيل .

ونظر عويس إلى الشيخ مبارك في ذهول شديد ، وأخذ يتمتم قائلا : « الش عويس » .. « سيدنا » ثم بدأ يتصور نفسه وقد ارتدى العمامة والمنظار وأمسك

بالمسبحة والعصا ، وأقبل الناس عليه يقبلون يده ويمسحون جباههم في طرف
جنبته زيادة في التبرك .

من كان يظن هذا ؟! عويس .. يرث الخلافة ، ويضحى رب الضريح
لا شريك له فيه .. ينام على الفراش ، ويأخذ الهدايا من كل حذب وصوب ..
شاي ، وسكر ، ومنين ، وبين ، وعسل ، وفطير ، وبلح .. هذا والله ما لم يجسر
على أن يأمله مرة واحدة في حياته الراكدة .

وأى شيء يطلب منه تأديته في مقابل هذا ؟. الصلاة ، « بسيطة » ،
والتسبيح « أمر سهل » ، والتمتمة « مسألة هائفة » ماذا يطلب منه أكثر من
هذا ؟.

وفجأة تذكر الكتاب والتلاميذ ، والتعريشة ، والألواح الصفيح .. هذه
هى المعضلة الكبرى ، والعقبة الكمود .

وعض على أصبعه في غيظ وندم وبدت على وجهه أبلغ آيات اليأس والفشل
وقال للشيخ مبارك في صوت خافت :

— لكن يا سيدنا الشيخ .. دانا معرفش أفك الخط !

كيف يمكن أن يصبح خليفة الشيخ مبارك وهو يجهل هذه الطلاسم التى
يعلمها الشيخ للصغار من الصبية .

آه لو كان يعرف فك الخط .. لهان كل شيء .

ياله من حمار كسول !، ماضره .. لو كان اتخذ مجلسه بين التلاميذ .. فهتف
معهم : زين وفتحة زا : ره وفتحة را ، عين وفتحة عا .. زرع .

ونظر إليه الشيخ مبارك نظرة فاحصة ، وقال في لهجة الواثق المطمئن :
— لقد فكرت في كل هذا ، لا تخش شيئا ، فسأتولى أنا أمرك ، لا تقلق
نفسك .

— كيف .. ألم تقل إنك راحل الليلة ؟

— أجل ! ولكنى أستطيع أن أهبط إليك حين أشاء . سأكون معك بروحي

— ٢٣٥ —

أفعل لك ما تشاء .. كل ما عليك هو أن ترتدى العمامة والمنظار والجبة وتمسك العصا والمسبحة وتترك الباقي لى .

وهز عويس رأسه فى حيرة وقال متسائلا :
— لست أفهم ما تقصد !

— سيصاحبك عفريتى أينما حللت يفعل لك كل ما تريد ويرشدك إلى كل ما تبغى .. ولن يصبره أحد سواك .. ما رأيك ؟
ووجد عويس أن المسألة أعوص من أن يستطيع فهمها أو التفكير فيها ، ولم يجد خيرا من أن يكل أمره إلى الشيخ مبارك كما تعود أن يفعل فى كل شيء ، وقال فى لهجة ملؤها الاستسلام :
— أمرك يا سيدنا .

ومر اليوم بعد ذلك بعويس ، وهو أشبه بالمذهول لا يعى من حوله شيئا ، لا يكاد يسمع الصبية يصيحون : زين وفتحة زاء .. حتى يدق قلبه بشدة ، وتصيبه رجفة من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، ويقطر من جبينه العرق من فرط الهم والخوف .

وانتهى اليوم وذهب الشيخ مبارك إلى فراشه وعويس ينظر إليه نظرات وجلة خائفة كأنه ينظر إلى عفريت .

ورقد الرجلان ، ووصل إلى أذن عويس صوت شخير الشيخ مبارك أجش عميقا كأنه يصدر من جوف قبر .

وبعد لحظات استغرق عويس فى نوم مضطرب ملؤه الأحلام المألئى بالعفاريات والأشباح .

* * *

وفجأة استيقظ على صوت يصيح به :
— عويس .

من الذى ناداه ؟ إنه صوت يشبه صوت الشيخ مبارك ولكنه قطعاً ليس صوت الشيخ مبارك ، فإن الشيخ مبارك قد رحل .

أجل ! لقد صعد إلى جوار الشيخ قطرة . وأضحى عويس الآن ، خليفة
الشيخ قطرة ، بلا شريك ولا منازع .
ومرة أخرى سمع الصوت العفريتى ينادى :
— عويس .

ويج العفريت الأحق المغرور ! ما باله ينادى هكذا ، كأنما هو الشيخ مبارك
نفسه ؟

لعله نسى أو تناسى مركزه هنا ، إنه مجرد خادم لا أقل ولا أكثر .. كل ما عليه
أن يؤدي ما يطلبه منه ، ويقضى له ما يحتاج إليه .. وهو بعون الله لن يحتاجه إلا في
مسألة فك الخط . وتعليم الصبية ما تيسر من ضرب وزرع وأكل .. أما بعد ذلك
فالله الغنى عنه ، إنه سيقوم وحده بكل ما تبقى من صلاة وتسبيح وتمتمة .
أجل ! هكذا كان الاتفاق ، أو هكذا وعد الشيخ مبارك قبل صعوده .. لقد
أورثه كل ما ملك من ولاية ومشیخة ، وترك له الضريح بأكمله ، ولقد كان
جديرا بأن يبقى كل ذلك له وحده لا يشاركه فيه إنسان لولا غباؤه وجهله بفك
الخط ولكن الشيخ ترك له عفريته في خدمته وتحت أمره .
فالوضع الآن قد تحدد بوضوح ، فعويس قد أضحى الشيخ مباركا ..
وما تبقى من الشيخ مبارك . أى عفريته قد أضحى عويسا .
فالواجب إذاً أن يرقد عويس في الفراش ، وأن يستلقى العفريت .. إذا كان
لا بد له من الاستلقاء فوق الحصير .

وعلا الصوت مرة ثالثة يصبح ناهرا :

— وله يا عويس يا ابن الصرمة القديمة .

— ما شاء الله ، ما شاء الله .. هكذا يبدأ العفريت خدمته .

طبعاً هو يظنه يجهل حقيقة الموقف ، ويحاول أن يشتمه فيتخذ منه موقف
السيد كما كان يفعل الشيخ مبارك وهو يبدو بهذا السباب كما كان يفعل الشيخ ،
ظاناً أنه خادعه ويخيفه ويخضعه لسلطانه .

— ٢٣٧ —

والله ليرينه عاقبة خداعه وسفالته .. صبرا يا عفريت الكلب !
ومرة رابعة .. انبعث الصوت مندفعاً بسلسلة السباب المعتادة :
— وله يا عويس .. يا تور .. يا ابن التور .
لا .. لقد زادها .. لا بد من ردعه وإلا ساق فيها .
وجلس عويس القرفصاء وصاح بأعلى صوته حانقا :
— عايز إيه من عويس ؟
— مالك بتزق كده يا واد ، انت اتجننت .
— أنا اللي اتجننت ؟ والله عال يا ولاد .. أنا برضك اتجننت ؟
— يا واد وطى صوتك ، وماتز عش كده .. وفوق لنفسك ، وقوم اعمل
الشأى .

— شأى !؟ كان عايز شأى !؟ أهو ده اللي ناقص !
— أنت يا واد جرا لعقلك إيه النهارده ؟
— طيب اتحمد أحسن لك ، وخلينى انام .. إحنا ما صدقنا ربنا تاب علينا .
— يعنى مش حا تعمل الشأى ؟
— شأى لما يهرى جوفك .. مش كفاية مجممز على السرير ، وسايينى انام
على الحصيرة .. قوم فز .. قامت قيامتك وانتصب ميزانك ، قليل الحيا
ما تختشيش .

— عويس .. فوق لنفسك يا عويس .
— فوق انت ، كل واحد لازم يلزم حده هنا ويعرف مركزه .. من هنا ورايح
تيجى تترمى مطر حى هنا ، وتعمل الشأى وتحضر لى المية اتوضا .. أنا ما بقتش
حاجة قليلة ، أنا الشيخ عويس على سن ورمح .. واعمل حسابك تقف ورايا فى
الدرس ، وتعلمنى كلمة كلمة ، واوعى تغلط لحسن أوريك شغلك .. فاهم
والا لا .

— لا .. الواد لازم جرى لعقله حاجة أكيد .. لازم عايز له قلمين على

سداغه يفوقوه .

وسمع عويس صوت القبقاب الخشبي يقرع البلاط مقتربا منه ، فظل يصيخ السمع حتى وجد شيخ الشيخ يستقر أمامه فجأة بالعباءة على كتفيه والعمامة فوق رأسه وصاح به :

— إيه يا واد الكلام الى انت بتقوله ده .

— وكان لابس العمة والعباية .. طب اقلع بأه بالتى هى أحسن ، اقلع احسن لك يا نصاب يا حرامى ، الحاجات دى كلها بقت بتاعتى ، اقلع بسرعة ، بلاش نصب عفارىت .

— أقلع إيه يا واد ؟

— اقلع العباية والعمة بتاعة الراجل .

— أنهى راجل ؟

— الشيخ مبارك .

— طب ما أنا الشيخ مبارك .. يا أعمى الغين والقلب .

— وكان يقول إنك الشيخ مبارك ؟

واندفع عويس يقهقه ساخرا ، وعندما هداضحكه ، قال فى هدوء ناصحا :

— بقى اسمع يا أحنينا . أنا ماحبش المناكفة ولا ينطليش على شغل العفارىت

ده .. الشيخ مبارك راح وانتهى أمره ، هوا الى قايل لى كده بلسانه ، امبارح قال

لى ان الشيخ قطعة زاره فى المنام وقال له انه عايز ياخده ، وانه كان ناوى يطلع معاه

لولا انه حب يوصينى على الشغل ويدينى شوية نصايح عشان اشتغل بداله ،

ولما قلت له ان أنا معرفش افك الخط قال لى ماتخافش ، أنا حابعتلك عفريتى ،

يعمل لك الى انت عايزه .. يعنى انت دلوقت ماتزيدش عن خدام ، خدام فك

الخط .. دى كل شغلتك ، فاهم والا لأ ؟ تقول لى وله يا عويس وله يا هباب ،

وتفهمنى انك انت الشيخ مبارك .. ده كلام مايدخلش عقلى ، كلام نصب

وتهويش .. فوت يالله اقلع العباية والعمة وحضر الشاى .. واتلم بالتى هى

أحسن .. أنا عايز عفريت ملحلح ونشط ، ماتعملش زى التنبل ، الى اسمه عويس .. فوت ربنا يهديك .

— اسمع يا عويس يا خويه .. ربنا يهديك انت ، الكلام الى قولتهولك دا كان حلم ، وأنا لسة ما متش ، لسة عايش لغاية دلوقت ، الشيخ قطة خلف ميغاده ، فاصبر عليه شوية لغاية ما موت ، أنا دلوقت الشيخ مبارك ، صدقنى .
— أيوه يا خوية خش فى عنيه خش .. أصلى حمار .. ينطلى عليه الكلام ده ..
يروح الشيخ مبارك ، الله لا يرجعه تلاقى عفريت الشيخ مبارك .. فوت انجر اعمل الشاى ، واقلع الى أنت لابسه ده .

وهنا نقد صبر الشيخ مبارك ، ورفع كفه ، وانهاى بها على صدغ عويس بكل ما فيه من قوة صائحا :

— قوم جاك خابط فى نافوخك . تور ابن تور ، قوم .
وقام عويس وتفرس فى وجه الشيخ مبارك لحظة وهو يعرض على نواجزه ثم قال فى غيظ مكتوم :

— برضك دا الى انا عامل حسابه ، سكتنا له ، دخل بحماره ، بقى اسمع اما اقول لك .. هى زرع والا ضرب دى حاجيب القليعة .. ياخى بناقص زرع وضرب .. مش ضرورى الأولاد يعرفوا الكلام الفارغ ده ، أدحنا طول عمرنا كويسين من غير زرع وضرب .. نقفل الكتاب ده ونفضها سيره .
وفكر عويس برهة . إن خير ما يفعله هو أن يمسك بالعفريت ويلحقه بصاحبه إلى حيث الشيخ قطة ، وبذا يخلو له الجو .

وفجأة رفع عويس هراوته ، وانهاى بها على رأسه ، فخر على الأرض صريعا . واستيقظ أهل القرية ، ليجدوا الشيخ مبارك مضرجا بدمائه ، قتيلا فى رجة الدار .. أما عويس فقد استقر به المقام فى مستشفى المجاذيب ، متمتعا بالخلافة ، مصرا على أنه خليفة الشيخ قطة .

سى جمعه

سى جمعة هذا .. إنسان لا أظن من السهل وصفه ..
ولا من السهل معرفة مهنته .. ومحل إقامته .. أو فهم خلقه
وشخصيته .. وإن كان أبرز ما فيه .. أو ما يمكن معرفته
عنه .. هو أنه لاعب كرة قديم .. كان له سابق مجد وتالد
عز .

لم يكن هناك شك في أن هناك جديدا قد طرأ على « سى جمعة » .
وقبل أن نحاول شرح هذا الجديد الطارئ على « سى جمعة » لا بد لنا أن
نشرح « سى جمعة » على قديمه .. أو على ما تعود أن يكون عليه قبل أن يطرأ عليه
الجديد الطارئ .

سى جمعة .. أو جمعة أفندى .. أو جمع .. كما تعود أن يدلل من الأقربين إليه
أو محمد محمد محمد عبد الرحيم جمعه .. أو كما تعود هو أن يكتبه في أوراق
الامتحانات .. أو كما كان يناديه الشيخ زينهم مدرس الخط العربي الذي كان يأبى
إلا أن يناديه باسمه الكامل حتى ولو ناداه مائة مرة خلال خمس دقائق .

سى جمعة هذا .. إنسان لا أظن من السهل وصفه .. ولا من السهل معرفة
مهنته .. ومحل إقامته .. أو فهم خلقه وشخصيته .. وإن كان أبرز ما فيه ..
أو ما يمكن معرفته عنه .. هو أنه لاعب كرة قديم كان له سابق مجد وتالد عز .
ولسنا نعني بذلك أنه قد أضحى « عزيز قوم ذل » .. فهو لا يذل أبدا مهما
أصابه ، ولا ينجع مهما أختنى عليه الدهر ورق به الحال .. بل هو يرى نفسه دائما
« كابتن » في كل وقت وفي كل مكان .. فما استطاع الفقر والبهدلة ، والوهن

والعجز .. أن تنزع من رأسه أنه .. « الكابتن جمعة » السترفوروارد الذي لا يشق له غبار .. ولا يقع له بالشنان .

واستمر جمعة طالبا في المدرسة يقضى يومه على المقهى الكائن على ناصية الشارع في لعب الورق « والطاولة » مع بقية الشلة المكونة من لاعبي الكرة الفاسدين والطلبة « المزوغين » .

واستمر جمعه في المزوغ ومرت به أيام ذهبية .. اشتهر فيها وتناقلت اسمه الألسن ، وأضحى يحس في نفسه .. كلما سمع هتافا باسمه .. أو حمل على الأعناق كأنه زعيم قومي .

ولم يطل بنجمه المزوغ .. فسرعان ما أفل كغيره من لاعبي الكرة السريعي الأقدام .. وبدأت نهايته بانحداره إلى السهر في الكابرييات وباستبدالها بمقهى الورد البيضاء .. كازينو استانبول .. وبدخوله في دور « رفق » مع سنية بعزق .

وهكذا حلت نهايته كلاعب كرة .. وأغلقت في وجهه النوادي .. ليفتح في وجهه باب « سنية بعزق » على مصراعيه ويدب في جسده الوهن والتحول والاسترخاء .. ومع ذلك فما نسي قط أنه الكابتن جمعة .. بل استمر حنينه إلى اللعبة يدفعه إلى مشاهدة كل مباراة من المباريات الكبرى .. وإلى « حشر » نفسه « والهنكرة » بين اللاعبين .

وانقطعت عن جمعة النقود التي كانت تدرها عليه قدرته في لعب الكرة من النوادي ومن المباريات .. وأضحت موارده محصورة فيما كانت تعطيه إياه صاحبه الراقصة .

واستمر جمعة يرتع في حياة بوهيمية صاخبة منهكة حتى كان ذات صباح لاحظت سنية أنه قد استيقظ مبكرا على غير عادته .. وأنه قد أقبل على حلاقة ذقنه بعناية ، وسألها أن ترسل ملابسه إلى الكواء .

ولم يكن هناك شك في أن جديدا قد طرأ عليه ، وأنه مقبل على حدث جلل .
(أغنيات)

فما كوى بذلته منذ أن وضعها على جسده .. وما حاول من قبل أن يرتدى كرافته وأن يصلح هندامه .

واستفسرت أم سنية عن الطارئ الجديد فأنبأها في ثقة أنه سيحصل على وظيفة محترمة .

وغادر جمعة الدار ، وسار — لأول مرة في حياته — في تؤده واتزان ، وقد كسا نفسه هيئة كبار الموظفين .

وانفرجت شفتاه عن ابتسامة واسعة ، وهمس لنفسه : « والله عال يا ابراهيم .. يا فلاح يا ابن الفلاح .. بقيت من كبار القوم .. بس إياك ماتطلعش ندل وتنسى الجميل » .

وابراهيم هذا .. هو ابراهيم الفيومي .. أو ابراهيم الفلاح ، الذي كان زميلا لجمعة في المدرسة ، والذي كان موضع سخرية الطلبة وضحكهم لفرط ولعه بالكرة ، وخيبته فيها .

كان ابراهيم الفلاح يتمنى أن يكون لاعب كرة ، وكان ينظر إلى جمعة نظرفته إلى أصحاب المعجزات ، وكان يحس له نفس الاحترام والتقدير الذي يحسه لسيدنا الحسين والسيد البدوي ، وكان أقصى رغباته هو أن يصاحبه في المباريات ويحمل له حقيته .

وفي ذات يوم تغيب أحد أفراد الفريق الثاني في إحدى المباريات فتعطف جمعة عليه وأنزله بدل الغائب ، وهكذا حقق له أمنية طالما تلهف عليها ، ووهبه فرصة في حياته يرتدى فيها فانلة الكرة المخططة والحذاء ذا الرباط الطويل الأبيض « والاستدز » .

وباعدت الظروف بين جمعة وصاحبه الفلاح ، واستقر ابراهيم مع أبيه في البلدة يساعده في إدارة مصنع النسيج الذي احتوى بضعة أنوال يدوية . ومرت الأيام وبدأ جمعة يسمع عن اتساع المصنع وتضخمه خلال الحرب حتى أصبح جمعة يقرأ بين آونة وأخرى الإعلانات الضخمة في الصحف عن مصانع الفيومي

للغزل والنسيج وعن مدى أثرها في النهضة الصناعية .
وفي ذات يوم استلقت نظره صورة صاحبه الذى كان ما زال يصبر على
تسميته « الواد الفلاح » وقد وضعت في مكان بارز في إحدى الصحف
الصباحية الشهيرة وقد كتب تحتها « صاحب العزة إبراهيم بك الفيومى » وأنه
يشكر كل من تفضل فنهأه بالإنعام السامى .
وفي ناحية أخرى من الصحيفة قرأ خبراً آخر أن الوفود ما زالت تترى على دار
الوجيه إبراهيم بك الفيومى لتهنئته بالعطف السامى الكريم .
وفي ناحية ثالثة قرأ خبراً ثالثاً مؤداه إن إبراهيم بك الفيومى صاحب مصنع
الغزل والنسيج قد تبرع بمبلغ سبعة آلاف جنيه لمشاريع البر .
وأصاب جمعة دهش شديد وترك الصحيفة جانبا .. وشرده به الذهن بعيدا في
الأيام الخوالى .. أيام كان صاحب العزة يتلهف على أن يحمل حقيته التى وضع
فيها ملابس الكرة مرة واحدة وتذكر فرحته الشديدة عندما أدخل ضمن الفريق
في إحدى المباريات ، وتذكر عدوه في الملعب وقد تدلى شرا به وبدت ساقاه
كالجريد وانطلق بين اللاعبين كالثور الهائج دون أن تمس قدمه الكرة مرة
واحدة .. أضحى صاحب عزة !! ووجيها !! ولم يستطع أن يكتم ضحكة
انطلقت من فمه ، وأخذ يردد لنفسه « الفيومى بك ، الوجيه إبراهيم بك ،
صاحب العزة » وانطلق يقهقه بشدة متذكرا منظر « الواد الفلاح ابن الفلاح »
الذى بينه وبين الوجاهة ما صنع الحداد .
وفجأة مر بذهنه خاطر أفعمه سرورا .
هذه والله فرصة هائلة .

لم لا يذهب إلى الواد إبراهيم بك ، فيأمره بأن يعطيه عملا في مصنعه
الكبرى ! إنه لا شك ما زال يحس له بعض الرهبة القديمة ، وما زال يعتبره الكابتن
جمعة ، أو جُمع « أبو رجل ذهب » وليس هناك أسهل عليه من أن يهبه منصبا
محترما .. مدير فرع .. أو مدير قسم .. أو باشمهندس أو أى شئ من هذا

القبيل ؟

ووصل أخيرا إلى إدارة المصنع ، دار فخمة البناء مليئة بالحركة ، ودلف بين
الحجرات سائلا عن إبراهيم بك فقاده أحد السعاة إلى مكتب السكرتير .
وسأله السكرتير في ازدراء ظاهر :
— نقول له مين ؟ .

— جمعة .. الكابتن جمعة .

وقلب السكرتير شفتيه ثم قام متباطئا ، فغاب برهة في غرفة مجاورة ثم عاد
يقول :

— ادخل .

وفتح الباب ودلف إلى الحجرة التي كتب عليها « المدير » ووجد « المدير »
قد جلس على مكتب فخم ، وقد أحاط نفسه بأروع مظاهر الأبهة والوجاهة .
وارتبك جمعة ، فلشد ما وجد صاحبه قد تغير ، وبدت عليه سيما كبار
الرجال وأضحى كل ما به وما حوله وما فوقه وما تحته وجها فعلا ، اللهم
إلا ذلك الوشم الأخضر ، الذي بدا على ظهر يده .

وتردد جمعة برهة ، ولم يدر كيف يقبل على صاحبه ، ولا كيف سيتلقاه
صاحبه ، ولم يجد خيرا من أن « يسوق الهبالة على الشيطنة » ويهجم عليه ويأخذه
بالحضن ، دون أن يعطيه فرصة الكبر والترفع .

وانتهى الصاحبان من العناق والتقبيل ، وجلس جمعة وقد وضع ساقا على
ساق واندفع يذكر صاحبه بما مضى وبأيام زمان ، ولم يبد على إبراهيم بك أن تلك
الذكريات تسره كثيرا ، وحاول جهده أن يختصر الحديث وأن يقود جمعة إلى
الإدلاء بغرضه الرئيسي من الزيارة .

واسترسل جمعة في سرد الذكريات قائلا وهو يقهقه بلا كلفة :

— والله زمان يا زله يا إبراهيم !

وانبعثت من عيني إبراهيم بك نظرة وجلة خائفة متردد بين الباب وجمعة .

كان الرجل حائرا فهو لا يستطيع أن ينهر هذا الحيوان المندفع في ثرثرته المشعومة الفاضحة لأنه يخشى عواقب هذا النهر ، ويخشى إن أغضب هذا الأحق أن يعمن في غيه وتنقلب ثرثرته البلهاء غير المقصودة إلى ثورة جامحة يثير بها ضجة كبرى ، بل ربما اعتدى عليه بالضرب قبل أن يتمكن السعاة من إنقاذه ، فهو لم يكن يتورع وهو تلميذ عن أى شيء ، حتى عن ضرب الناظر لو استدعى الأمر ، فما بالك الآن وبعد أن جاوز التلمذة وأصبح كما يبدو متشردا لا يأبه لعاقبة ولا يخشى نتيجة !

وابراهيم بك رغم بكويته ورغم العز والسؤدد والأبهة والفخامة التى يرفل في حللها الآن قد وجد نفسه يتضائل فجأة أمام هذا المتشرد الوقح فقد نجح في جره معه إلى الماضي البغيض فإذا به يشعر أنه قد بات فعلا الواد ابراهيم الفلاح ، وأن الذى أمامه هو الكابتن جُمع « أبو رجل ذهب » ذو الحول والشهرة والسلطان .

وهكذا كان من المتعذر .. بل من المستحيل .. وقفه عند حده .. وإسكاته عن ترديد ذكرياته المزعجة المشينة ، وكذلك كان من المستحيل أيضا السكوت على هذا الحال وتركه يستمر في ثرثرته الخطيرة اللانهائية .. لا لأن ابراهيم يتأذى من سماعها .. فقد كان يستطيع سماعها بسهولة .. بل ربما لو كانت على حدة لوجد في ترديدها بعض المتعة .. ولكن لأنه كان يخشى أن يدخل السكرتير أو أحد الموظفين فجأة فيصل إلى أسماعه بعض ذلك الهذيان الذى يهرف به صاحبه . واستمر جمعة يقول :

— فاكرا يا ابراهيم .. أيام ثانوى .

وهم ابراهيم بأن يقاطعه قائلا :

— فاكرا يا سى جمعة .. فاكرا كل حاجة .. بس مافيش لزوم للحاجات

دى دلوقت .. الله لا يسيئك . ؟

ولكن جمعة لم يترك له الفرصة لمقاطعته فقد استرسل قائلا :

— فاكرا لما هفتك نفسك على لعب الكورة فرحت مسهينا وقالع البنطلون ونازل الملعب تجرى ورا الكورة باللباس الطويل الدمور ابو دكة بشراشيب مدلدة وقعدت تبرطع زى الحمار الحساوى .. والتلامذه يسقفوا لك ويقولوا : « الكورة فين ؟ .. جوه لباسه » .

واندفع جمعة فى زوبعة من القهقهة وهو يردد قوله :

— فاكرا ؟

وهز إبراهيم بك رأسه فى يأس واستسلام وقال :

— فاكرا .

— وفاكرا لما ...

ولكن إبراهيم بك نهض من مقعده جزعا وقال فى توسل :

— ثانية واحدة يا سى جمعة .. جى لك حالا .

ثم أسرع إلى الباب وأطل منه مناديا السكرتير قائلا :

— يا على افندى ، وحياة أبوك مات دخلش حد عندى دلوقت لحسن مشغول

شوية مع الأستاذ جمعة .

ثم أغلق الباب وعاد إلى مقعده وقد هداً باله بعض الشيء .

وفرك جمعه يديه ودفع طربوشه إلى الخلف كأنه يستعد لخوض معركة وعاد

فى ترديد سلسلة الذكريات الممتعة قائلا ؛

— فاكرا يا ابراهيم لما ابوك جاب لك البتاو وقعد يستناك على الرصيف أمام

المدرسة يوم الخميس .. وكان عندنا ماتش كورة ، وبعدين شيلناه اللبس مع عم

عمارة فراش الكورة .. وبعد الماتش لبسناه الفانلة المخططة و ..

وأجاب إبراهيم مقاطعا وهو يتصنع الابتسام :

— فاكرا .. فاكرا .. كانت أيام لذيذة .

وقال لنفسه :

« وبعدين فى ابن الكلب ده ... هوا قصده إيه بالضبط بالفضايح دى ؟! مش

- يتكلم ويريجنى بقى ؟ » .
- حقيقة كانت أيام لذيذة . اللي فات مايتعوضش أبدا .
- وانتهر إبراهيم الفرصة وأسرع بتحويل دفة الحديث متسائلا :
- وازاى الحال دلوقت يا سى جمعة .. فين أراضيك ؟
- وبمتهى البساطة أجاب جمعة :
- فى وش البركة .
- فى ؟ ..!!
- فى وش البركة .
- قصدى بتشتغل فى ؟
- برضك فى وش البركة .
- وأحس إبراهيم بالارتباك والخجل ولم يكن هناك وجه لسؤاله عما يعمل هناك .
- إذ لم يكن العمل فى مثل هذا المكان ليخرج عن عمليتين أشرفهما مشين .
- ولكن جمعة ألقاها بلا خجل وبدون أن يوجه إليه إبراهيم سؤالا :
- بلطجى .
- ولم يعرف إبراهيم بماذا يعلق على قوله ، فلاذ بالصمت . ولم يجد جمعة بداً من أن يعلق هو .. فقال :
- شغلانة مش بطالة .. مريحة .. أكل ونوم وراحة وخناقة قول كل شهر مره .
- وساد الصمت وكان على إبراهيم أن يقول شيئا فتساءل لجرّد الحديث :
- ومبسوط على كده ؟ .
- رضا .. ولو ان اليومين دول الحالة بطالة ، وابتديت ازهق من القعدة ،
- وقلت الواحد لازم يشوف له شغلانة .
- هكذا ؟ ..!! إذن لقد وضع الأمر أخيراً .. لقد أتى جمعة باحثاً عن عمل ..
- أو هو بالعربى .. يريد الانتقال من « وش البركة » إلى « مصانع الفيومى » .

وصمت إبراهيم وتظاهر بفحص بعض أوراق أمامه ، وعاود جمعة حديثه قائلا :

— قعدت افكر .. اشتغل فين .. اروح لمن .. وبعدين بامسك الجرنان لقيت صورتك فيه .. أقول لك الحق اتخضيت افكرتها صفحة الوفيات لكن بقرا كده لقيتك بقيت بيه وبقيت أشيتك رضا .. قلت فرجت .. مافيش حد حايلمنى غيرك .. جدع طيب وطول عمرك على أد إيدينا .. ومش حايصعب عليك تلاقيننا فى الشركة شغلة كده والا كده .
شغلة كده والا كده ١١؟ .

وماذا يستطيع مثل هذا الحيوان الآدمى أن يفعل ١٩ وكيف يأمن لوجوده وهو حريص على ترديد مثل هذه الذكريات بمنتهى البساطة .. وماذا يفعل إذا فاجأه أمام العمال بقول « فاكرو لما ابوك جاب لك البتاو وقعد على الرصيف ؟ .. إلخ » .

ولكن كيف يتخلص منه . إنها مشكلة .. إنها مصيبة — كما يقولون — وطبلت على دماغه .. على أية حال .. ليس هناك من حل الآن .. سوى مداراته ، ووعد بوظيفة والتخلص منه مؤقتا لحين التفكير فى حل له . فقد يستطيع أن يوجد له عملا فى فرع فى إحدى البلدان وبذلك يضمن بعده عنه ، ولكن أيرضى الكابتن جُمع بوظيفة حقيرة خارج القاهرة ؟ .. إنه يبدو كأنما يريد أن يجلس على مقعده هو أو أن يصبح على الأقل وكيل الشركة .
ما علينا .. نبعده الآن بأى وعد نصرفه به .

وقبل أن يفتح فاه ، برق فى ذهنه خاطر مفاجئ ، وجد فيه حل لمشكلة مستعصية ، حل يضرب به عصفورين بحجر .

تذكر أخته زكية العانس .. التى تنغص عليه حياته بطول شكواها من قلة الجواز وميلة البخت .. والتى لا تكف عن العراك مع زوجته حتى كادت تتسبب لهما فى الطلاق بضع مرات دون أن يعرف كيف يتخلص منها .. بعد أن

عجز تماما عن إيجاد عريس لها .

هذه فرصة سانحة لصفقة رائعة ، فجمعة لو هداه الله سيكون خير عريس لأخته زكية ، وليس أنسب من هذه اللحظة لانتهاز الفرصة والمقايضة بالوظيفة على زكية .

ووضع إبراهيم ابتسامة عريضة على شفثيه وهز رأسه وقال في لهجة شديدة النعومة :

— يا سلام يا كابتن جمعة ، إحنا ديكي الساعة لما تقبل تشتغل عندنا .. دا شرف كبير للشركة .. دى خطوة عزيزة يا بورجل دهب .. أنا زمان نفسى أشوفك .. عشان نعيد أيام زمان .

وانتفخت أوداج جمعة وازداد اتكاء على كرسيه ، وأجاب بقوله :
— أنا برضك عارف كده .. عارف إن أملى مش حايبخيب فيك أبدا انت طول عمرك ولد طيب وابن حلال .
ولد ؟ يا بن الكلب !!؟ البكوية اللى دفعت فيها سبعة آلاف جنيه ما زالت ساخنة وتقول لى ولد ؟.

ولكن صبرا .. لا بد من تحملك فى سبيل التخلص من زكية وبلاويها .
واستمر إبراهيم فى قوله :
— الشركة تحت أمرك ، أنا حاشوفلك وظيفة عال تناسبك كويس ..
بس ..

— بس إيه ؟.

— بس اياك ربنا يهديك ويتوب عليك من السيرة اللى انت فيها .. ويلمك على بنت الحلال .. وتستكن فى بيت نضيف ظريف .

— يا ريت يا ابراهيم يا خوية .. فين بنت الحلال اللى ترضى لى .

— ليه هو انت وحش .. دانت لقطة .

— على العموم لما نترستا فى الوظيفة يبقى يحلها المولى .

— ٢٥٠ —

— المولى حاللها والأشياء معدن .. والوظيفة موجودة وبنت الحلال موجودة .

— بنت الحلال !!؟ أنت بتكلم جد ؟.

— وابو الجد .

— إزاي بقى ؟.

— زى الناس .. أنت مانتاش غريب أنت زى أخويه وأنا طول عمرى أودك وأحبك ، واهى فرصة تتناسب فيها ونخلّي زيتنا فى دقيقتنا .

— ولا أنا فاهم حاجة .

— ودى حاجة عايزة فهم .. أنا عندى أخت هدية .. إياك ربنا يجعلها من

نصيبك .

— أختك أنت !!؟

وظل جمعة محملاً بعينيه فاغرافاه .. و« أخت إبراهيم » تطن فى أذنيه وتدور فى رأسه .

عجبية !!؟ .. يتزوج أخت الواد إبراهيم الفلاح ؟ .. أستغفر الله .. بل أخت إبراهيم بك الفيومى !!؟ .

من يصدق أن الزيارة كان يمكن أن تنتهى إلى مثل هذا !

لقد أتى يطلب وظيفة ، فخرج بوظيفة وعروس ، صدق من قال « الفقى لما يسعد تجى له خاتمتين فى ليلة » .

وكان لابد من مرور فترة من الوقت حتى يهضم المفاجأة وتخف الصدمة وتهدأ النفوس وتستقر الفكرة فى الرعوس .

ولم تكد تمر الفترة المطلوبة ، ولم يكد يقلب جمعة الفكرة فى رأسه ، ويجدها فرصة العمر حتى قفز من مكانه وهجم على إبراهيم يحضنه ويقبله ويصيح به :

— يا سلام يا إبراهيم ، أنا طول عمرى قلبى يحبك ، وياما كنت أقول لهم

الواد إبراهيم الفلاح ده ، حقيقى غبى وحمار ، لكن ابن حلال مصفى .

وأخيرا غادر جمعة المكتب بعد قراءة الفاتحة ، وبعد أن اتفق معه على زيارة منزلية يتم فيها اللقاء والاتفاق على بقية إجراءات الزواج .
 وخرج جمعة يسير مترنحا نشوان وكأنه رأى ليلة القدر. ولكنه تذكر فجأة ما أنزله من علياء أوهامه وأحلامه ، وما ملأه غما وهما .
 تذكر سنية بعزق !

ماذا يقول لها وكيف يتخلص منها ؟. كيف يخبرها أنه سيتزوج ؟
 ولاح له الحل السعيد فانيستطت أساريه مرة أخرى ، المسألة بسيطة ، بل غاية البساطة ، ليس عليه إلا أن ينبشها أنه وقع في صيدة غنية بجبوحة ، يستطيع أن يستنزف منها ما شاء من النقود ، فتنبئ لكليهما حياة سعيدة ، وأنهما لن يصيبهما ضنك بعد الآن ، بعد أن عثر على ذلك البنك المتدفق نقودا .

وعاد جمعة إلى صاحبه وروى لها القصة كما حورها في ذهنه وأنبأها أن علاقتهما ستظل كما هي لن يصيبها وهن وأنها ستبقى هي الكل في الكل ، أما الأخرى فلن تكون أكثر من مورد للمال .

وتقبلت سنية الأمر مستسلمة ، مصدقة ، فما كانت تملك أمام جمعة سوى التصديق والاستسلام ، بعد أن عاهدها أنها ستظل خليلته مهما حدث .
 وبعد يومين ذهب جمعة إلى بيت إبراهيم مرتديا حلة جديدة اشتراها بعد أن باع بعض حلى سنية .

ووقف أمام البيت الفخم يقرع الجرس، وبعد برهة أطل الخادم النوى ، فسأله في تأدب :

— إبراهيم بيه موجود ؟

— لأ .. خرج .

— راح فين ؟

— المستشفى .

— المستشفى ؟ ليه كفى الله الشر ؟

— عشان الست أخته حاتعمل عملية .

عملية ؟؟ وامضيبتاه .. حقا قليل البخت يلاقى العضم فى الكرشة .
أية عملية هذه التى قد استحكمت الآن .. ألم يكن من الممكن تأجيلها حتى
يكتب الكتاب ويصبح وريثها الشرعى ؟
والمصيبة العظمى .. أن « تحبك » المسألة .. وتموت فيها .
أهنأك أسوأ من هذا حظا ؟..

تظل المرأة .. على قيد الحياة .. لا يقربها الموت .. طيلة هذا العمر المديد ..
فلاتكاد تستحل له .. ولا يكاد يهم بالتهامها .. حتى تعمل عملية وتموت .
ولكن ما الداعى لهذه الوسوس .. إنه ستشفى بإذن الله .. إن الحظ قد واتاه
ولن يغادره بعد ذلك .

وأخذ جمعة أقرب ترام ، وبعد نصف ساعة كان يجلس فى المستشفى ضمن
الأهل والأقارب والأصدقاء .. وقد جلس منتفخا على أحد المقاعد كأنه الديك
الرومى .. ولم لا ؟! أليس هو أقرب الناس إليها ؟. أليس هو زوجها فى خلال
أيام ؟

وطالت العملية .. وجمعة يدعو من قلبه أن يكلاها الله بالعناية .. على الأقل
حتى يتم الزواج ... وبعد ذلك ليأخذها وقتما شاء وكيف شاء .
وأخيرا انتهت العملية .

ترى ما النتيجة ؟! خير يا رب خير .
ولكنه لا يرى على الوجوه المتجهمة أى خير .. إنه يسمع هممة ودمدمة
وتساؤل .. إن سيماهم لا تنذر إلا بالسوء .
ويحه !! أترى المرأة قد فعلتها وماتت .. من سوء بخته .. ولكنه لا يسمع
صواتا ولا يبصر دموعا .. إذا كانت قد ماتت أفلا أقل من بعض النهنه أم ترى
البكاء محرما فى المستشفيات ؟

وأخيرا لم يطق الانتظار .. وكاد القلق والشك يقتلانه فاندفع إلى أخيها

— ٢٥٣ —

إبراهيم الفيومي العباس الوجه المقطب الجبين وانحنى به ناحية قصبة وسأله في لهفة :

— إيه يا إبراهيم ؟! فيه إيه .. إزاي الحالة ؟
وأطرق إبراهيم برأسه ثم اقترب بفمه من أذن جمعة وهمس بعض كلمات .
ولم يكده جمعة يسمع الهمس حتى انطلقت منه صيحة لم يستطع كتمانها ووقف
برهة واجما ذاهلا كأنما قد نزل عليه سهم الله .
وأخيرا آفاق لنفسه وغادر المستشفى وهو يهز رأسه حزنا وأسفا وقد بدت
عليه أقسى آيات الخيبة والفشل .
ووصل إلى سنية بعزق فأذهلها مظهره اليائس البائس ، وأقبلت عليه تسأله في دهش :

— إيه الحكاية ؟ مالك .. كفى الله الشر .. قوللى حصل إيه .. طردوك ؟.

— لا .

— آمال إيه ؟.

— رحت لقيت العروسة في المستشفى بتعمل عملية .

وضربت المرأة بيدها على صدرها :

— وبعدين .. يا ندامة .. جرى لها إيه ؟

وأجاب جمعة وهو يهز رأسه أسفا :

— ولا قبلين .. قليل البخت يلاقى العضم في الكرشة . خلاص .. طارت

— طارت ؟

— أيوه طارت .. برمت .

— يعنى إيه طارت وبرمت ؟

— يعنى طارت من إيدى وبرمت من الجواز .

— قصدك ماتت ؟

— ما متتش ولا حاجة .

— ٢٥٤ —

- أُمال جرى لها إليه ؟ فهمنى .. غلبتنى .
وصمت جمعة برهة ثم أطلق زفرة حارة ملؤها اليأس وقال فى أسى :
— قلبت راجل .
— قلبت إليه ؟
— راجل .
— مش ممكن ...
— الى حصل .. قعدت اربعين سنة نتاية .. ماحللهاش تنقلب دكر
إلا لما خطبتها .. مش بقول لك قليل البخت يلاقى العضم فى الكرشة .. أربعين
سنة وهما يقولولها الست زكية .. يوم ما نويت اخطبها دخلت المستشفى ..
وطلعت زكى افندى .. بس اعمل إليه فى الفقر الدكر الى مش عاوز يحل عنا ؟
— ولا يكون عندك فكرة .. مره .. راجل مش حاينفد منا أبدا .. إذا كان
حايرجع مره أهو من قسمتك .. وإذا استمر راجل مانيش عتقاه .
-

الاستاذ شملول

لم يكن هناك ما يدعو شملول أفندى إلى التفكير في الرحيل ، أو المغامرة ، وهو القعود الكسول البطيء الحركة .. الذى كف عن النزهة .. منذ مشوار « جنية النزهة » ، والذى كانت أقصى متعته الجلوس على قهوة الانشراح القائمة على ناصية الشارع حيث يلعب « عشرة طاولة » ويشد أنفاسا من الشيثة .

وأخيرا قرر شملول أفندى الرحيل .
لقد كانت المسألة بالنسبة إليه مغامرة كبرى تحتاج منه إلى كثير تروّ وتفكير .
ومع ذلك فقد قرر ، وانتهى الأمر .
حرام عليه أن يضيق عمره سدى .. ما قيمة الحياة إذا جرت على هذا النمط البليد المتكرر المتشابه ؟

من يصدق أنه قد بلغ الأربعين دون أن يغادر القاهرة مرة واحدة ؟
أربعون عاما قضاها في ذلك النطاق الضيق بين الناصرية والسيدة وشارع خيرت والدواوين .

في طفولته .. كان مجال حركته وغدواته وروحاته لا يتعدى شارع الناصرية .. ففيه كان البيت وفيه كان الكتاب ، وفيما بينهما كانت تقع كل أمانيه وأقصى مطالبه من المقلة .. إلى بائع الكشرى .. إلى بائع البخت والزمامير .
إنه لا يذكر أنه قد تعدى شارع الناصرية إلا مرتين .. مرة كمستكشف .. حيث دفعه دافع الفضول وحب المغامرة والشقاوة إلى أن يتجاوز

الكتاب .. ويندفع إلى أقصى الشارع حتى بلغ شارع الكومى وتطلع ببصره إلى مجاهل ميدان السيدة ورأى بعينى رأسه المئذنة والترام وأبصر الناس .. يغدون فى الميدان ويروحون غير هيايين ولا وجلين ، وأتم المغامرة بشرائه قطعة من « حلاوة زمان » الملفوفة على العصا الطويلة ، وأخيرا عاد إلى بيته سالما آمنا . تلك كانت المرة الأولى .. أما المرة الثانية فقد كانت فى العيد .. حيث خرج هو وأخته نفيسة وخاله عبد الصبور وقد لفوا العيش والسّمك البكلاه فى صرة كبيرة ، قاصدين إلى « جنيّة النزهة » .

ومن يومها .. لم يذهب إلى نزهة قط .. لقد كانت جنيّة النزهة تقع فى حى جاردن سيتى ، وقد تبدو المسافة بينها وبين الناصرية الآن بعد أن كبر .. مسافة معقولة لا يصعب سيرها على الأقدام .. أما يوم ذاك وهو يعتبر ميدان السيدة فى أقصى الأرض ، فقد كانت جنيّة النزهة أبعد من الجوزاء .. لا سيما وقد كان الحذاء جديدا عقر قدمه ، وأجبره على العودة حافيا .

وفى الصبا والشباب والكهولة .. لم يضطّره شيء إلى الخروج عن نطاقه الضيق المحدود بين الناصرية والسيدة ، إذ لم تكن الناصرية الابتدائية أبعد من الكتاب ، وكانت مدرسة رقى المعارف وغيرها من المدارس الأهلية الثانوية التى تنقل بينها لا تتعدى ميدان السيدة ، وحتى بعد أن فشل فى المدارس وتاب عليه ربنا من تعب الدراسة وقرف الامتحانات ورزقه باهن الحلال الذى سعى إلى توظيفه .. كان مقر عمله لا يتجاوز شارع الدواوين ، واستمر راقدا بين جدران أُرْشيف وزارة المالية عشرين عاما .. كأنه خطاب حكومى عاجل !!

ولم يكن هناك ما يدعو شملول أفندى إلى التفكير فى الرحيل أو المغامرة ، وهو القعود الكسول البطيء الحركة .. الذى كف عن النزهة ، منذ مشوار « جنيّة النزهة » والذى كانت أقصى متعته الجلوس على قهوة الانشراح القائمة على ناصية الشارع حيث يلعب عشرة طاولة ويشد أنفاسا من الشيشة . ولقد قضى الرجل حياته عزبا .. لمجرد أنه يكره التغيير من حال إلى حال ،

واستمر يعيش مع أمه وأبيه بنفس الوضع والكيفية التي كان يعيش فيها وهو طفل في الكتاب .

وعلى ذلك فيمكننا أن نرى مبلغ وقع المفاجأة في نفس والديه عندما أنبأهما ذات يوم أنه سيسافر .

لقد ضربت أمه بيدها على صدرها وصاحت مذعورة :

— مسافر .. بره وبعيد .. تف من بقك سبع ثقات . إيه يا خويا الكلام اللى زى السم اللى صابح تقوله ع الصبح .

— يام مسافر اتفسح .

— تتفسح ؟! وهوانت ناقص فسحة ، مانت طول النهار قاعد على القهوة .

— راخ اشم الهوا .. أغير مناظر .

— يا خويا اتحط .. آل مسافر يشم الهوا .. وهى مصر ضاقت ، عندك

ام الشعور ، عندك سيدى ابو السعود . كل ده مش مقضيك ؟

— أنا معزوم عند واحد صاحبي في المكتب ، ساكن في قلوب ، في بيت

وسط المزارع والخضرة ، وبقاله آدى ست أشهر يلح على عشان أقضى يوم عنده .. نصطاد سمك ونركب حمير .

— أصلك شملول قوى .. وصيد السمك لزومه إيه ؟ وهو السمك اللى عند

عبد المعطى وحش .. اقعد وأنا ابعت اجيب لك حنتين جزل على حنتين بياض تاكل صوابلك وراهم .

— مش الغرض يا ام ..

— أمال إيه يادلعدى ؟

— الواحد عايز يغير شوية .. عايز يجرى بين الغيطان في الشمس والهوا ،

ويقعد على الترعة يشم النسيم ، ويتمتع يوم في العمر بحياة الريف .

— يا بنى اعقل ، دانت عمرك ما عتبت بره الشارع .

— عشان كده عايز اسافر .. حافظل طول عمرى كده محبوس في

(أغنيات)

الناصرية !! يا شيخه حرام عليك دانا عمرى ماركبت قطر سكة حديد .
وهكذا أصر شمول على السفر واعتبر المناقشة التي جرت بينه وبين أمه بمثابة استئذان في السفر ، وذهب إلى الديوان وب نفسه إحساس المقدم على أمر جليل ، ولم يكذب يلتقى بعلى أفندى القليوبى حتى ساق إليه النبأ الخطير وهو أنه قد اعتزم أن يلبي مطلبه وأنه سيسافر إليه اليوم بعد الظهر ، وببيت عنده ليلته ويقضى يوم الجمعة بأكمله ثم يعود في المساء .

وانتهى موعد العمل وذهب كل منهما إلى داره بعد أن اتفق مع القليوبى على أن ينتظره في المحطة حتى يقوده إلى البيت الذى يبعد بعض الشيء عن المحطة وسط المزارع .

وعاد شمول إلى داره وأخذ يكوم ملابسه في إحدى الحقائق القديمة ، وأمه تنظر إليه في دهشة وتتساءل :

— يا بنى ليه دا كله ؟

— مين يعرف .. أهو من باب الاحتياط .. يمكن الواحد يعوز غيار والاحاجة .

— هى مش ليلة اللى انت ناوى تقضيها ؟

— أيوه ليلة ، لكن الواحد لازم يعمل حسابه دايما ، ده سفر .. انت مستهونة بالسفر .. يمكن القطر يتعطل في السكة ، أو يمكن المواصلات تنقطع بين مصر ، وقليوب .. مش جايز .. مش برضه الواحد يعمل حسابه .

وهكذا غادر الدار وقد حمل الحقيقة ، وارتدى معطفا أبيض كان لأبيه في سالف الزمن ... واغرورقت عينا أمه وهى تودعه وتقبله ، وجلس أبوه على سجادة الصلاة ، يضيف إلى استغفاره من سابق ذنوبه دعوات لتحفظ ابنه وتعيده من سفره بالسلامة .

وسار شمول أفندى بهيكله القصير النحيل ، وأشدقه المطبقة ، وأجفانه الغائرة ، وقد نفخ صدره ورفع رأسه ، وأخذ يختال في مشيته بين أهل

الناصرية .. ولم ينس أن يمر على المقلة فيملاً جيوبه باللب لكي يستعين بقزقته على طول السفر ، وابتاع رطلين بسبوسة من « أبو على الحلواني » حتى لا يدخل على صاحبه ويده فارغة .. ثم تلكأ في طريقه برهة أمام المعلم كرشة الجزار ، وصاح به بصوت عال أن يؤجل إرسال المعمار والمخ إلى الجمعة القادمة لأنه مسافر ، وكرر كلمة مسافر بضع مرات حتى سمعتها زكية بائعة الفجل .. التي كان بينها وبينه استلطاف خفى متبادل .

وخرج صاحبنا من حى الناصرية منتفخ الأوداج كأنه ذاهب إلى ميدان قتال ، ووقف في شارع خيرت ينتظر ترام نمرة ١٢ الذاهب إلى المحطة ، ولم يطل به الانتظار حتى استقر على مقعد الترام بجوار السائق .. وزمر الكمسارى وانطلق الترام في سيره .

وشيئا فشيئا بدأت الشجاعة تتبدد والهمة تزول ، ولم يكد الترام يتجاوز ميدان لاطوغلى حتى أحس برهبة شديدة وبدأ يستعرض في ذهنه الأخطار التي يمكن أن يمر بها ، والمهالك التي يوشك أن يتعرض لها .

ألا يحتمل أن يكون قد ركب الترام خطأ .. وقد يحمله إلى حيث لا يريد ؟! حقيقة أنه قرأ رقم ١٢ ، ولكن من يدره أن بصره لم يخدعه ؟ وعلى أحسن الفروض أنه قد أصاب الترام المضبوط ، ماذا تراه فاعلا عندما يلقي به الترام في باب الحديد ، ذلك الفضاء الواسع المضطرب ؟

وبدأ يتصور جرائد الصباح وقد كتب على رأسها بالخط العريض الأحمر « موظف بأرشيف وزارة المالية .. يضل في باب الحديد » .. يا للخجل ! ويا للكارثة ! ولكن .. لا .. لا .. لا بد أنه سيجد من يده .. حقيقة أنه ينجح من السؤال ، ولكن لا بد له منه .

ووسط هذه الهواجس والأوهام ، وجد الترام يقف فجأة في باب الحديد .. أجل ! هذا هو تمثال نهضة مصر .. وتلك هي ساعة المحطة .

واندفع شملول أفندى من الترام كالقذيفة ، خشية أن يتحرك الترام قبل أن

يهبط منه .. ولم يجد هناك معنى لخوافه السابقة ، والمحنة أمامه تكاد تصرخ قائلة « أنا المحنة » .

ولكن المشكلة الكبرى .. كانت في كيفية العثور على القطار الذاهب إلى قليب ، وفي كيفية قطع التذكرة .. إن هذه مسألة في منتهى الخطورة .. فليس بمستبعد أن يركب قطارا خطأ ، يلقي به في غياهب القطر المصري .. وليس بمستبعد كذلك أن يذهب إلى شباك الدرجة الأولى فيلهف بائع التذاكر الجنيه الذى يملكه ويعطيه به تذكرة درجة أولى .

إن المسألة تحتاج منه إلى منتهى الحرص والتروى .
لعنة الله عليك يا قليبى .. ما كان أغناه عن مثل هذه المرمطة والبهذلة واللحمة .. لو لم يغره بتلك المخاطرة لكان الآن مستريحاً في قهوة الانشراح .. يسترق النظر إلى زكية بائعة الفجل .

وبستر من الله وجد نفسه أمام شباك الدرجة الثالثة لقطار بحرى المار بقليب ، وبفضل الله وجد نفسه يستقر على أحد مقاعد الدرجة الثالثة بجوار النافذة ، وقد أخذ قلبه يدق خشية ونشوة وطرباً .
الحمد لله .. جت سليمة .. إن المسألة في غاية السهولة .

وتحرك القطار ، ومرة أخرى بدأ الخوف يداخله .. وسأعل نفسه ماذا يكون العمل لو لم يتوقف القطار في قليب أيقذف بنفسه منه وهو سائر ؟ أم يعدو إلى السائق وبأمره بالوقوف .. أم يسلم أمره لله ويذهب مع القطار إلى حيث يذهب ؟

على أية حال .. لو قدر الله وحدثت الكارثة ، فإنه لن يغادر القطار حتى يعيده إلى القاهرة .

أجل ! هذه أضمن العواقب ، فإن القطار لا بد عائد .. إن آجلاً أو عاجلاً ، إلى مقره بالقاهرة .

وأحس بالطمأنينة تعود إلى قلبه ، وبدأ يستعرض في ذهنه المتع التى يوشك أن

يحصل عليها ، ويتصور نفسه وقد ارتدى الشورت والقبعة وأمسك بالسنارة ، وجلس على شاطئ الترعَة يصطاد .. ثم يتصور نفسه وهو راكب صهوة جواد ينطلق به بين الحقول .. ياليت زكية بائعة الفجل تراه وهو في هذه « الأملة » .. ولكن هب الحصان قد جمع به فأوقعه في الترعَة .. فمات غرقا .. لا .. لا .. لا داعى للحصان .. إنه يستطيع أن يدعى أنه قد ركب .. دون أن تكون به من حاجة إلى ركوبه فعلا .

أجل !.. لا داعى هناك لأن يلقي بنفسه إلى التهلكة .. ما دام يستطيع أن يكذب ويبالغ ويؤلف ما شاء من المغامرات والأقايص . ولكن يجب أن يرقب المحطات جيدا .. يجب ألا يترك ذهنه يشرذ به فيضيع عليه المحطة .

« قليوب » .. أجل هذه قليوب .. الحمد لله ، إن المسافة قصيرة جدا ، أقصر مما كان يتصور .

وقفز من مقعده وتناول الحقيبة ، واندفع يعدو من القطار إلى رصيف المحطة .

ووجد القليوبى فى انتظاره فأقبل يصافحه فى شوق كأنه لم يره منذ سنين ، وهز رأسه فى إعجاب وتقدير وقال ببساطة « رحلة لطيفة ، مش بطالة » ، ووضع يده فى ذراع صاحبه وهم بالسير ، ولكن صاحبه لم يتحرك ، بل بدا عليه التردد وأخذ يهمهم فى اعتذار ، ثم بدأ يفصح عن مهمته قائلا :

— أنا متأسف أوى يا شملول أفندى .. لأننى مضطر استأذن منك ، علشان انزل مصر .. لأن اختى بعنت لى ارواح لها حالا .. على العموم أنا مش حاغيب عليك يعنى بالكثير قوى خارج تسعة مساء ، وانت مش غريب ، البيت بيتك ، خد حريتك خالص .. أنا حاوصلك للبيت وأديك المفتاح وارجع علشان الحق القطار النازل على مصر .

وبوغت شملول أفندى من قول صاحبه .. وبدا عليه التردد ، وهم بأن يطلب

منه العودة معه ، إذ وجد المسألة قد أضحت مغامرة فعلا .

ولكن ماذا يقول ؟

يقول إنه يخاف أن يمكث في البيت وحده ؟

لا .. لا .. يجب أن يكون أشجع من ذلك ، وأثبت جنانا ، ماذا عليه لو بقي وحده حتى يعود صاحبه ؟ ثلاث ساعات ليست بالشئ الكثير .. ثم إنه ليست هناك عفاريت ولا غيلان في قليوب .

وهكذا سار مع صاحبه ، وبدأ الاثنان يتوغلان في الممرات الضيقة بين المزارع ويدوران يمين ويسرة حتى توقفا أخيرا أمام بيت أبيض متواضع أشبه بالمتنادر ، وقد ألحق به فناء خلفي وضعت به بعض الأقفاص الفارغة ، وتكعيبة عنب ، وبرج حمام مهجور .

وخذل شملول من منظر البيت ، وكانت الظلمة آخذة في الانتشار ، والضوء الباهت يتبدد ، والمكان قد لفته وحشة وسكون .

ولم يكن هناك مجال للتردد ، فقد سلمه القليوبى المفتاح في يده وقال له « البيت بيتك » ، وانطلق يعدو إلى المحطة .

ما شاء الله ، من يستطيع أن يتصور هذا ؟

أهكذا يقف وحده .. وسط تلك القفار الموحشة .. والظلمات المدلهمة ،

وهو غريب وحيد ؟

حتى الخادم قد أنبأه صاحبه أنه سيحضر بعد برهة . ولكن من يدرى .. إنه

قد لا يحضر أبته !

وأحس بخوف شديد ، ولم يجسر على أن يدخل البيت بل أخذ يتجول حوله .

وصمم على أن يبقى خارج البيت حتى يأتي صاحبه ، ولكن تذكر فجأة ،

ذلك الغول الذى قرأ عنه في الصحف والذى يخرج من المزارع ويهجم على

الفلاحين يوسعهم عضاً ونهشاً فأصابته رجفة ، وتخلخلت ساقاه واندفع إلى باب

البيت ففتحه وتسلسل إلى الداخل .. وأغلق الباب خلفه بشدة .

ورمى الحقيية من يده ، وأقبل على مصباح الغاز المعلق في الحائط ورفع الشريط ، وارتقى على أقرب مقعد يرتجف من الخوف .
كيف غاب عنه هذا الخطر الداهم ؟ لو لم يتذكره لظهرت الجرائد صباحا ..
ولا شغل لها سوى .. « قتيل قليبوب » .
ثم أخذ يسطر في مخيلته نبأ الحادث .

« .. خروج وحش قليبوب .. وفتكه بأحد موظفي وزارة المالية .. بينما كان الأستاذ جمعة عبد الجواد شملول يقضى عطلة نهاية الأسبوع في عزبة صديقه الأستاذ على القليوبى .. خرج يتجول ممتطيا صهوة جواده (هذا أهم ما في الأمر .. حتى تعرف زكية أنه كان يركب جوادا) » .

وهنا شرد ذهنه فترك مسألة وحش قليبوب وانطلق إلى زكية .. ترى ماذا ستفعل عندما يبلغها نبأ موته .. أتراها ستبكي ؟ لقد كانت جلستها بالأمس هائلة ، وقد تعرى باطن فخذها .. إنها لا شك تقصد أن تغريه ، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل هو .. هل يغمز لها بعينيهِ ؟

وفجأة وصلت إلى أذنيه طرقة شديدة .. كأنها صوت سقوط جسم ثقيل ، فقفز من مقعده ، وأخذ يدور حول نفسه ، وهو يلهث ويردد مرتجفا « بسم الله الرحمن الرحيم » هذه ليلة يعلم بها ربنا .

ولم يعد هناك مجال لأفخاذ زكية ، فقد احتشد في ذهنه كل ما يمكن من التصورات عن حقيقة مصدر الصوت .

هل هو الوحش ؟

من يدرى !

وتذكر قصة بوليسية كان قد قرأها في روايات الجيب .. وتذكر كيف جلس بطل القصة في كوخ موحش منعزل وكيف كانت الريح تصفر من حوله ، ثم سمع وقع أقدام تقترب من الباب ، ثم صوت أنفاس تتردد لاهثة في خوف وصوت شيء ثقيل يصطدم بالباب ، ثم سمع وقع الأقدام تبتعد هاربة .. فأخذ يقترب من

الباب فى خوف فلم يسمع شيئاً .. ففتحه فى رفق وحذر .. فإذا بجسد قتيل يهوى عليه .

ترى ماذا يفعل هو لو حدث له مثل هذا الأمر وما ذلك على هذه الليلة ببعيد ؟
وعاد بذهنه يسطر نبأ الحادث كما سيقراً بجرائد الصباح :
« موظف يرتكب جريمة قتل فى دياجير الظلام ! » .

أجل ! إنه سيتهم بالقتل ، وهو لا يكاد يقوى على قتل دجاجة .. وكيف يستطيع أن يثبت أنه غير قاتل .. والجثة ملقاة فى فناء البيت ، ولا يوجد فى البيت سواه .

وأخذ قلبه يدق فى عنف .

لا بد له من أن يغادر الدار ، حالا .

ولكن كيف يستطيع أن يخرج ؟ أيجسر على الخروج من الباب ؟
وإذا سقطت عليه جثة القتيل ؟ ماذا تراه فاعلا ؟
لا .. لا .

يجب أن يخرج من النافذة .

هذا هو خير طريق للنجاة .

وتلفت حوله ، فوجد أمامه نافذة زجاجية .. وأسرع فحمل المصباح فى يده
وأخذ فى الاقتراب منها .

وفجأة ندت عنه صرخة مدوية .

هذا هو !! معلق فى النافذة .

القتيل بعينه .. أو ربما القاتل .

أجل .. أجل .. لا بد أن يكون أحدهما .

وإذا فمن يكون هذا الذى تدلى ساقا بنظلوله وأخذتا تتأرجحان وراء زجاج
النافذة .

والآن .. ما العمل ؟.

— ٢٦٥ —

إنه ضائع ضائع .. فهو إما أن يكون قاتلا أو قتيلا .
إذا كانت ساقا البنطلون المتدلّيتان ساق القتل فهو لا بد أن يكون قاتلا ، وإذا
كانتا ساقى القاتل .. عليه العوض .
لقد انتهى .

الله يرحمك يا شملول .. ليتك سمعت كلام أمك وقنعت بقهوة الانسراح .
وفجأة سمع طرقا على الباب .
انتهى !! لقد وضح الأمر .. لا شك أنه القاتل .. وهاوى على المقعد فى شبه
إغماء .

وعاد الطرق يزداد فى إلحاح .. فأجاب فى صوت مختنق مكبوت :
— مين ؟

ومن وراء الباب سمع صوتا نسائيا يقول :
— افتح يا على افندى .

من !!؟ امرأة ؟ .. وماذا أتى بها فى هذا الوقت الحافل بالأحداث ؟! أتراها
هى القاتلة ؟

وتذكر رية وسكينة ، ونهض من مقعده وأخذ يقترب من الباب على أطراف
قدميه .. ثم وقف وراء الباب وأخذ يتساءل فى صوت مرتجف :

— مين ؟. انت مين ؟

— أنا سكينة ؟

سكينة !!؟ أجل .. هى بعينها .

وعاد يسأل فى رعب :

— انت لوحذك .. والإمعاك رية ؟

— رية مين يا سيدى ؟ .. سلامة عقلك .

— أنا سكينة خدامة اختك بهية .

— أختى أنا .. أنا مالباش أخت .

— ٢٦٦ —

- يوه .. مالکش أخت إزای ؟
 — انت عایزة مین ؟
 — عایزة على افندی القلیونی .
 — خرج .
 — أمال انت مین ؟
 — واحد صاحبه .
 — طیب افتح .
 — مافتحشی .
 — یا سیدی افتح .. الواد على دراعی یاخذ برد .
 — واد مین ؟
 — ابن اختك .. قصدی ابن اخت على افندی .
 — مافتحشی أبدا .. إلا لما اتأكد من أخینا الى متشعلق على الشباك الى جنبك .
 — بسم الله الرحمن الرحیم ، متشعلق على الشباك الى جنبی ؟ أنا مش شایفة حاجة ؟
 — أنا شایفه .. قرنی شویة من الشباك وانت تشوفی ، هیه ، شوفت ؟ :
 لقیئت إیه ؟ .
 — یوه یا سیدی خضتنی وکركبت بطنی ، ده بنطلون سی على منشور .
 وهکذا اطمأن قلبه ، فأقبل على الباب یفتحه ، ووجد الخادمة تحمل ابن أخت صاحبه .
 ودخلت الفتاة فوضعت الطفل على إحدى الأرائک ، ثم سألته :
 — أمال فین على أفندی ؟
 — سافر مصر .
 — یعمل إیه ؟

— ٢٦٧ —

— أخته طلبته في حاجة ضرورى .
 — أخته ١٩ وأنت هنا بتعمل إيه ؟
 — بتفسح .. بقضى ليلة أنس وطرب .. اتفضلى . وانتى إيه اللي جابك هنا
 أنت والولد ؟
 — أصل الجماعة جاين يقضوا الليلة هنا ، علشان يتفسحوا بكره في
 المزارع . عن إذذك يا سيدى . أنا رايحة المحطة أجيب الشنط .. خذ بالك
 م الواد .
 — تعالى هنا ، واد إيه اللي آخذ بالى منه ؟ أنا معرفش في الولاد أبدا ، تعالى أنا
 في عرضك .
 ولكن سكىنة انطلقت من الباب ، ومرة أخرى وجد نفسه وحيدا في
 البيت ، لا يؤنس وحشته .. سوى الطفل الراقد ..
 ما شاء الله .. أما ليلة !
 وارتمى مرة أخرى في مقعده ، وهو يرمق الطفل بنظرة شك وخوف .
 لا بأس عليك .. المسألة لن تزيد على خمس دقائق تحضر بعدها سكىنة
 والقافلة كلها ، ويستطيع هو أن يعود إلى داره آمنة مطمئنا .
 ولكن الخمس دقائق مرت .. دون أن يحضر أحد ..
 ومرت بعدها ساعة ونصف ساعة ، وهو جالس يحملق في الطفل وبدأ الطفل
 يتقلب على جنبه ثم فتح عينيه وأخذ يرمق شملول أفندى ، ثم انطلق في نوبة بكاء
 وصراخ .
 بس .. بس .. هوه .. هوه .
 وهكذا أراد أن يهدئ الطفل عبثا .
 لا .. إن الأمر لا يحتمل ، يجب أن يخرج ليرى أين ذهبت الخادمة اللعينة .
 وفتح الباب وأخذ يتحسس طريقه في الفناء .. ولكنه أحسّ بقدمه تصطدم
 بجسد لين .

آه .. إنها جثة .. هذه المرة لا شك فيها .. إنه القتل . الذى سمع صوت سقوط جثته منذ ساعتين .

واندفع يعدو إلى داخل الدار وأغلق الباب بشدة وارتمى على المقعد لاهثا .
والآن ماذا يفعل ؟ إنه لا يستطيع الخروج . أبدا !

هذا القتل يجب أن ينتظر إلى الصباح حتى يكتشفوا أمره وليصرخ الطفل كما يشاء !

وأغمض عينيه ودفن وجهه فى كفيه .

ومرة ثانية سمع طرقا على الباب .

من ؟ من يكون هذه المرة ؟

سكينة !!

ربما ...

وبصوته المرتجف صاح من وراء الباب :

— مين ؟

فأجابه صوت أجش عميق :

— أنا .. افتح .

وانكمش فى مقعده ، وعلا صراخ الطفل ، وبدا كأن صاحب الطرقات قد

يئس .. فانصرف عن الباب .

الحمد لله .

ولكنه لم يغب طويلا .. حتى عاد الطارق ومعه بضعة رجال ، وازداد الطرقة

شدة .

وصاح شملول بصوت مرتجف :

— مين ؟

— افتح بقول لك .. أنا محمود الغفير .

وفتح الباب فإذا به أمام الخفير ورجلين من رجال الشرطة ، وصاح محمود

— ٢٦٩ —

الغفير موضحا للعسكريين :

— أنا كنت راقدا هنا لقيت واحد خبطنى بالرجل فى ضهري ، على بال
ما فتحت عيني لقيته جرى استخبى فى البيت وقفل الباب عليه ؟
وصاح أحد العسكريين بشملول :

— بتعمل إيه هنا ؟

— بتفسح .

— بتتفسح ؟. لوحدك .. كده ! مفيش حد معاك ؟

— أيوه . لوحدى كده . مامعيش غير الولد الصغير ده .

— ودا يبقى مين ؟

— والله ما اعرفش .. اسألوا سكيته .

— سكيته !؟ هوا انت !!؟

وأطبق العسكريان على رقبتة وساقاه أمامهما كأنهما قد عثرا على مجرم طال
البحث عنه .

وصاح به أحدهما وهو يدفعه إلى الأمام :

— أمال فين الفلوس ؟

— فلوس إيه ؟

— الفلوس اللى سرقتهما البت ، يا ضلالي يا نصاب ، تغوى البت وتخليها تاخذ
الواد والصيغة وتهرب من اسيادها .. دانا حاخلى ليلتك سوده .

— أسود من كده ؟

وسار شملول أمام العسكريين حتى وصلا إلى المركز .

وهناك علم أن سكيته قد هربت وهى تنزه الطفل من بيت أخت على القليوبى
وسرقت بعض المصوغات (أو هكذا اتهمت) وأنها لم تجد طريقة للتخلص من
الطفل غير تركه فى بيت خاله على القليوبى مدعية أن سيدتها ستأتى فى أعقابها ، ثم
تفر كما فرت .

وجلس شملول فى المركز والأومباشى ينظر إليه بين آن وآخر ويسأله
متهكما :

— والبت مستنيك ، والا زاغت منك ؟ آه يا فلأتى .. يا نصاب .
ولم يجب عليه شملول فقد كان مشغولا بترتيب ما سوف تنشره صحف
الصباح !:

« موظف محترم يغوى خادمة ! » .

أو « اغتصاب وسرقة واختطاف ؟ » .

« حدث فى منتصف ليلة أمس أن ضبط أحد موظفى وزارة المالية يحمل
مسروقات تقدر بعشرة آلاف جنيه ، وهو يحمل فتاة وطفلا » (هل يستطيع أن
يحمل الفتاة والطفل ؟ يستطيع أو لا يستطيع هذا هو الذى سيقال) .

وشرد ذهنه فى سكينه .. وتصور نفسه يحملها .. ويلف ذراعاه حول
خصرها ويضع كفه تحت إبطها ويلمس صدرها . وهكذا خرج من الموضوع
وبدأ يقارن بين سكينه وزكية .. لا . لا . إن زكية أحسن كثيرا ، إن بطن
فخذها أكثر امتلاء ، ولكن كيف يحكم ، وهو لم ير فخذ سكينه ؟ .

وأحس بيد الأومباشى تجره من عنقه وتسوقه إلى الزنزانة .

ودخل شملول الزنزانة .. فأحس بالاطمئنان لأول مرة فى الليلة .. إنها على
الأقل تعنى خاتمة المطاف ، وهو يستطيع أن يرقد آمنا بين جدرانها الأربعة .
وفى الصباح استيقظ على صوت صديقه على القليوبى يوقظه ، ويعتذر إليه
عن كل ما حدث وينبئه أنهم قد قبضوا على سكينه .. ويختم اعتذاره قائلا :

— ياللا بينا بقى يا عم تشطف ونفطر ونطلع نصطاد .

— لا يا عم .. حد الله بينى وبينك ، ورينى سكة المحطة يا خويا .. توبة ان

سبت الناصرية وحى السيدة .. هوا فيه أحسن من قهوة الانشراح ؟

للمؤلف

(قصص قصيرة ١٩٤٧)	أطياف
(رواية ١٩٤٧)	نائب عزرائيل
(قصص قصيرة ١٩٤٨)	اثنتا عشرة امرأة
(.....)	خبايا الصدور
(.....)	يا أمة ضحككت
(.....)	اثنا عشر رجلا
(رواية ١٩٤٩)	أرض النفاق
(قصص قصيرة ١٩٤٩)	في موكب الهوى
(.....)	من العالم المجهول
(.....)	هذه النفوس
(رواية ١٩٥٠)	لإني راحلة
(قصص قصيرة ١٩٥٠)	مبكى العشاق
(.....)	بين أبو الريش وجنية ناميش
(.....)	أغنيات
(مسرحية ١٩٥١)	أم رتيبة
(قصص قصيرة ١٩٥١)	هذا هو الحب
(.....)	صور طبق الأصل
(رواية ١٩٥٢)	بين الأطلال
(.....)	السقامات
(قصص قصيرة ١٩٥٢)	سمار الليلي
(.....)	الشيخ زعرب
(.....)	نفحة من الإيمان
(مسرحية ١٩٥٢)	وراء الستار
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	ست نساء وستة رجال
(.....)	هذه الحياة

(رواية ١٩٥٣)	البحث عن جسد
(مسرحية ١٩٥٣)	جمعية قتل الزوجات
(رواية ١٩٥٣)	فديتك يا ليلي
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	ليلة خمر
(١٩٥٣)	همسة عابرة
(رواية في جزأين ١٩٥٤)	رد قلبي
(قصص قصيرة ١٩٥٥)	ليال ودموع
(رواية ١٩٥٦)	طريق العودة
(مقالات ١٩٥٧)	أيام تمر
(١٩٥٨)	من حياتي
(١٩٥٩)	لطمات ولثام
(رواية في جزأين ١٩٦٠)	نادية
(١٩٦١)	جفت الدموع
(مقالات ١٩٦١)	أيام مشرقة
(١٩٦١)	أيام وذكريات
(١٩٦٢)	أيام من عمري
(رواية في جزأين ١٩٦٤)	ليل له آخر
(مسرحية ١٩٦٦)	أقوى من الزمن
(رواية في جزأين ١٩٦٩)	نحن لا نزرع الشوك
(رواية ١٩٧٠)	لست وحدك
(مقالات ١٩٧٠)	من وراء الغيم
(١٩٧١)	أيام عبد الناصر
(رواية ١٩٧١)	ابتهامة على شفتيه
(رحلات ١٩٧١)	طائر بين المحيطين
(قصة ١٩٧٣)	العمر لحظة

رقم الإيداع : ٨٧/٢١٣٦

الترقيم الدولي : ٤ - ٢٨٣ - ١١ - ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صديقي - البجالة

الثلث ٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه